خطط الشام

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الرابع

الناشر
مكتبة النوري
دمشق

الطبعة الثانية
مصحّحة بقلم المؤلف
طبعَتْ بإذنٍ مِن وَرَثتِهِ

طبع على مطابع :
مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت ص.ب. : ٧١٢٠

التاريخ المدني

العلم والأدب

ما يُراد بالعلم والأدب :

نريد بالعلم علم الدين والدنيا ، فالعالم بالحديث عالم ، والعالم بالطب عالم ، والعالم بالكلام عالم ،والعالم بالهندسة عالم . والكيمياء علم ،والبيطرة علم ، والتاريخ علم والجدل علم ،وشرف هذه العلوم بشرف مقاصدها ،وأشرفها في نظر الإلهيين ما هذب النفس وأعدها للحياة الخالدة . وعلوم الدنيا هي الوسيلة إلى تلك السعادة كما قال حجة الإسلام الغزالي : إن الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لينتظم باستقامتهم أُمورهم في الدنيا ، ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا . فإن الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا .

كان البشر قبل ظهور الأديان المشهورة يستخدمون علوم الدنيا للدنيا ، وكانت بسائط على حالة ابتدائية بالطبع ، ويعكفون من جهة أُخرى على تماثيلهم وأربابهم ومعابدهم يجوّدون صنعها ، ويمجدونها ويتغنون بمدحها ، فلما جاءت الأديان المعروفة تغير الشكل بصورة أُخرى ، وبقيت العناية بالعلوم تختلف باختلاف الأصقاع والدول . أما الأدب فالذي كانت العرب تعرفه هو ما يحسن الأخلاق ويدعو إلى المكارم . واصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر أديباً وعلوم العربية أدباً . والمراد بالإسلام كما قال

النووي من حين انتشر وشاع في الناس وذلك قبل الهجرة النبوية بنحو ست سنين .

للأهوية والأهواء تأثير في العلم ، والعلوم ربيبة الأرض المعتدلة أو الباردة أكثر من الحارة والوبيئة ، لأن أهل هذه قصيرة آمالهم في الحياة ، محدودة مطالبهم ، فاترة هممهم، مثلوم حدهم، متداعية صحتهم . ومن صرف وكده أيضاً إلى الأهواء المذهبية ضعف سلطان العلم فيه ، لتوزع قواه ، وانصراف رغبته عن الفانية إلى الباقية ، واشتغال ذهنه بأمور لا يتسع لغيرها في الأغلب . وكلما توغلت أمة في مضمار المدنية نظرت إلى علوم الدين وعلوم الدنيا نظرة واحدة ، وشرّفت ما تشتد حاجتها إليه منها ، وأقبلت بكليتها على المشتغلين بها . فقد رأينا جامعات اوربا في القرون الوسطى تنشأ لغرض الدين على الأكثر ، فلما عظمت مطالب البشر ، وأخذت المدنية تسير سيرها ، أصبحت العلوم الدينية في جامعاتهم تقرأ كما يقرأ التاريخ والأدب والطبيعة ، لا فضل لديني لاهوتي على طبيعي رياضي ، إلا بالأثر الناتج عن درسه وبحثه ، هذا إن لم يرجحوا في عرفهم العالِمَ الثاني . وبينا نجد تماثيل العلماء بالمئات في شوارع الغربيين وساحاتهم ومتاحفهم ودور العلم والصناعات عندهم ، لا نشهد من علماء الدين إلا نفراً قليلاً أقيمت لهم التماثيل داخل البيع والكنائس فقط .

كان الاقتصار على العلم الديني في الصدر الأول للإسلام ، ثم تسربت العلوم الدنيوية بسرعة ، ورأى علماء الأمة أنها نافعة لقوام الدين والدنيا ، وبذلك أقنعوا العامة ومن فوق درجتهم ، فأقبل الناس عليها ، وكانت العناية أولاً بعلوم القرآن والسنة ، ثم أقبل الناس على الفقه لأن حالة الزمن اقتضت الإقبال عليه لتعدد الخصومات بين الناس واتساع المملكة الإسلامية وما حدث فيها من المشاكل والعُضُل ، ثم أقبلوا على علم الكلام ، لما رأوا الحاجة الماسة إليه خصوصاً وقد دخلت فلسفة القدماء وصادفت لها أنصاراً وعشاقاً ، ثم مالوا إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذاهب الشافعي وأبي حنيفة ، ثم كثرت العلوم بين العرب في المدن وضعفت وضعف سندها في القرن العاشر للهجرة ، إلى أن أخذت تتطور تطوراً جديداً أواخر القرن الثالث عشر وأوائل هذا القرن على ما سيجيء .

وأهم العوامل في اضمحلال العلم في ديار الإسلام زهد الملوك والأمراء فيها واشتغال الناس بالفتن والغوائل . ومذ أخذ العلماء يتعلمون علوم الدين للجاه والمال ، ضعفت علوم الدين والدنيا معاً . وأصبح السلطان للممخرقين والمعطلين والمتهوسين بمسائل الكشف والولاية من علماء الرسم ، وليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق ، وتهذيب الأخلاق ، على أن من تعلم علماً للاحتراف لم يأت عالماً وإنما يجيء شبيهاً بالعلماء . ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ، ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد ، فأقاموا للعلم مأتماً ، وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم ، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساءُ وأرباب الكسل، فيكون ذلك سبباً لارتفاعه، ومن هنا هُجرت علوم الحكمة وإن كانت شريفة لذاتها .

إن الذين يولعون بالعلم للعلم في هذا العالم قلائل جداً ، ولكنهم يكونون على الأكثر ممن نسميهم أو أكثرهم بأهل النبوغ والعبقرية ، يتفانون في مقصدهم ويأتون بالجديد يبدعون ويبرزون على من اتخذوا العلم آلة للمظاهر وعنواناً للتصدر ، وهم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة في الأرض ، وتبقى أعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم أحقاباً ودهوراً ، ومن هذا الفريق أنجبت الشام قديماً وحديثاً جماعة افتخرت بهم ، وعُدّوا بأعمالهم بالقياس إلى حال هذا القطر وإلى مجموع علماء الأمة كتلة صالحة أثرت تأثيراً محموداً في العلم والمدنية ، وقد عرفنا تراجم أكثر رجال العهد العربي لقربه منا ، ولاطراد التدوين في العرب في أغلب العصور على طريقة حسنة في الجملة ، ، فوقفنا بها على منازعهم وأعمالهم. وغابت عنا تراجم كثير من المهندسين والنقاشين والمصورين والموسيقيين لأن القوم على ما يظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من أهل الصناعات فقط لا من أهل العلم . كأن العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعةً من الصناعات . وقد اصطلح المتأخرون على أن المراد بالعلم إذا أُطلق يقصد منه العلم الديني . ومن الغريب أن بعض المتأخرين ممن دوّنوا تراجم أهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب والممخرقين ولم يذكروا مثلاً تراجم أهل تلك

الأيام من المقدرّين والبنائين وغيرهم ممن خلدوا بأعمالهم مدنية أعصارهم .

لم يتسلسل العلم قروناً طويلة في الشام تبعاً لتغير الدول وانصراف الهمم « والعلم مذ كان محتاج إلى العلَم » ذلك لأن الشام كان في جميع أدواره ممراً للفاتحين يطمع فيه جيرانه ، بل البعيدون عنه لتوسطه بين برّ آسيا وإفريقية وأوربا . والقدر الذي عرفناه من رسوخ العلم في ديارنا كافٍ ولا شك في إنشاء مدنية صالحة خصوصاً إذا دعمها ما كان ينهال عليها من علوم أهل العراق والجزيرة ومصر والأندلس وفارس وغيرها . وكأن الشرق مُني بالتساهل والإهمال ، وعدم التسلسل في الفكر والاطراد في العمل ، فكان مظهر الحياة الفردية في الأعم الأغلب من حالاته ، وعلى العكس في الغرب فإنه كان ولا يزال مثال الحياة الاجتماعية والتعصب للفكر والاستماتة فيه ، والتسلسل في الأفكار .

ولقد رأينا الغرب في قرونه الوسطى قبيل عهد النهضة يشتد في إرهاق الأفكار الحرة ، وديوان التفتيش الديني يحرق الأنفس البشرية بالعشرات للقضاء على الفلسفة والتجدد ، بيد أن الغرب كان إذا هلك فيه رجل بطريق الإلحاد والخروج عن مألوف القوم ، يقوم غيره من أخلافه في الحال يتناول ما بدأ به سلفه ، ناسياً أن الهلاك يحل به إذا اشتهر أمره . ورأينا في هذا الشرق القريب أُناساً ينزعون إلى التجديد والإبداع كان نصيبهم من الحياة ضربَ أعناقهم ، أو إدخال الرعب على قلوبهم حتى قضوا أعمارهم في خمول وتقية ، وكان نصيب الأمة العربية أن يقل فيها جداً ظهور من يخلفهم في دعوتهم ، وقد يأتي العصر والعصران ولا يظهر فيهما نابغة يذكر وعالم مبدع ، وجاء زمن وهو ليس ببعيد ، وقد أصبح الناس ينكرون البديهيات في العلم ، ويحرمون ما حال الله من ضروبه النافعة ، فغارت ينابيعه من أرضنا وفاضت في الغرب وزادت مع الأيام فيضاناً ، وقويت تقية العلماء ودخل في غمارهم الجاهلون فسقطت هيبة العلم . وكان من نتائج عمل الغربيين تلك الحضارة الحديثة المدهشة ومن تفاشلنا وتجاهلنا هذا الانحطاط المحسوس وإضاعة مدنية الأجداد .

العلم ابن الحرية ، والأدبُ ربيب التسامح ، وقد شاهدنا أجدادنا في هذه الديار المثالَ الصالح في هذا الباب على اختلاف العصور والمذاهب ، وكان

العرب في أدوارهم المختلفة يمثلون أجمل صورة من هذا القبيل . فإن كانت أنطاكية وبيروت قبل الإسلام عاصمتي الحكمة والأدب والشرائع ، فقد امتازت بعدهما حلب والمعرة وطرابلس ودمشق وحمص بهذه الخصائص . والعلم بضاعة ثمينة لا تروج الرواج المطلوب إلا في ظل السلام وصلاح السلطان.

هذا شأن العلم ، أما الأدب وهو منظوم الكلام ومنثوره والخطب والرسائل فيتصرف أيضاً على هذا المثال ، وبه أدركنا بعض الحالة الاجتماعية والروحية التي كانت عليها تلك الأعصر ، ورأينا فيه تبدلاً محسوساً في القرون التالية ، فكانت الآداب في الشام في القرن الأول غيرها في القرن الثاني والثالث ، وقد استحكمت أسباب الحضارة وعم الترف ، ونقلت علوم الأوائل وراجت سوق الشعر في الرابع والخامس في الشمال ، وما لبث في أواخر هذا القرن أن عراها الكساد قليلاً ، ثم هبت إلى الحياة بعض الشيء في السادس والسابع تبعاً للحالة السياسية التي كان عليها القطر زمن الحروب الصليبية، ولم ينشأ في الشام خلال القرنين الثامن والتاسع شاعر يجوز عدّه في مصاف المفلقين على مثال شعراء القرن الثالث والرابع ، أما في القرون الأربعة التالية فضعفت حالة الشعر أكثر من ذلك بما لا يقدر ، وأصبح نظماً لا شعراً فُقد من أكثر ما نقل من الشعر الروح وبقي جسماً له من الشعر قوافيه وأوزانه ، يطرس فيه المتأخر على مثال المتقدم وتتأثر أنفاس الابن بأنفاس أبيه وجده .

إن حكمنا على المنظوم يسوغ أن نورده في المنثور ، كان الإنشاء في القرنين الأولين للإسلام يسير مع الطبع غالباً ونبغ في الشام أفراد كعبد الحميد بن يحيى الذي وضع أساس الكتابة المرسلة ، ورأينا عمر بن عبد العزيز يكتب الكتاب في الإدارة أو السياسة أو القضاء أو في أمر مهم من أمور الدولة في سطرين أو ثلاثة ليس فيه شيء من الكلفة بتة بل هو آية الفصاحة والبلاغة ، وهكذا معظم آل بيته من بني أمية وبني مروان ، ومن نشأ في دولتهم أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه وعتبة بن أبي سفيان وشهدنا التكلف بادياً في كتابة القرون التالية التي انتقلت فيها صناعة الكتابة إلى بغداد أو القاهرة وضعف أمرها في الشام . وكان الشام يتبع العراق تارة ومصر تارة أخرى ، حتى إذا كان القرن السادس ، ونبغ في الدولة الصلاحية القاضي الفاضل

بطريقته المستملحة في الكتابة المسجعة على الأغلب ، وحذا حذوه العماد الكاتب ثم ضياء الدين ابن الأثير صاحب المثل السائر وغيرهما من كتاب الدولة أخذت تضيق حلقة الكتابة وهي احتذاء مثال المجودين من القدماء لحصرها في قيود الجناس و البديع والأسجاع فجمدت القرائح وقل المبرزون فيها المجيدون لصناعتها ، فما بالك بالإنشاء الذيهو ابتكار المعاني والإبداع في القوالب . وإذا استطعنا أن نعد عشرة كتاب في القرن الواحد لا نقوى على عدّ منشئ واحد فيه . وحكمنا هذا مبنيّ على ما قرأناه فيما خلفه السلف في هذه الديار من الكتب والآثار المبعثرة في بطون الدفاتر ، وربما كان في المفقود الذي لم يصلنا من هذا النوع ما يؤهلنا لو ظفرنا به ، أن نصدر حكماً أصح من هذا على فنون الإنشاء والكتابة والشعر والنظم ، والإنشاء من الكتابة كالشعر من النظم .

ولو لم ينبغ في الكتابة من المؤلفين أمثال القفطي وياقوت وابن أبي أصيبعة وابن العديم ثم الصفدي وابن فضل الله والمقريزي والشهاب الحلبي وأمثالهم في القرنين السابع والثامن لقلنا إن الانحطاط في الكتابة بدأ في الشام منذ القرن السادس ، بيد أنها أصبحت في الحقيقة سجعاً كسجع الكهان بظهور ابن عربشاه الدمشقي وابن حجة الحموي وأمثالهما في القرن التاسع ، أما في القرن العاشر وما بعده فإن الكتابة كالشعر كانت إلى التكلف والسجع غالباً ، ومن أفلت من المؤلفين من قيود التكلف ، ونجا من الترصيع والتسجيع ، جاء كلامه مقبولاً في الجملة وقليل ما هم .

بقيت الكتابة والشعر ترسفان في قيودهما القديمة إلى أوائل القرن الرابع عشر أيام نشأ للأمة في مصر بضعة شعراء ومنشئين أدخلوا الآداب في طور جديد ونزعوا عنها ثيابها البالية ، وألبسوها حلة قشيبة ، فقام من المنشئين أمثال محمد عبده وإبراهيم المويلحي ثم المنفلوطي وطه حسين والعقاد وأضرابهم . ومن الشعراء محمود سامي وإسماعيل صبري ثم حافظ إبراهيم وأحمد شوقي وتلك الحلبة ، وانتشرت كتاباتهم وقصائدهم في العالم العربي ومنها اقتبس شعراء الشام وكتابه وبطريقتهم اقتدوا وغيروا أسلوبهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون . وما أسلوبهم إلا الجمع بين متانة القدماء ورقة المحدثين ،

وأصبح لهذا العصر طراز خاص عرف به لم يكن له منذ عرف تاريخ الأدب العربي أي منذ زهاء خمسة عشر قرناً . وكان للصحف والمجلات ولانتشار الآداب الانكليزية والفرنسية والتركية وغيرها تأثير كبير في هذا الانقلاب الأدبي في ديارنا ، والمبرزون فيه ما زالوا قلائل جداً ، ويرجى أن لا يمضي عقدان أو ثلاثة من السنين حتى تكون الشام أخت مصر في هذا الشأن مع مراعاة النسبة بين حالة القطرين السياسية ، والنظر إلى وفرة السكان والغنى ، وتوفر أسباب التعليم العربي في القطر المصري .

العلم والأدب عند أقدم شعوب الشام :

صمت تاريخ العلم في هذه الديار عن ذكر الرجال الذين اشتهروا مثلاً على عهد الحثيين ومن كان قبلهم من القبائل التي نزلت الشام ، وخلفت فيها آثاراً في العمران لا تقوم بغير العلم، ولم ينقل إلا أسماء قليلة اشتغل أربابها بالعلم الديني والدنيوي على عهد بعض الدول الخالفة ، ولا سيما الكلدان والعبران والرومان واليونان ، ولولا بعض عاديات أثرت عن الأمم التي تأصل حكمها في بعض أرجاء القطر ، وأخبار نقلتها التواريخ الصحيحة لقلنا إن أكثرهم كانوا أمماً بدوية على الفطرة . وأهم ما أثر عن الفينيقيين مما ساعد العلم بالنسبة لعصورهم اختراعهم حروف الكتابة ، بل تحسين أصولها وجعلها مطابقة للأصوات ، ونقلهم لها إلى الأمم التي أبحروا واتجروا معها ، وعنهم أخذتها أمم الحضارة الحديثة النازلة على شواطىء البحر المتوسط وما إليها . وهذا الاختراع أهم ما عرف في القديم كما كانت الطباعة في القرون الحديثة أهم اختراعاتها في نظر العلم . قال بورتر : لا يستحق الذكر من علوم الفينيقيين سوى علم الكتابة بحروف هجائية، وليس هم أول من استعملوا الكتابة لأنا علمنا من الآثار أنها كانت عند المصريين والكلدانيين قبل عهدهم، غيرأن كتابتهم لم تكن بحروف وفق الأصوات البشرية الأصلية كالحروف الهجائية التي استنبطها الفينيقيون واعتبروا بها كل الاعتبار لأنهم أتقنوا الكتابة ونشروها بين أكثر الأمم المتمدنة لاتساع تجارتهم، فإن الحروف الهجائية في لغات أوربا وغربي آسيا وشمالي إفريقية مشتقة من حروفهم .

وأخبار العلم قبل الإسلام في الشام ضئيلة ومنها يستدل بعض الاستدلال على مكانة العقل فيه وسلامة أذواق بنيه . وكان النور يسطع بين أهل هذا القطر على حالة متقطعة لا مطردة ، ويخرج العلماء والفلاسفة فرادى ، انتقلت إلينا أسماء بعضهم ممن كانوا يعملون برأسهم أو يعملون مجتمعين مع أقرانهم في ظل الحكومات مثل يوسيفوس المؤرخ اليهودي في سنة ١٠٠م وله عدة تواريخ وقد صار والياً على الجليل ، وكتب بالسريانية ثم ترجمت كتاباته باليونانية ، ومنهم يوستوس الطبراني اليهودي المؤرخ وفيلون اليهودي الجبلي وفيلودومر الابيكوري من جَدَر وتيودور الخطيب من عسقلان وأُقليدس المهندس النجار الفيلسوف الرياضي الذي نبغ في صور ، كما نبغ فيها فرفوريوس الفيلسوف ، وكان بعد زمن جالينوس ، ونبغ في العلم بولودر المهندس الدمشقي الذي أقام عمود تراجان في رومية وبنى جسراً على نهر الطونة (الدانوب) وجاء في رَفَنية ارسطيفس الرفني وفلسفته هي الفلسفة الأولى قبل أن تتحقق الفلسفة ، وثاوذوسيوس الفلكي كان في القرن الأول قبل المسيح في مدينة طرابلس ، وممن نشأ في اللاذقية نيقولاوس صاحب جوامع الفلسفة وتوفلس صاحب الحجج في قدم العالم .

واشتهر في هذه القرون الأولى هرميوس البيروتي تلميذ فيلون المؤرخ الفينيقي في فنون الأدب ، وطوروس البيروتي في الحكمة ، ولوپركوس البيروتي في اللغويات والفلسفيات ، ومناسياس البيروتي في الخطابة ، واشتهر في الآداب مرقس كالريوس پروبس البيروتي ، و في الجغرافيا مارينوس الصوري ، وكان معاصراً لبطليموس القلوذي في القرن الثاني للمسيح . وكانت أنطاكية على عهد خلفاء الإسكندر اوسلوقس نيقاتور ومن جاء بعده مباءة أدب وحكمة ، ونبغ فيها من الشعراء ورجال الدين والأدب والخطابة على عهد انتشار النصرانية رجال عظام مثل القديس يوحنا فم الذهب اليوناني ، والقديس لوقا ، والشاعر ارستياس . وكما كانت أنطاكية دار حكمة وعلم ، كانت بيروت تدعى مرضعة الحكمة على عهد الرومان ، وكانت فيها مدرسة الفقه التي أسسها على الغالب بعض أباطرة الرومان من الشاميين — وقد نشأ من حمص وبُصرى أباطرة لبسوا تاج المملكة الرومانية وحكموها — وكانت اللغة اللاتينية لسان

العلم في تلك المدرسة ، ويدرس فيها الفقه والآداب واللغة يقصدها الطلاب من جميع أنحاء المملكة حتى من روم القسطنطينية ومن أبناء العرب ، وقد تخرج بأساتذتها أناس تأفقت شهرتهم في الأدب والشريعة ، وكان قضاة الرومان من خريجيها مدة أربعة قرون ، وكان اثنان من تلامذتها من جملة أعضاء المجمع الذي ألفه الامبراطور يوستنيانوس لتدوين الفقه وقيل ثلاثة وهم اودكسيوس واناطوليوس ودوروتاوس ، ومن أساتذتها اميل بابنيان من بيروت وكان من أشهر فقهاء الرومان ، عد من جملة الفقهاء الخمسة الذين تنزل أقوالهم منزلة شريعة ، وإذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله ، ومنهم اولبيان وهو من المشهورين من فقهاء الرومانيين ذهب بعضهم إلى أن مولده في بيروت وغيرهم إلى أنه في صور ، ومنهم يوليوس بولس الحمصي وهو مشهور في الفقهاء الرومان ، ومنهم مكسيموس الصوري وهو فيلسوف أفلاطوني ، ومنهم لوسيان السميساطي كان نقاشاً فقيهاً فيلسوفاً بليغاً ، ومنهم اسباسيوس الجبيلي الخطيب المؤرخ ، ولنجينوس صاحب زينب ملكة تدمر الذي جلبته كما جلبت بولس دي ساموزات أسقف أنطاكية لينشر العلم في أرجاء مملكتها.

وممن كان في تدمر وفي أرجاء الشام على ذاك العهد كيكلراتيس الصوري وعالم المؤرخين پوسانياس الدمشقي ونيكوماخوس المؤرخ . وممن أفضلت عليه زينب صاحبة تدمر وكانت تعرف التدمرية والمصرية واليونانية واللاتينية والعربية على الأرجح وأسماء أولادها عربية ـ كاسيوس ويونيسيوس وأوريجانس فيلسوف قيسارية . ومن علماء بيروت الأقدمين هرمبوس له تآليف عديدة وسيلير الفيلسوف ومناسيا ألف كتاباً في البيان والفيلسوف الأفلاطوني طورس والطبيب اسطرابون وساويرس بطريرك اليعاقبة وهذا كان في القرن الخامس للميلاد . وكثر في القرن الثالث للميلاد الكتاب وأرباب القرائح وأهل العلم والحصافة والحكمة ، وممن نشأ من الأدباء والفلاسفة لوسين وجامبلتوس وبلوتين.

قال سنيوبوس : حفظت في مدارس الروم في دمشق والإسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم وأكملوها ونشروها .

مواطن العلم في القطر قديماً :

كان العلم يدرس في تلك الأحقاب في أربع مدارس وهي القسطنطينية والإسكندرية ورومية وبيروت ، وقد أنشأ الرومان مدرسة في قيسارية ، وأخرى في آثينة ، وكان لصيدا على ذلك العهد مدرسة حكمة ذات شأن ، ولكن دون مكانة مدرسة جارتها بيروت . وقد ألغى يوستنيانوس مدارس قيسارية وآثينة والإسكندرية ، وأبقى مدارس رومية والقسطنطينية وبيروت ولقب بيروت بأم العلوم وظئر الشرائع . وأعفى ديوقليسيانوس قيصر الفقراء المتخرجين في مدرسة بيروت من الرسوم تنشيطاً لهم . وقد خربت مدرسة بيروت قبل الإسلام بالزلازل التي تواترت على الثغر في القرن السادس للميلاد ثم حريق سنة ٥٦٠م الذي التهم بيروت ومساكنها ومعاهدها .

وكان في غزة مدرسة قديمة تفاخر بمشاهير علماء البيان فيها وكان فصحاؤها على العهد اليوناني المرجع الأول في الفصاحة والبلاغة ، وكان في قيسارية في القرن الثالث للمسيح مدرسة علمية يعلم فيها أوريجين أحد رجال الكنيسة وتخرج منها الأسقف أوزيب أبو التاريخ الكنسي وقيل:إنه كان في أريحا مدرسة أسسها ايليا .

قال استرابون الجغرافي اليوناني من أهل القرن الأول قبل الميلاد:لم يبق في صور وصيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة، بل كان فيهما كثير من أصحاب علم الهيئة والعلوم الرياضية والخطباء والفلاسفة ، ومدارس تقتبس فيها كل العلوم البشرية ، وقد أنشأت صيدا في أيامنا كثيراً من الفلاسفة منهم بواتيوس تلميذنا وديودوت أبوه ، ونشأ في صور انتيباتر وقبله أبولون ، وكان في أيامنا فيلسوف اسمه بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه .

وكانت اللغة اللاتينية ثم اللغة اليونانية لغة العلم في هذه الأحقاب ، ولم يكن السريان السكان الأصليون دون الرومانيين واليونانيين في تخريج الرجال، ولا سيما في عهد النصرانية . فقد هبت في المئة الرابعة للميلاد اللغة الآرامية السريانية بحلب وجوارها من رقدتها ، فسار في طليعة أهلها كيرتونا الشاعر الكبير ، نشأ في حلب أو في صقعها ودرس الآداب السريانية في مدرسة الرّها ،

وهي إحدى المدارس العالية في العالم السرياني ، ونشأ منهم سمعان العمودي وبالاي والقديس إسحاق الأنطاكي ، ومن فحول شعراء السريان ، اخسنايا المنبجي أحد غلاة المنوفسية (الطبيعة الواحدة) ويوحنا بن افتون القنسريني شيد ديراً على ساحل الفرات عرف بدير قنسرين ، وكان جامعة للآداب والمعارف الآرامية عصراً طويلاً مات سنة ٥٣٨ وتوما الحرقلي نشأ في دير ترعيل قرب حلب وتلقى العلم في قنسرين وقد ترجم الأناجيل وغيرها من الأسفار المقدسة من اليونانية إلى السريانية .

ومن المدارس التي أنشأها السريان في غير أرض الشام ، ولكنها خرّجت للشاميين رجالاً أيضاً ، وسرى من علومها على هذا القطر نسمات مباركات ، مدرسة حران ، وقد أخذت الشام ولا سيما شماليها منذ القرن الخامس تغص بالمدارس والأديار حيث تُدرس الآداب السريانية ، ويتنافسون مع المدارس العالية الأخرى في ديار السريان ، وكانت حران بمثابة آثينة العالم الآرامي ، كما انبعثت من مدرسة نصيبين في ديار مضر في القرن الرابع شعلة الآداب الكلدانية الآرامية . وفي تاريخ كلدو وأثور أن مدرسة نصيبين كانت أول مدرسة في الشرق ، أزهرت في القرن الخامس والسادس والسابع وبلغت عزها ومجدها ، واشتهرت مدرسة نصيبين أكثر من مدرسة اورهاي اشتهار مدرسة المدائن وغيرها ، وكان صيتها في فارس والروم وإيطاليا وافريقية ، وهي أول كلية لاهوتية بل أول جامعة درّس فيها علم الإلهيات ، وظهر منها علماء كفاة كتبوا في الفنون ولا سيما في الإلهيات . واشتهر اليعاقبة كالنساطرة في العلم والتأليف . والنسطوريون أكثر عدداً ، واليعاقبة أكثر مادة . وكان يرشح من علوم هؤلاء الأشوريين على الشام شيء كثير للاشتراك في اللغة والدين إذ ذاك .

هذا بعض ما انتهى إلينا من أخبار العلم ونوابغه في الشام من الفينيقيين والسريانيين والرومانيين والبيزنطيين وما زالت بعض آثارهم وأخبارهم شاهدة بفضلهم ، وأنهم ليسوا دون من خلفهم في أمور كثيرة ، مما اهتدى إليه العقل البشري ، فإن حرمنا كتبهم لأن الكتابة كانت على حالة ابتدائية فلم نحرم كتابات لهم مزبورة على بعض الأحجار ، دونوا فيها أعمالهم

الحربية ومآثرهم العلمية ، لا جرم أن من ينشيء هذه المصانع وينزل فيها لا بد أن يكون على جانب من الغنى ، وهذا لا يزكو إلا بالعلم المختلف الضروب وفي ظل حضارة بديعة .

ما حمل العرب من العلم إلى الشام :

تاريخ العلم في العرب من أغرب ما سُمع في تاريخ البشر ، كانوا أول ظهورهم نصف متمدنين يكثر فيهم الأميون ويقل من يكتب فيهم حتى في أهل الطبقة الأولى ، ويعد فيهم من الممتازين من يحسن الكتابة ، خرجوا فجأة من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم ، ومن ضيق البداوة إلى متسع المدنية . ولما جاء الإسلام لم يكونوا مولعين بغير الشعر والخطب ، لا يعرفون غير الفصاحة والبلاغة ، وهما في نظرهم جماع كل العلوم ، ينقلون أنسابهم وأخبارهم في الصدور ، وعلومهم في الطب والنجوم عبارة عن تجارب شخصية أو تقليدية ، ولم يكن التدوين يعهد عندهم ، وكانت حدثت هذه الكتابة بالخط العربي قبل الإسلام بقليل نقلها إلى الحجاز حرب بن أمية ، وكان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة .أخذت الكتابة من واضعها مرامر بن مرة . وأول من علم بمكة الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم الكتاب بالمدينة ، وكان ممن أُسر ببدر ولا مال له ، فقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة ويخلي سبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت .

ولما فتحت الشام وكانت أشبه بنصف عربية بمن حكمها من الغسانيين في الجنوب والوسط والتنوخيين في الشمال من عمال الروم ومن كان ينزلها من القبائل والبطون العربية في أرجاء تدمر والفرات وغزة وسينا ، كان الشعر مما يفاخرون به ، وإذا نشأ فيهم شاعر رفعوا من شأنه واعتمدوا على قريحته في الشدائد . وكان جبلة بن الأيهم من ملوك الغسانيين شاعراً مجيداً يعجب بالشعر ويجيز عليه وهو ممدوح حسان بن ثابت ومن أهل بيته فصحاء لا يستهان بهم . جاء الشام في الجاهلية كثير من شعراء جزيرة العرب وكأنهم كانوا ينزلون على أهل جيلهم وقبيلهم ، ومنهم امرؤ القيس وقد ذكر في شعره بعض أرجاء

الشام . وكذلك حسان بن ثابت ذكر أرض الغساسنة ومنازلهم . وأقام المتلمس المتوفى سنة ٥٨٠م في حوران عند الغساسنة إلى وفاته .

جمع القرآن ونشره في الشام :

جمع القرآن على عهد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) على ما روى ابن سعد أُبيّ بن كعب ومُعاذ بن جبل وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وسعد بن عُبيد وأبو زيد ثابت . وكان مجمّع بن جارية قد جمع القرآن إلاّ سورتين أو ثلاثاً . وكان ابن مسعود قد أخذ بضعاً وتسعين سورة وتعلم بقية القرآن من مجمّع . قال وكان بقي على مجمع بن جارية سورة أو سورتان حين قُبض النبي وفي رواية أن من جُمّاع القرآن عدا من ذكروا ، علي بن أبي طالب وعبيد بن معاوية . وقال محمد بن كعب القرظي : جمع القرآن في زمن النبي صلى الله وسلم خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأُبيّ بن كعب وابو أيوب وأبو الدرداء فلما كان زمن عمر بن الخطاب كتب إليه يزيد بن أبي سفيان : إن أهل الشام قد كثروا وربلوا وملأوا المدائن ، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأعنّي يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم . فدعا عمر أولئك الخمسة فقال لهم : إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، فأعينوني رحمكم الله بثلاثة منكم ، إن أجبتم فاستهموا ، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا ، فقالوا : ما كنا لنتساهم . هذا شيخ كبير لأبي أيوب ، وأما هذا فسقيم لأبيّ بن كعب . فخرج مُعاذ وعبادة وأبو الدرداء. فقال عمر : ابدأوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة منهم من يَلْقَن ، فإذا رأيتم ذلك فوجّهوا إليه طائفة من الناس ، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد ، وليخرج واحد إلى دمشق والآخر إلى فلسطين . وقدموا حمص فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة ، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ، ومعاذ إلى فلسطين. وأما معاذ فمات عام طاعون عَمواس ، وأما عبادة فصار بعد إلى فلسطين فمات بها ، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات .

وهذه أول بعثة علمية حجازية أتت الشام لتعلم أهلها وتثقفهم . ويرجع الفضل الأول في اقتراح إنفاذها لأحد أبناء أبي سفيان النجباء كما كان أبو سفيان

وأبو حرب نقلا الخط العربي إلى الحجاز ، والشام مدينة لأمية في أمور كثيرة لاشتراكها في خدمة الحضارة اشتراكاً عملياً .

قال زيد بن ثابت : أُرسلت إلى أبي بكر فأتيته فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال لي إن القتل قد استحرّ بالقراء يوم اليمامة وإني أخشى أن يستحر القتل في القراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن ، فأرى أن يجمع القرآن بحال فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟ فقال عمر : هو والله خير فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله له صدري ورأيت ذلك الذي رآه عمر. قال زيد بن ثابت: قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك . قد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبّع القرآن واجمعه ، قال زيد : فوالله لنقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ من الذي أمرني به من جمع القرآن ، أجمع من الرقاع واللخاف[١] والعسب[٢] وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره . فكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة ابنة عمر — رواه صاحب الفهرست.

وأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ثلاثين بنسخ المصحف الذي كتب في زمن سلفه أبي بكر وتفريقه في الأمصار ، وكان بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق فإنهم قالوا : قرآننا أصح من قرآن أهل الشام ، لأنا قرأنا على أبي موسى الأشعري ، وأهل الشام يقولون : قرآننا أصح لأنا قرأنا على المقداد بن الأسود ، وكذلك غيرهم من الأمصار ، فأجمع رأيه ورأي الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي ، ويحرق ما سواه من المصاحف التي بأيدي الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلاً منها إلى مصر من الأمصار . وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد

---

(١) اللخاف ككتاب حجارة بيض رقاق .

(٢) العسب بضمتين جمع العسيب وهي جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها .

الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي . وقال عثمان : إن اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم .

فتح العرب الشام ولم يحملوا إليه غير دين يبعد عن الشرك وعبادة الأصنام، وغير بلاغة الشعر والخطب المغروسة في طباعهم ، وفطر سليمة جبلت عليها نفوسهم ، فاقتبسوا في الحال مدنية من نزلوا عليهم وتمثلوها وهضموها في أقصر مدة ، وأتوا بعدها بأمور جديدة ، على ما قاموا بمثل ذلك في بغداد ومصر وفارس والأندلس وغيرها . ولقد أظهروا وهم في أوج عزهم من التسامح مع السكان ما دهش له المخالفون واستغربه الموافقون ، ولا غرو إذا فتحوا صدورهم لتعلم العلوم بعد أن ثبت أن الرسول عليه السلام أمر زيد ابن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود أي يتعلم لغة غير لغة العرب .

العلم والأدب في القرن الأول :

من شعراء الأمويين جرير والفرزدق وكانت للأخطل الشاعر صحبة بيزيد ابن معاوية مدحه وهجا الأنصار ، وما فيهم بيت إلا ويقول الشعر ولم يمسه أحد بسوء ، وكان خلفاء الشام يقربونه على حين كان أهل نحلته يتبرمون بسلاطة لسانه ، حتى إن الأسقف حبسه مرة في الكنيسة بدمشق لشتمه أعراض الناس، واسترساله في هجوهم ، هذا والملوك تهابه ، والخلفاء تكرمه ، وذكره في الناس عظيم . ومنهم مسكين الدارمي والراعي والراجز العجلي والأحوص وعديّ بن الرقاع القضاعي وعلقمة بن عبدة وجناح بن روح والربيع بن مطر التميمي وحكيم بن عباس بن الأعور الكلبي والحسين بن عبيد الكلابي وأنيف العذري وأسباط بن واصل الشيباني صديق الخليفة يزيد بن الوليد وجواس ابن القعطل الكلبي وعثمان بن الوليد القرشي . وكان معاوية ومن خلفه من خلفاء بني أمية وبني مروان يفضلون عليهم ، ومن شعرائهم نابغة بني شيبان كان يفد على المروانيين فيجزلون عطاءه ، وكان الأمويو ن يرسلون لأبي العباس الأعمى أحد شعرائهم بعطائه إلى مكة ، وغالوا في الحرص على إكرام الشعراء ما خلا عمر بن عبد العزيز فإنه كان يقصي الشعراء عن حضرته لارتكابهم المطاعن والتشبيب في أشعارهم ، ولكنه كان رضي الله عنه يفضل

على العلماء فقد كتب إلى والي حمص : « انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا وإن خير الخير أعجله والسلام » . وظلت القبائل في الإسلام إذا نشأ منها شاعر تغتبط وتفاخر ، وإذا عدمته ذلت ، لأنها تعده لسانها الناطق ومدون مفاخرها .

وقد أعطى النعمان بن بشير عامل حمص أعشى هَمْدان شاعر اليمن عشرين ألف دينار من مال اليمانية ، اقتطعها برضاهم من عطائهم ديناراً ديناراً ، وكان من خلفاء الأمويين مثل يزيد الأول والوليد الثاني من يقول الشعر الجيد وكان عبد الملك من أكثر الناس علماً وأبرعهم أدباً .

وقد نشأ في القرن الأول من الفقهاء والمحدثين جملة صالحة في الشام منهم عبد الرحمن بن غَنْم بن سعد الأشعري الصحابي ، بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام يفقه الناس فتفقه عليه عامة التابعين بالشام (٧٨) ومنهم فضالة بن عبيد الصحابي ولي قضاء دمشق لمعاوية وأمّره غزو الروم في البحر (٥٣) ، وأبو الدرداء الخزرجي الزاهد الحكيم المقري ولي قضاء دمشق في خلافة عثمان مات (سنة ٣٢) وأول من أحدث رواية القرآن بدمشق هشام بن إسماعيل وبفلسطين الوليد بن عبد الرحمن . ومن علماء الشام أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري وأوس بن أوس الصحابي الشاعر سكن بيت المقدس والرملة (سنة ٣٢) ، ومن أخبارييهم عبيد بن شَرْيَة الجُرهمي وفد على معاوية بن أبي سفيان وأملى أشياء في أخبار الملوك أخذ عنه علاقة بن كُرْسُم الكلابي أيام يزيد بن معاوية ، وكان عارفاً بأيام العرب وأحاديثها وهو أحد من أُخذت عنه المآثر وربما جاز أن يعدّ أول من دوّن التاريخ في الشام .

ومن علماء الشاميين أبو إدريس الخولاني فقيه الشام وقاضيه ، وعمرو البكالي المحدث الفقيه ، وبشير بن الوليد الأموي كان يقال له عالم بني مروان ، وإبراهيم بن كثير بن المرتجل الرملي ، وكان عبادة بن الصامت والي بيت المقدس لعمر بن الخطاب قرأ عليه أبو سلام الحبشي واسمه محظور ويقال الباهلي الدمشقي وشهر بن حوشب الأشعري المحدث (١٠٠) ، وبلال بن أبي الدرداء الأنصاري

قاضي دمشق (٩٣) ، وأبو مسلم الخولاني شيخ الفيحاء وزاهدها من سادات التابعين ، وروح بن زِنْباع يكنى بأبي زرعة ، ويقال بأبي رِنباع الجذامي الفلسطيني كان له اختصاص بعبد الملك بن مروان ، ورجاء بن أبي سلمة الفلسطيني المحدث . ومالك بن دينار أحد الأعلام أقام في القدس (٢٣) وجبير بن نفير الحضرمي عالم أهل الشام (٧٩) وغيلان بن مروان الدمشقي من كبار المعتزلة وكان الحسن يقول إذا رأى غيلان في الموسم « أترون هذا هو حجة الله على أهل الشام ولكن الفتى مقتول » وكان أوحد دهره في العلم والزهد قتله هشام بن عبد الملك وقتل معه صاحبه صالحاً لأنه كان ينال من بني أمية . وإسماعيل بن عبد الله بن أبي مهاجر مولى بني مخزوم من أهل دمشق كان يؤدب أولاد عبد الملك بن مروان .

ونشأ من الكتاب في هذا القرن عبد الله بن أوس الغساني سيد أهل الشام وأسود بن قبيس الحميري من كتاب بني أمية بدمشق ، وفي الفلسفة ساويرا سابوخت أُسقف قنسرين اليعقوبي كان على عهد السفيانيين في الشام ممثل الحركة الأدبية وقد جادل الموارنة بحضرة الخليفة معاوية سنة (٦٥٩م) وألف رسائل ومقالات عديدة في الحساب والفلك والاصطرلاب والفلسفة واللاهوت ، ويعقوب الرُّهاوي وغيرهم ، ونشأ في القرن السابع للميلاد أي في القرن الأول للهجرة كالينيكيوس البعلبكي وهو مهندس كيماوي قيل إنه مخترع النار اليونانية المركبة من النفط والكبريت والقطران وغيرها ، وكان أبو قرة أول كاتب نصراني ديني كتب بالعربية . ومن مشاهير النصارى في القرون الأولى القديس يوحنا الدمشقي (٧٨٠م) كان علماً في عصره وألف كتباً كثيرة في اللاهوت ومنهم قزما المنشى وقزما البار وندراوس الاقريطشي والبطريرك صفرونيوس .

عناية خالد بن يزيد بالنقل وأوائل التدوين :

كانت الكتب التي ترجمت لأبي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي حكيم آل مروان وعالم قريش ، أول نقل أو تعريب كان في الإسلام في عاصمة الشام . وخالد بن يزيد هذا زهد في الخلافة وعشق العلم ، وإذا أنشأ جده معاوية ملكاً في الشام دام ألف شهر ، فإنه أنشأ بعلمه مملكة

باقية بقاء الدهر ، فقد « أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي » والصنعة صنعة الكيمياء . فترجمت له كتب فيها كما ترجمت له كتب في الطب والنجوم . وممن نقل له اصطفن القديم ، نقل كتب الكيمياء ، وكان خالد بصيراً بالطب أخذه عن يحيى النحوي وأخذ الكيمياء عن مريانس الرومي وأتقن هذين العلمين وألف فيهما وله رسائل وكتب في غير هذه الأغراض ، دالة على معرفته وبراعته ، وله شعر كثير ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسبقه . وكان من الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام وقيل عنه قد علم علم العرب والعجم ، وكان خطيباً شاعراً ، فهو أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات . وفي الفهرست: ويقال والله أعلم إنه صح له عمل الصناعة وله في ذلك عدة كتب ورسائل وله شعر كثير رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ورأيت من كتبه كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير . كتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة .

جاء في التاريخ العام: لما جاءت العرب وجدت المدنية اليونانية راسخة في جميع الأقطار التي داهمتها أولاً مثل الشام ومصر والعراق فاقتربت من المملكة البيزنطية وبدا لها من وراء مدنيتها النبوغ اليوناني كما تجلى لها من الفرس المدنيات القديمة من الهند والصين على نحو ما وجدت في بلاد كنعان ومصر تذكارات من الأمم القديمة التي لا تزال عليها مسحة الأجيال العريقة في القدم ومصانعها وأعمالها .

ولما بلغت الدولة العربية غاية عزها ، ثم تمزقت وتقسمت أصبح دينها واحداً ولسانها واحداً وقوانينها المعمول بها واحدة ، وذلك من نهر السند إلى أعمدة هركول وتمت الوحدة بين أولئك الشعوب المختلفة ديارهم ، وأخذوا يقتبس بعضهم عن بعض من تبادل التجارة وسياحة الأفراد وتنقل الجيوش والأمم وانتشار المعتقدات والأخلاق والأفكار يتصادمون ويتمازجون ويتحدون ويتداخلون وكل شعب ينقل إل الآخر عاداته وتاريخه وملكاته الطبيعية.

فالمدنية التي عمل فيها هذا العدد الكثير من الموازرين المختلفين ليست إذاً عربية صرفة، بل هي بحسب النموذجات التي تشبعت بروحها والمحيط الذي كبرت فيه : يونانية وفارسية وشامية ومصرية وإسبانية وهندية ، ولكن إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا يسع المنصف إلا أن يقول بأن قسط العرب منه كان أعظم من غيرهم فلم يكونوا واسطة فقط لِنقل هذه المدنية ينقلون إلى الشعوب الجاهلة في إفريقيا وإسبانيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وعلومه واختراعاته ، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان ، فمن مجموع هذه المواد المختلفة التي صُبّت فتمازجت تمازجاً متجانساً أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم . وبفضلهم تيسر للحضارة الإسلامية في القرون الوسطى التي عاونت فيها أيد أخرى أن تكون ذات وحدة موصوفة ، فالتقليد فيها محسوس ولكنه تقليد غير أعمى ، وسلطة الأساتذة الأقدمين لا تحول دون الأبحاث العلمية والاختراعات الحديثة كما أن مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحول دون انتشار التفنن ولطافة الإبداع في الاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق إحدى مراكزها ومنبعث أنوارها اه .

وبعد فإن خالد بن يزيد أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في الإسلام ، وفي دمشق على الأرجح أُنشئت أول دار للكتب في العالم العربي ، ودمشق أول عاصمة أُنشئت فيها دار ترجمة فأولى أبو هاشم بعمله هذه الأمة وهذه العاصمة شرفاً لا يبلى على الأيام . وإن الشام ليفخر بأن قامت فيه أول دولة عربية ممدنة ، وتمت فيه كثير من مشخصات الأمة العربية ، ومن أولها التدوين والترجمة ، فالشام أول سوق نفقت فيها بضاعة العلم والأدب فباعتها من غيرها وهذا يعدّ من مفاخرها التالدة . وخالد بن يزيد أول من عُني بعلوم الفلسفة ولم يتفرد بذلك المنصور العباسي خلافاً لما قاله كاتب چلبي من أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأموية . قال الأصفهاني كان خالد ابن يزيد ينزل حلب وتوفي سنة ٨٥هـ .

وبذا رأينا أن التدوين حدث في القرن الأول في العلوم الدنيوية ويرى نالينو أنه ربما كان أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية كتاب أحكام

النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم ، وكان مطمح نظر المدونين ضبط مقاصد القرآن والحديث ومعانيهما ثم دوّنوا فيما هو كالوسيلة إليهما .

وحدث التدوين في عصر الصحابة الكرام على ما في « توجيه النظر » فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألف كتاباً في علم الفرائض وذكر البخاري أن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث ، وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي . وذكر صاحب الفهرست أنه رأى في مدينة الحديثة على الفرات خزانة للكتب فيها بخطوط الإمامين الحسن والحسين ، وأمانات وعهود بخط أمير المؤمنين علي وبخط غيره من كتاب النبي ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم .

وذكر المؤرخون أن أول كتاب نقل إلى العربية كتاب أهرن بن أعين في الطب وجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بإخراجه للناس وبثه في أيديهم. وعمر بن عبد العزيز هوالذي قال : كنت أصحب من الناس سراتهم ، واطلب من العلم شريفه ، فلما وليت أمر الناس احتجت إلى أن أعلم سفساف العلم ، فتعلموا من العلم جيده ورديئه وسفسافه .

علماء القرن الثاني والأدب والنقلة والمنشئون فيه :

مضى القرن الأول وجاء الثاني فكثر القراء والمحدثون والشعراء والنقلة والمترسلون والكتاب بكثرة الفتوحات وفرط العناية بالعلم والأدب ، وقد نبغ في هذا القرن كثير من أهل العلم منهم رجاء بن حَيْوَةَ الفلسطيني الكندي الأردني الفقيه العالم الذي كان يجالس عمر بن عبد العزيز (١٠١) ومكحول مولى بني هذيل فقيه الدمشقيين وأحد أوعية العلم والآثار (١١٣) وعبد الله ابن عامر اليحصبي القارىء المحدث أحد القراء السبعة من التابعين من أهل دمشق (١١٨) وسليمان بن موسى الأشدق الفقيه وكان أعلم أهل الشام بعد مكحول (١١٩) وربيعة بن يزيد شيخ دمشق بعد مكحول (١٢٣) وسليمان ابن حبيب المحاربي قاضي دمشق أربعين سنة(١٢٦)ويحيى بن يحيى بن قيس

الغساني كان ثقة إماماً عالماً بالفتوى والقضاء وسيد أهل دمشق (١٣٥) ويزيد ابن يزيد بن جابر الأزدي إمام فقيه (١٣٤) والعلاء بن الحارث الحضرمي الفقيه (١٣٦) ويحيى بن الحارث الذِّماري المقرئ الدمشقي وعليه دارت قراءة الشاميين (١٤٥) وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر المحدث (١٥٤) وعبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعي البيروتي (١٥٧) كان إمام أهل الشام وعالمهم قيل: إنه أجاب في سبعين ألف مسألة ، وصار يُعمل بمذهبه في الشام نحو مائتي سنة وآخر من عمل بمذهبه أحمد بن سليمان بن حذلم قاضي الشام وعمل أهل الأندلس بمذهبه أربعين سنة ثم تناقص بمذهب الإمام مالك . وكان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام وأمره فيهم أعز من أمر السلطان . وكان مع علمه بارعاً في الكتابة والترسل .

ومن علماء الشام يونس بن ميسرة بن حَلْبس وثور بن يزيد الكلاعي الحمصي ، وكان ثقة في الحديث (١٥٣) والوليد بن مسلم الدمشقي صاحب الأوزاعي وكانوا يقولون علم الشام عند إسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم فأما الوليد فمضى على سننه ميموناً عند أهل العلم متقناً صحيح العلم (١٩٥ أو ١٩٤) ومن المحدثين الفقهاء في دمشق المطعم بن المقدام الصنعاني وأبو مَرْثَد الغنوي وابراهيم بن جدار العذري ومبشر بن إسماعيل الحلبي مولى كلب كان ثقة مأموناً (٢٠٠) ويحيى بن عمرو السَّيْباني من أهل الرملة (وسيبان بفتح السين المهملة بطن من حمير) (١٤٨) وصعصعة بن سلام الدمشقي المحدث كان أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس . وصدقة بن عبد الله السمين من كبار محدثي دمشق (١٦٦) والهِقْل بن زياد مفتي الوليد بن مسلم وله تصانيف تبلغ السبعين (١٩٥) وعبد الله بن أبي زكريا الخزاعي الفقيه كان عمر بن عبد العزيز يكرمه ويجلسه معه على السرير (١١٧) ونمير بن أوس الأشعري المحدث (١٢١) وربيعة بن يزيد القصيري من أئمة التابعين (١٢٢) وابراهيم ابن أبي عبلة من علماء التابعين (١٥٢) وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان المحدث (١٦٥) وسعيد بن عبد العزيز التنوخي الفقيه العالم (١٦٧) ومحمد بن الوليد الزُّبيدي كان أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث (١٤٨) ويحيى بن حمزة كان كثير الحديث وكان قاضياً بدمشق (١٨٣) وبقية بن الوليد الحمصي

المحدث (١٩٧) وأسد بن وداعة الطائي الحمصي المحدث (١٣٧) .

وحرص المسلمون في الصدر الأول بعد علم الدين على علم الطب ، وكان من الأطباء في القرنين الأول والثاني زمرة صالحة مختلفة مذاهبهم منهم الحكم ابن أبي الحكم الدمشقي الطبيب وكان أبوه أبو الحكم طبيباً في صدر الإسلام ، وكان أبو الحكم يستطبه معاوية ويعتمد عليه اعتماده على ابن أثال من الأطباء المتميزين بدمشق . ومنهم عيسى بن حكم الدمشقي المشهور بمسيح صاحب الكناش الكبير . وتياذوق كان في أول دولة بني مروان ومشهوراً عندهم بالطب ومنهم عبد الملك بن أبجر الكناني كان طبيباً عالماً ماهراً يقيم في أول أمره في الإسكندرية لأنه كان المتولي للتدريس بها بعد الإسكندرانيين ، ولما ملك المسلمون الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز فاستطبه واعتمد عليه في صناعة الطب .

وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب إمام الإنشاء العربي وواضع أساسه وكان عالماً في كل فن من فنون الأدب (١٣٢) وهو الذي فك قيود الإنشاء وضبط أصوله وكان ختنه سالم ويكنى أبا العلاء أحد الفصحاء والبلغاء . وقد نقل من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر ونُقل له وأصلح هو ، وله رسائل ومجموع نحو مائة ورقة . ومن الكتاب قنان بن متّى وابنه قيس وحفيده الحصين ومنهم أسامة بن زيد أبو عيسى الكاتب التنوخي ويقال الكلبي . ومن المشهورين بالبلاغة والخطابة عبد الملك بن صالح الهاشمي نسب إلى منبج ، وخالد بن عبد الله القسري الخطيب المفوّه (١٢٦) وأبو السامي وعبد الله بن خداش وأبو مسلم الشامي . .

ومن الناقلين أي المترجمين جبلة بن سالم ، وكان ناقلاً من العربي إلى الفارسي ، ونقل بعضهم شيئاً من تواريخ الأمم عن الفارسية . ولم يلبث النقل أن صار إلى بغداد بانتقال الخلافة إليها ، فانتقل بذلك المترجمون الذين أنبغتهم الشام مثل قسطا بن لوقا البعلبكي الفيلسوف الطبيب المهندس المترجم المصنف ، وكان يحسن العربية والسريانية واليونانية ، جيد النقل فصيح اللسان ، ومثل أبي عثمان الدمشقي وعبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمي المعروف بابن الناعمة ، وزروبا بن ماجوه الناعمي الحمصي وكلاهما من النقلة ، وهلال

ابن أبي هلال الحمصي صحيح النقل ولفظه مبتذل وحنين بن إسحاق البغدادي المولد نشأ في الشام وتعلم فيه .

وللشاميين منذ القديم ميل إلى النقل عن الأمم الأخرى ، هكذا فعلوا في كل قرن فقد كان الناقلون منهم في القرنين الأول والثاني وكذلك في القرون التالية إلى يومنا هذا وهم أقدر الأمم على تعلم اللغات الغريبة والتفصح فيها . وكان أكثر النقل عن السريانية ، وهذه نقلت عن العبرانية ، وهذه نقلت عن اليونانية ، ولذلك تعب فلاسفة المسلمين في حلّ رموز الفلسفة اليونانية لأنها نقل عن نقل ، وذكر أحد المعاصرين من الإفرنج أن كتب أرسطو كانت تنقل ليفهمها أهل القرون الوسطى من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية ومنها إلى العبرية ومن هذه إلى اللاتينية وكان التراجمة بادىء بدء لا يدركون فهم المعاني من كتب العرب وينقلونها إلى اللاتينية حرفاً بحرف . وقال نالينو : إن أكثر نقلة القرن الثاني كانوا ضعافاً في العلوم يترجمون بالحرف دون فهم الموضوع وكثيراً ما ترددوا في تعريب المصطلحات العلمية المجهولة عند العرب في ذلك العصر، ومن المعلوم أن طريقة التعريب لم تتقن إلا في القرن الثالث .

العلم والأدب في القرن الثالث :

لم يكن للقرن الثالث ما كان للقرن الذي سلفه من النهضة ، وتجلي آثار النبوغ والتجدد ، بل كان كالتتمة لبعض ما سمت له الهمم في القرنين الماضيين ، وعلى صورة ربما كانت أضعف ، زاد التدوين فيه أكثر من ذي قبل ، وأخذت بغداد حظها من العلماء الذين قصدوها من القاصية وبقيت الشام بمعزل ، راحت العلوم الفلسفية في بغداد أواخر القرن الثاني والثالث وسرى منها شعاع إلى الشام ثم عراها ما خنقها. وممن أفضل على الشام الخليفة المأمون فإنه أنشأ فيها مرصداً فلكياً عمله له يحيى بن أبي منصور وهو أحد أصحاب الأرصاد المشهورين في أيامه وكان ذلك في سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة بعد المائتين . وقام في الشام محمد بن عائذ صاحب المغازي والفتوح وغير ذلك من المصنفات (٢٣٣) وعبد الله بن ذكوان القارىء الحافظ (٢٤٢) وهشام بن عمار خطيب دمشق وقارئها وفقيهها ومحدثها (٢٤٥) وأحمد

ابن أبي الحواري من كبار المحدثين والصوفية (٢٤٦) ومحمود بن سميع صاحب الطبقات وأحد الأثبات الثقات (٢٥٩) وأبو زرعة الدمشقي النصري عبد الرحمن ابن عمرو المحدث صنف كتباً (٢٨١) وأبو مسهر عبد الأعلى الغساني شيخ دمشق وعالمها كان راوية سعيد بن عبد العزيز التنوخي وغيره من الشاميين (٢١٨) وصفوان بن صالح المؤذن المحدث (٢٣٩) والقاسم بن عثمان الجوعي شيخ دمشق وزاهدها (٢٤٨) والحافظ زكريا بن يحيى السِّجْزي المعروف بخياط السنة (٢٨٧) وعبد الغفار بن عثمان والوليد بن مَزْيد العذري البيروتي كان من أهل العلم والرواية وكان الأوزاعي يقول، فيما عرفت ما حمل عني أصح من كتب الوليد بن مزيد (٢٠٣) وولده أبو الفضل العباس بن الوليد البيروتي كان من أهل العلم والرواية (٢٧٠) والإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي أحد الأئمة ولد بغزة هاشم سنة خمسين ومئة وتوفي بمصر سنة ٢٠٤ وهو أول من صنف في أصول الفقه . ومن أعيان العلماء محمد بن عوف الطائي الحمصي (٢٦٩) ذُكر عند عبد الله بن أحمد بن حنبل في سنة ٢٧٣ فقال: ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثل محمد بن عوف . وعبد الله بن اسماعيل بن زيد بن صخر البيروتي ومحمد بن عبد الله بن عبد السلام بن أيوب البيروتي وآدم بن أبي إياس العسقلاني من مشايخ البخاري (٢٢١) وهشام بن الغاز بن ربيعة الجُرَشي الصيداوي (٢٥٦) وأبو بكر محمد بن بركة القنسريني الحافظ ببرداعَس سكن حلب ثم قدم دمشق وحدث بها عن أبي جعفر أحمد ابن محمد بن رجاء المصيصي ويوسف بن سعد بن مسلم وهلال بن أبي العلاء الرقي .

ولقب حافظ كان يطلق على من يحفظ ألوفاً من الأحاديث بأسانيدها وكانوا يطلقون اسم المسند على من يروي الحديث بإسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد رواية ، ويطلقون اسم المحدث على من كان أرفع منه والعالم على من يعلم المتن والإسناد جميعاً ، والفقيه على من يعرف المتن ولا يعرف الإسناد . وكان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى والمحدث من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ من ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي

ومعجم الطبراني وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية . هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذكر وكتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات المحدثين .

وممن كان في الشام الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة كان من أهل حرستا من غوطة دمشق. وعثمان بن خُرَّزاذ الأنطاكي المحدث . وأبو الحسن محمد الغساني الصيداوي المعروف بابن جميع الحافظ المحدث وأبو عبد الله محمد بن علي الصوري الحافظ . واحمد بن الخليل الحلبي المحدث وأحمد ابن المسيب الحلبي المحدث وعبد الله بن إسحاق الصُّفَّري المحدث ومؤمل الرملي وأبو توبة الربيع بن نافع ويزيد بن خالد الرملي روى عن الليث بن سعد والمفضل ابن فضالة وروى عنه أبو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني وأبو زرعة الرازي وموسى بن سهل الرملي (٢٦٢) وعبد الله بن محمد بن نصر بن طويط ويقال طويث أبو الفضل البزاز الرملي الحافظ. سمع في دمشق هشام بن عمار ودُحيماً وهشام بن خالد بن أحمد بن ذكوان ، ووارث بن الفضل العسقلاني ، ونوح بن أبي حبيب القُومَسي .

ومن شعراء هذا القرن البطين الشاعر الحمصي وعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن من شعراء بني العباس وأصله من سَلَمْيَة وإدريس بن يزيد النابلسي الأديب الشاعر وأدهم بن محرز والعتابيّ وأبو تمام. واشتهر في هذا القرن بالهندسة أبو بكر البناء المهندس الذي بنى لابن طولون ميناء عكا .

الأدب في القرن الرابع ونهضته على عهد سيف الدولة وأبي العلاء المعري :

قل في القرن الثالث في الشام الشعراء والأدباء ، ولم ينبغ فيه إلا رجال في الحديث ، والمغازي والفقه ، فطلع القرن الرابع وقد ظهر فيه الأدب العربي في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله ، ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير ، اللهم إلا إذا كان على عهد الأمويين ، ولم تبلغنا جميع أخبار شعراء سيف الدولة بن حمدان في حلب . وقد قصده نوابغ الشعراء والأدباء ، قال الصفدي وكانوا يسمون عصر سيف الدولة الطراز المذهب لأن الفضلاء الذين كانوا عنده والشعراء الذين من حوله لم يأت بعدهم مثلهم .

ذكر الثعالبي من شعراء الشام المحدثين العتابي ومنصور النمري والأشجع السلمي ومحمد بن زرعة الدمشقي وربيعة الرقي قال على أن في الطائيين (أبي تمام والبحتري) اللذين انتهت إليهما الرياسة في هذه الصناعة كفاية وهما هما . ومن مولدي أهل الشام المعوج الرقي والمريمي والعباس المصيصي وأبو الفتح كشاجم والصنوبري وأبو المعتصم الأنطاكي ، وهؤلاء رياض الشعر وحدائق الظرف . ويقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ، ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها ، وكان أديباً شاعراً أورد صاحب اليتيمة من شعرائه ومن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم في سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الأيام .

وكان في هذا القرن أكثر الجهابذة والصياغين والصيارفة والدباغين بالشام من اليهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى وانحطت مدن الشام في العلم انحطاطاً كثيراً ومنها حمص . ذكر السيوطي أنه نزلها خلق من الصحابة وانتشر بها الحديث زمن التابعين وإلى أيام حَريز بن عثمان وشعيب بن أبي حمزة ثم إسماعيل بن عياش وبقية وأبي المغيرة وأبي اليمان ثم أصحابهم ثم تناقص ذلك في المائة الرابعة وتلاشى ثم عدم بالكلية .

كان أبو فراس الحمداني الذي قال فيه الصاحب بُدىء الشعر بملك وختم بملك ، يعني امرأ القيس وأبا فراس — ابن عم سيف الدولة وأعطاه على بيت واحد ضيعة بمنبج تغل ألف دينار . ولطالما أعطاه وأعطى الشعراء في بابه ولا سيما أبو الطيب المتنبي عشرات الألوف من الدنانير دع الإقطاعات والضياع ، وكان أبو بكر وأبو عثمان الخالديان من خواص شعراء سيف الدولة وكانا على خزانة كتبه كما كان عليها أيضاً السلامي والببغاء والوأواء . وربما قلّ في الملوك من مُدح بمثل ما مدح به سيف الدولة حتى إن كلاًّ من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن علي بن محمد السميساطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت . وكان أبو محمد الفياض كاتباً لسيف الدولة ونديمه معروفاً ببعد المدى في مضمار الأدب وحَلبة

الكتابة ، أخذ بطرفي النظم والنثر ، وكان سيف الدولة لا يؤثر عليه في السفارة إلى الحضرة أحداً ، لحسن عبارته ، وقوة بيانه ، ونفاذه في استغراق الأغراض، وتحصيل المراد .

ومن خواص شعراء سيف الدولة أبو العباس أحمد بن محمد النامي وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة ، ومنهم أبو الفرج عبد الواحد الببغاء من أهل نصيبين ومن شعرائه أو ما قربوا من عصره الخليع الشامي والوأواء الدمشقي وأبو طالب الرقي وأبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المعروف بأبي الرقعمق، وأبو القاسم الحسن الواساني الدمشقي وأحمد بن محمد الطائي الدمشقي وابن أبي الجوع وابن رشدين وكشاجم (وأقام كشاجم في الرملة كثيراً فسمي الرملي ٣٦٠) والصنوبري وأبو الفتح البكتمري وأبو الفرج العجلي وأبو حصين الرقي وأبو الفرج سلامة بن بحر . ومن علماء الأدب واللغة ابن خالويه وابن جني . ومن الشعراء أبو محمد جعفر وأبو أحمد عبدالله ابنا ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوادها . وكان جعفر بن ورقاء الشيباني (٣٥٢) من بيت إمرة وتقدم وآداب ، وكان المقتدر يجريه مجرى بني حمدان وتقلد عدة ولايات ، وكان شاعراً كاتباً جيد البديهة والروية ، ومن الشعراء منصور وأحمد ابنا كَيَغْلَغ وأبو علي أحمد بن نصر بن الحسين البازيار وأبو زهير المهلهل نصر بن حمدان والمغنم المصري واسمه ابو الحسن محمد الشعباني وأبو عبد الله محمد بن الحسين وأبو نصر بن نباتة التميمي والشيظمي وأبو العباس الصُّفَّري وأبو العباس الناشيء وأبو نصر البنص ، وأبو القاسم الرقي المنجم الفلكي وعبد العزيز بن نباتة السعدي كان شاعراً مجيداً وله في سيف الدولة غرر القصائد (٤٠٥) ومن شعراء القرن الرابع الحسين بن عبد الله بن أبي حصينة المعري (٣٢٧) وممن اجتمع بسيف الدولة وجالسه مدة ثم جاء معه إلى دمشق فتوفي فيها المعلم الثاني حكيم الإسلام أبو نصر محمد الفاراني صاحب التآليف الممتعة في الحكمة (٣٣٩) .

وأهم ما يفاخر به هذا القرن نبوغ أبي العلاء أحمد بن سليمان المعري التنوخي حكيم العرب وأديبهم ، وقد كانت المعرة في أيامه كعبة القصاد ، من طلاب الآداب ، جذبهم إليها أبو العلاء ، فجعل بلده دار حكمة وأدب،

كما جعل سيف الدولة في القرن الذي قبله مدينة حلب مجمع الأدباء والشعراء بإحسانه ومشاركته . أحسن نابغة الشام أبو العلاء المعري إلى الآداب العربية أي إحسان ، وهو من بيت أدب وفضيلة ، كان أبوه عبد الله بن سليمان لغوياً شاعراً ، وأخوه الأكبر محمد بن عبد الله وأخوه الثاني عبد الواحد بن عبد الله شاعرين مجيدين ، وكان الشعر والأدب متسلسلاً فيهم من بطون كما تسلسل في بيتهم القضاء مدة مائتي سنة . ومن شيوخ أبي العلاء أبو بكر محمد بن مسعود النحوي ومحمد بن عبد الله بن سعد النحوي الحلبي ، ومن تلامذته أبو غالب همام بن الفضل بن المهذب صاحب التاريخ المشهور ، وأبو يعلى عبد الباقي ابن أبي الحصين ، وأبو محمد عبد الله الخفاجي ، ورشأ بن نظيف بن ما شاء الله المقري ، وهذا كان أول من أنشأ في دمشق داراً للقرآن في حدود سنة ٤٤٤ والخطيب التبريزي والحسن بن علي بن همام والأمير أبو الفتح بن أبي حصينة وعشرات غيرهم من أهل المعرة وكفرطاب وحلب ودمشق وحمص وحماة وطرابلس والرقة وهكار والمصيصة وبغداد وتبريز والأندلس إلى غيرهم من التنوخيين أهل بيته ، وكان أكثر هؤلاء يقول الشعر الجيد حتى أصبح ذلك من اختصاصهم . وممن صحب أبا العلاء المعري وأخذ عنه كثيراً علي بن القاضي التنوخي كان من أهل بيت كلهم فضلاء أدباء ظرفاء . ومما يستدل به على انتشار الآداب في هذا العصر وتغالي الناس في الشعر والأدب ما قيل من أن سبعين شاعراً رثوا المعري على قبره يوم مات ، فما بالك بسائر شعراء الشام على ذاك العهد .

وقام في هذا القرن من العلماء إبراهيم بن عبد الرزاق الأنطاكي مقرىء أهل الشام (٣٣٨) ومن المحدثين عمر بن علي العتكي الأنطاكي الخطيب الحافظ صاحب كتاب المقبول وعبد الوهاب الكلابي المحدث (٣٩٦) ومحمد ابن عبيد الله يعرف بابن أبي الفضل أبو الحسن الكلاعي الحمصي المحدث (٣٠٩) وأبو الدحداح أحمد بن محمد بن إسماعيل التميمي محدث دمشق كان يسكن في ربض باب الفراديس في طرف العقيبة (٣٢٨) قال القاسمي وإليه تنسب مقبرة الدحداح ، وعمر بن حسن الخرقي الحنبلي الدمشقي صاحب التصانيف العديدة وأحمد بن شرام الغساني أحد النحاة المشهورين بالشام

(٣٨٧) ومحمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي الجغرافي الرحالة صاحب كتاب أحسن التقاسيم المطبوع وأبو مسهر البيروتي المعروف بمكحول الحافظ الثقة الثبت المشهور (٣٢١) وأبو طاهر بن ذكوان البعلبكي المؤدب (٣٥٩) والمنجم الصابي البعلبكي وأبو القاسم علي بن أحمد الأنطاكي كان رياضياً مهندساً وله تصانيف جليلة وكان مشاركاً في علوم الأوائل (٣٧٦) وإبراهيم الأزدي العجلي الأنطاكي الفقيه المقرئ (٣٣٨) ومحمد بن جعفر صاحب التصانيف المشهورة كاعتلال القلوب وغيره توفي في يافا (٣٢٧) ومحمد التميمي المقدسي والحافظ أحمد بن عمير مولى بني هاشم شيخ الشام في وقته رحل وصنف وذاكر وحدث (٣٢٠) وأبو الحسين بن كشكرايا الطبيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحاوي وعيسى الرقي المنجم الطبيب وكلاهما من أطباء سيف الدولة. وكان عيسى ينقل من السريانية إلى العربية ويأخذ أربعة أرزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين. وعبد الله بن عطية المقرى الدمشقي المفسر كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب في الاستشهادات على معاني القرآن واللغة (٣٨٣) وعبد الرحيم بن نباتة الفارقي صاحب الخطب المشهورة كان خطيب حلب وبها اجتمع بأبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة (٣٧٤) وقام في حلب أربعة من الشعراء المعدودين وهم أبو الحسن المستهام الحلبي وأبو محمد الماهر الحلبي وابن الفتح الموازيني الحلبي وأبو الفرج بن أبي حصين القاضي الحلبي. ومن الشعراء الشاميين أبو الجود الرسعيي واسمه محمد بن أحمد وأبو مسكين البردعي شاعر محدث يتنقل في البلدان وكان مجوداً. والخليع الرقي واسمه محمد بن أبي الغمر القرشي. ومن المهندسين الرياضيين المجتبى الأنطاكي (٣٧٦) وديونيسيوس بطريرك اليعاقبة له تاريخ. وقيس الماروني له كتاب حسن في التاريخ.

الآداب في القرن الخامس :

امتاز القرن الخامس بأن نشأت فيه طائفة من الرجال الذين عُنوا بالفلك والعلم الطبيعي والرياضي والطب، كما امتاز بأن نبغ فيه في الأقطار العربية الأخرى من الفلاسفة أمثال ابن رشد وابن سينا والبيروني والغزالي والرازي

ممن هم فخر العرب على تعاقب الحقب . وقد انتقلت من كتبهم وأفكارهم أشياء كثيرة إلى الشام . ويصح أن يقال إن العلم اقترب من العلوم المادية في هذا الدور ، ذهبت عن الناس الدهشة بالفصاحة والشعر ونقل الأحاديث والعناية بالدين وتم تدوين أقوال أرباب المذاهب والشعراء فانصرفت العناية إلى علوم الدنيا . وممن نشأ في هذه الديار أبو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والتقسيمات والهندسة وعلم الهيئة ونقش الرخام وضرب الخيط والطب وله عدة تآليف (٥٠٠) ومحمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم والهندسة والهيئة وعلم المساحة والميقات والفلك (٥٠٠) ورضوان الخراساني الرياضي ومحمد بن عبد الواحد المهندس صنف كتاباً في ركاية الزوال بدمشق ومعرفة طلوع الفجر بالمنازل منازل القمر (٤٠٩) وجورجس بن يوحنا اليبرودي العالم بالطب وله عدة رسائل ومقالات . ومن المؤرخين حمزة بن أسد أبو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي العميد صنف تاريخاً للحوادث بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى حين وفاته وقد طبع باسم ذيل تاريخ دمشق . ومبارك ابن شرارة أبو الخير الطبيب الكاتب الحلبي النصراني كان له جرائد مشهورة بحلب عند أهلها يحفظونها لأجل الخراج المستقر على الضياع إذا اختلف النواب في شيء من هذا النوع رجعوا إليها وله تاريخ حلب توفي في حدود سنة (٤٩٠) في صور. ومن الحفاظ محمد بن علي الصوري الحافظ قالوا: كان يذاكر بمائتي ألف حديث . قال غيث : سمعت جماعة يقولون ما رأينا أحفظ منه (٤٤١) والحافظ محمد بن جميع الغساني الصيداني ويقال له الصيداوي (٤٠٢) وعبد الواحد الشيرازي المقدسي الأنصاري شيخ الشام في وقته نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل أقام بدمشق وله تصانيف (٤٨٦) وسلامة بن إسماعيل ابن جماعة المقدسي الضرير كان كثير الحفظ ألف تآليف (٤٨٠) والحسن ابن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني صاحب الخطب البديعة مشهور بنثره (٤٨٢) .

ومن الكتاب والخطباء صاعد بن شمامة المسيحي الحلبي الكاتب وأبو اليمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبي النصراني كان صاحب الديوان بحلب، وتادرس بن الحسن النصراني كان وزير صالح بن مرداس وعبد الله بن

أسعد فقيه حمص يعرف بابن الدهان . وعبد العزيز بن أحمد الكناني الدمشقي الصوفي المحدث (٤٦٦) نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي عالم الشام له عدة تصانيف درس العلم ببيت المقدس مدة ثم أتى صور ثم جاء دمشق (٤٩٠) علي بن داود الداراني الخطيب (٤٠٢) وهو الذي طلع إلى داريا كبراء دمشق لما مات خطيب جامعهم وطلبوه ليكون خطيب جامعهم فوثب أهل داريا بالسلاح وقالوا : لانعطيكم خطيبنا فقال رئيسهم : أما ترضون يا أهل داريا أن تسمع الناس في البلاد أن أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام . ومن مشاهيره الحسين بن علي بن شواش الكناني المقري (٤٩٧) والحسين بن علي بن إبراهيم الأهوازي شيخ القراء بدمشق (٤٤٦) والخطيب أبو نصر بن طلاب مسند دمشق (٤٧٠) وأبو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي الواعظ العالم (٤٥٦) ومن الشعراء عبد المحسن الصوري الشاعر (٤١٨) وأبو الفتيان بن حيوس الحلبي الشاعر . ومحمد بن سنان الحلبي الشاعر وأبو مشكور الحلبي الشاعر وأحمد بن فضالة الدمشقي شاعر . وعلي بن منصور الحلبي الملقب دوخلة يعرف بابن القارح من شيوخ الأدب راوية للأخبار كتب لأبي العلاء المعري رسالته المشهورة فأجابه عنها برسالة الغفران وكلا الرسالتين مطبوع .

ومما يذكر في هذا القرن أن القاضي جلال الملك بن عمار جدد في طرابلس دار العلم ودار الحكمة وذلك في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة لتكون مركزاً من مراكز التشيع ، فنشرت العلوم والآداب وأصبحت طرابلس مباءة علم ودرس ومباراة في التعلم وجهز هذه الجامعة الدينية بمئة ألف مجلد وربما كانت على عهده قبل استيلاء الصليبيين عليها أول بلدة علمية في الشام على ما رأى فان برشم .

العلم والأدب في القرن السادس :

دخل القرن السادس وعلى كثرة ما كان فيه من الفتن نشأ للأمة علماء خدموا العلم في فنون مختلفة ، وكانت بالشعر أقل من عصر سيف الدولة وعصر أبي العلاء المعري ، وإن كان نور الدين وصلاح الدين وأسرتهما ممن يجيزون

عليه ويعجبون ويترنمون بسماعه ، وكان من أهل بيت صلاح الدين الشعراء المفلقون ، ومما عُني به نور الدين محمود بن زنكي أنه كان يجلب العلماء من القاصية ويسكنهم بالشام مثل قطب الدين النيسابوري وشرف الدين بن أبي عصرون ، يبني لهم المدارس ويغدق عليهم وعلى مريديهم أنواع الإحسان ويدرّ عليهم الرواتب . وقد أُحصي فقهاء مدارس دمشق في عهد صلاح الدين فكانوا ستمائة فقيه ، كان يعطيهم من صدقاته . ومن كتاب للقاضي الفاضل لصلاح الدين : ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار .

وأزهرت في هذا القرن مدرسة اليعاقبة في طرابلس ومنها نشأ أبو الفرج ابن العبري صاحب التاريخ المطبوع . وتعلم كثير من المحاربين والقواد والأمراء من الصليبيين اللغة العربية في الشام . في تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها : أما بشأن اللغة (أي في عهد الصليبيين) فقد حدث ما يحدث في مثل هذه الأحوال على صورة مطردة ، وهو أن لغة الأكثر تمدناً أثر أهلها في غيرهم . وكان أكثر الأمم تمدناً بلامراء الشرقيون ولا سيما العرب واليونان . وقد تعلم قليل جداً من العرب والترك والفرس لغة الإفرنج ما عدا بعض التراجمة الرسميين . وعلى العكس تعلم كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقيب وصولهم إلى فلسطين . إلى أن قال : ولا ريب أن مجاورة التمدن الإسلامي قد ساعدت على زيادة النفوذ الذي كان العلم العربي والفنون العربية تؤثرها فينا منذ زمن طويل . ومعلوم ما تدين به لهذا التأثير كل من الفلسفة والرياضيات والفلك والملاحة وتركيب النيران الصناعية والطب والكيمياء حتى فن الطبخ فقد أخذنا عن العرب أشياء كثيرة من مثل طريقة الارقام وشروح أرسطو حتى حمام الزاجل والشعار Armoiries وأدوات الموسيقى والأزياء والثياب والزهور والبقول . وبعد فإذ حدث أحياناً أن الأشياء التي نقلت لم تكن تسمى إلا بأسماء المدنية الشرقية التي أخذت منها مثل ثوم عسقلان و ثياب دمشق فإن غيرها قد احتفظت بأسمائها العربية مع بعض التحريف وهي كثيرة ويتألف منها في الفرنسية مجموع كبير في الجملة اه .

ونبغ في هذا القرن أبو المجد محمد بن أبي الحكم ، وكان طبيباً مهندساً

فلكياً (٥٧٠) وأبو زكريا يحيى البياسي من أطباء صلاح الدين وعمل لابن النقاش وهو علي بن عيسى بن هبة الله أستاذه في الطب آلات كثيرة تتعلق بالهندسة وكان يعرف النجارة وابن النقاش هذا كان أوحد زمانه في صناعة الطب وله مجلس عام للمشتغلين عليه وكان يعالج أيضاً كتابة الإنشاء (٥٧٤) وأبو الحكم عبيد الله بن المظفر المعروف بالحكيم المغربي وهو عالم بالحكمة والطب والأدب والهندسة (٥٤٩)[1]. وعمر بن علي بن البذوخ الدمشقي عالم بالطب شاعر له تآليف (٥٧٦) وابن الصلاح عالم بالحكمة متميز بالطب مليح التصنيف (٥٤٠) وموفق الدين بن المطران عالم بالطب والاالفلسفة متعين في الفنون الأدبية له عدة مصنفات (٥٨٧) وقد نعى على أهل زمانه فتورهم وزهدهم في العلوم وقلة مضائهم ورغبتهم في الكتب والآثار وتطير بتفاقم الخطب في هذا الشأن .

وأبو الفضل عبد الكريم الحارثي الدمشقي وهو مهندس طبيب نجار نحات هندس أكثر أبواب المستشفى النوري الكبير اشتغل بالأدب وعلم النجوم والحديث له عده مصنفات (٥٩٩) وهو الذي أصلح الساعات التي بجامع دمشق . وعلي ابن عبدالباقي بن أبي جرادة العقيلي الأنطاكي الحلبي عالم بالأدب واللغة والحساب والنجوم والفلسفة مات سنة نيف وأربعين وخمسمائة . زين الدين علي بن غانم الأنصاري الدمشقي المعروف بابن منجه الحنبلي كان من أعيان أهل العلم وله رأي صائب وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص . ومحمد بن طاهر المقدسي ذو الرحلة الواسعة والتصانيف والتعاليق (٥٠٧) والحافظ أبو القاسم علي بن عساكر محدث الشام ومؤرخها ومن أعيان فقهائها صاحب تاريخ دمشق المشهور (٥٧١) وكتابه من أعظم المفاخر في التاريخ معدن أدب وركاز علم . وحمزة بن أسد أبو يعلي التميمي الدمشقي العميد بن القلانسي الكاتب صاحب كتاب ذيل تاريخ دمشق المطبوع . تولى رياسة دمشق وجمع بين كتابة الإنشاء وكتابة الحساب توفي في عشر التسعين وأربعمائة ، وتوفيق بن محمد المهندس المنجم الأديب الدمشقي وله تصانيف (٥١٦) وأبو البيان محمد بن محفوظ

---

(١) قال العماد في الخريدة: إن أبا الحكم كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله أربعون جملا المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم .

القرشي له عدة تصانيف (٥٠١) . ومخلص الدين أبو البركات عبد القاهر ابن أبي جرادة الحلبي كان أميناً على خزائن نور الدين وكان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة . وعبد الرحيم البيساني المشهور بالقاضي الفاضل الكاتب العالم صاحب الرسائل والتصانيف الجيدة ومحيي الدين بن الزكي الفقيه الخطيب (٥٩٨) وعماد الدين الأصفهاني العالم الكاتب الشاعر صاحب التصانيف ومنها الفتح القدسي المطبوع (٥٩٧) ومحمد الشهرزوري الدمشقي الفقيه الأديب الشاعر الكاتب (٥٧٢) وعبد الله بن أبي عصرون الفقيه له عدة مصنفات (٥٨٥) . وعلي بن جعفر البلخي الدمشقي من أئمة الحنفية (٥٤٨) وسُلَيم بن أيوب أحد أوعية العلم صنف الكثير في التفسير والحديث والفقه والعربية نشر العلم في صور (٥٤٧) والحافظ محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني المقدسي كان جوالاً في الآفاق يجمع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف وله تصانيف كثيرة (٥٦٧) وبهاء الدين بن شداد قاضي العسكر في زمن صلاح الدين يوسف الفقيه الكاتب المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع في سيرة صلاح الدين نشأ في حلب وعظم في أيامه شأن الفقهاء لعظم قدره وارتفاع منزلته ومجد الدين طاهر ابن نصر الله بن جهبل الحلبي والد بني جهبل الفقهاء الدمشقيين كان إماماً في الفقه والحساب والفرائض ، ومحمد بن خضر المعري شاعر . وتقي الدين عبد الغني الجماعيلي له عدة مصنفات في الرجال (٦٠٠) والحسين الأسدي مسند دمشق (٥٥١) وقطب الدين النيسابوري العالم الفقيه (٥٧٨) والحسن بن هبة الله بن صصرى التغلبي المحدث (٥٨٦) وتاج الدين الخراساني الفقيه الصوفي (٥٨٤) وتقية بنت غيث الأرمنازي الصوري الشاعرة الأديبة ولها شعر سائر (٥٧٩) وعلي بن الموازيني مسند دمشق (٥١٤) وأبو طاهر بركات الخشوعي المحدث امتاز بالسماع (٥٩٨) . وموسى البلاغاشاني الفقيه (٥٠٦) وعلي ابن إبراهيم الحسيني الخطيب (٥٠٨) وهبة الله بن أحمد الأكفاني الأمين المحدث (٥٢٤) وعلي بن مسلم السلمي الدمشقي الفقيه (٥٣٢) ونصر الله بن محمد المصيصي الدمشقي العالم (٥٤٢) .

ومن الشعراء والأدباء أحمد بن الخياط الدمشقي الشاعر الكاتب الأديب

(٥١٧) وأحمد بن منير الطرابلسي الشاعر الهجاء الوصاف المشهور (٥٤٨) وطراد بن علي المعروف بالبديع كاتب شاعر (٥٢٤) وأبو الوحش الشاعر وعبد القاهر بن عبد الله الوأواء الشاعر الأديب (٥٥١) طبع ديوانه . وعرقلة الدمشقي النديم الخليع الشاعر ومحمد بن حرب النحوي الأديب (٥٨٠) والحسين ابن رواحة الأنصاري الحموي الفقيه الأديب الشاعر (٥٨٥) ومسلم بن خضر ابن قسيم الحموي الشاعر ، والحسن بن أبي الحسن صافي النحوي المعروف بملك النحاة له مصنفات في الفقه والأصلين والنحو وله ديوان شعر (٥٦٨) وحسان بن نمير العقيلي الدمشقي الشاعر (٥٦٧) وعلوي بن عبد الله بن عبيد الشاعر الحلبي المعروف بالباز الأشهب الأديب المتفنن (٥٩٦) وأسامة بن منقذ صاحب كتابي الاعتبار ولباب الآداب وكلاهما مطبوع شاعر كاتب. وزرعة ابن موسى أبو العلاء الطبراني النصراني كاتب الأمراء بني منقذ كان معاصراً لعبد الله بن محمد بن سنان شاعر .

وقد جاء حلب الشهاب السهروردي في عهد ملكها الظاهر غازي وهو فيلسوف قتله صلاح الدين بدسائس الفقهاء قتل بقتله الحكمة ، وهي صناعة الصنائع حتى إن سيف الدين الآمدي الفيلسوف النظار الكبير في القرن التالي لم يجرؤ أن يقرئ أحداً شيئاً من العلوم الحكمية ، وبعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار ولا تقرأ إلا أشياء قليلة منها وقل النابغون والمشتغلون بها ، ولم نقف على حياة فيلسوف نشأ للشام من بين جميع من قام فيها من الأعلام ، ولم ينشأ من الأفراد أمثال قطب الدين النيسابوري والشهاب السهروردي وسيف الدين الآمدي ، ولقد أبان رنان كيف أن الفكر الديني لسوء حظ الإسلام تغلب بعد جدال طويل فخنق الحركة العلمية الفلسفية الباهرة التي جعلت المدنية العربية بتأثيرات الفارسية واليونانية والنسطورية واليهودية ردحاً من الدهر ، وارثة المدنية اليونانية . قال: وأوربا مدينة لمدنية العرب ببقايا العلم الذي قطفت ثماره في القرون الوسطى .

العلم والأدب في القرن السابع :

لما خرب التتر بغداد سنة (٦٥٦) انتقلت الحركة الأدبية بحكم الطبيعة إلى

الشام ومصر ولم تكن انقطعت منها كل الانقطاع من قبل ، فهاجر كثير من العلماء من عاصمة العراق إلى دمشق والقاهرة . وفي هذا القرن تعينت المسالك العلمية وكثر الإخصائيون وتنوعت العلوم وتوفر المشتغلون بها وأنبغ الشام طبقة عالية عُدّت تآليفهم من الأمهات في خزانة كتب الأمة العربية ، ومرجعاً ثقة للأخلاف اقتبسوها من أعمال الأسلاف. فمن المؤرخين عمر بن أبي جرادة الحلبي العقيلي المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب (٦٦٠) وهو كمال الدين عمر بن الصاحب السعيد قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن الصاحب السعيد قاضي قضاة جمال الدين أبي غانم هبة الله بن قاضي القضاة مجد الدين أبي عبد الله محمد ابن قاضي القضاة جمال الدين أبي الفضل هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة . بيت تسلسل فيه العلم خمسة بطون كانوا أجداد كمال الدين عمر أكرم به من بيت فضيلة وعلم . ومن مفاخر هذا القرن بحلب علي بن يوسف القفطي المعروف بالقاضي الأكرم أحد الكتاب المشهورين المبرزين في النظم والنثر وله تآليف أكثرها في التاريخ والأدب (٦٤٦) وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ومن كتبه المطبوعة مختصر تاريخ الحكماء . وياقوت الرومي الحموي الجغرافي المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء والمشترك وغيرها من الكتب الممتعة المنقحة المطبوعة (٦٢٦) وفي حماة إبراهيم بن أبي الدم صاحب التاريخ الكبير المظفري في الملة الإسلامية (٦٤٢) وقام فيها عبد الرحيم البارزي قاضي حماة وابن قاضيها وأبو قاضيها . وفي حماة أيضاً علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس الرياضي (٦٤٢) والقاضي جمال الدين بن واصل (٦٩٧) كان إماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والأصول والهيئة ألف تاريخاً في أخبار بني أيوب وله عدة مصنفات منها الانبرورية في المنطق صنعها للانبرور ملك الإفرنج صاحب صقلية وانبولية وأنكبردة لما توجه إليه رسولاً في أيام الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩). ونبغ من المهندسين إبراهيم بن غنائم المهندس باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق ، واسمه لا يزال منقوشاً على يسار الداخل إليها في زاوية المدخل ، وهو الذي هندس القصر الأبلق

الذي قامت التكية السليمانية في القرن العاشر على أنقاضه . ونبغ في حماة الملك المنصور محمد بن الملك المظفر بن أيوب خلف عدة مصنفات منها المضمار في التاريخ وطبقات الشعراء وكان في خدمته قريب مئتي متعمم من النحاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك . وجاء الناصر داود ابن الملك المعظم وكان شاعراً أديباً وفي أيامه راجت الفلسفة وأمن المشتغلون بها على أرواحهم . وجاء الأمجد بهرام شاه بن أيوب صاحب بعلبك وكان شاعراً رقيقاً وله ديوان (٦٢٨) ونبغ في دمشق أحمد بن خلكان قاضي قضاتها الفقيه المؤرخ المدقق وصاحب وفيات الأعيان المنقح المطبوع (٦٨١) وأحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب مؤلف طبقات الأطباء المطبوع (٦٦٨) وعبد الرحمن أبو شامة له عدة تصانيف في التاريخ وغيره (٦٦٥) ومنها تاريخ الروضتين وذيله والأول مطبوع . ويوسف بن قزاوغلي سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان في التاريخ ، المطبوع منه الجزء الثامن وهو الأخير ، أقام زمناً في دمشق (٦٥٤) وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامة في الطب والكحل والأدب والشعر وله عدة كتب منها عشرة دواوين من منظوم الكلام ومطلقه في مدح صلاح الدين لم يصلنا منها إلا المدبجات . ومن النوابغ في دمشق عز الدين الإربلي الفيلسوف الضرير كان بارعاً في الفنون الأدبية رأساً في علوم الأوائل يقرئ المسلمين وأهل الكتاب والفلاسفة (٦٦٠) وعاش في دمشق أيضاً حكيمان عظيمان من حكماء الإسلام وماتا فيها هما سيف الدين علي الثعلبي الآمدي سيد العلماء وأزكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية والمذاهب الشرعية والمبادي المنطقية أقام سنين كثيرة في حماة مستتراً ممن كانوا تحاملوا عليه ونسبوه إلى الانحلال . وقد صنف في أصول الفقه وأصول الدين والمعقولات عدة مصنفات طبع له كتاب الإحكام ومات في دمشق سنة (٦٣١) والثاني الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الأندلسي الدمشقي صاحب المذهب المشهور في التصوف وله عدة مصنفات في الأخلاق وكلام القوم منها الفتوحات المكية وفصوص الحكم المطبوعان (٦٣٨) ونبغ في دمشق شمس الدين الخويي العالم في الحكمة والشرع والطب وغيره وله تآليف (٦٣٧) ورفيع الدين الجيلي عالم بالعلوم الحكمية وأصول الدين والفقه والعلم الطبيعي والطب وله تآليف

(٦٤١) وإسماعيل بن عبد الكريم المعروف بابن المعلم كان شيخ الحنفية في وقته وشرف الدين بن الرحبي الطبيب الشاعر الأديب له تآليف (٦٦٧) وأخوه جمال الدين بن الرحبي الطبيب العالم ورشيد الدين الصوري طبيب متفنن في علوم كثيرة وله عدة تصانيف في الطب . ومهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري طبيب متميز في العلوم الحكمية وأديب له من الكتب شرح التوراة (٦٢٤) والصاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال عالم بالطب له فيه مصنف لم يوضع مثله (٦٤٣) ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي ويعرف بالدخوار عالم بالطب وهو صاحب المدرسة الطبية المعروفة بالدخوارية بدمشق، ونجم الدين يحيى بن اللبردي عالم في الحكمة والهندسة والعدد صاحب المدرسة الطبية المنسوبة إليه في دمشق وصاحب دار الهندسة أيضاً ألّف وله ثلاث عشرة سنة في الرد على عبد اللطيف البغدادي وله عدة مصنفات (٦٢١) وعلاء الدين علي بن أبي الحزم بن النفيس الدمشقي صاحب التصانيف الكثيرة كانت تصانيفه يمليها من حفظه وكان مشاراً إليه في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق . وشمس الدين بن المؤيد العُرضي الدمشقي من الحكماء الذين كانوا بدمشق ودعاهم نصير الدين الطوسي لبناء المرصد وكان العُرضي وابنه محمد من علماء الفلك وتولى مؤيد الدين الأرصاد في مرصد مراغة وقد وضع محمد كرة لا تزال محفوظة في متحف درسدن في ألمانيا. وعثمان بن الصلاح المضروب به المثل في كل فن (٦٤٣) وعلي بن محمود اليشكري المنجم له يد طولى في علم الفلك وحل التقاويم شاعر خطاط (٦٨٠) وبدر الدين ابن قاضي بعلبك عالم بالطب وعلوم الأدب له تصانيف طبية (٦٥٠) ونجم الدين ابن المنفاخ ويعرف بابن العالمة وكانت أمه عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهين اللوز طبيب عالم بالحكمة والمنطق والأدب له مؤلفات (٦٥٢) عز الدين ابن السويدي الدمشقي عالم بالطب والأدب شاعر مجيد . يعقوب السامري عالم بالطب وعلوم الحكمة له عدة مصنفات (٦٨١) وعلي بن خليفة بن أبي أصيبعة عالم بالطب والعربية وله كتب في الطب وغيره (٦١٦) وعبد العزيز بن رفيع الدين كان متميزاً في الحكمة والطبيعي والطب وأصول الدين والفقه والخسروشاهي من أصحاب التصانيف الجليلة في المنطق والحكمة ومن تلاميذ فخر الدين الرازي وعفيف الدين التلمساني الدمشقي

أديب له في كل علم مصنف (٦٩٠) وعبد الرحمن بن محمد بن عساكر ابن أخي الحافظ أبي القاسم صاحب تاريخ دمشق كان فقيه وقته (٦٢٠) وأحمد ابن هبة الله بن عساكر مسند دمشق (٦٩٩) وكريمة بنت عبد الوهاب بن علي مسندة الشام أم الفضل القرشية الزبيرية وتعرف ببنت الحبقبق (٦٤١) وفاطمة بنت أحمد بن السلطان صلاح الدين المحدثة (٦٧٨) وفاطمة بنت عساكر محدثة (٦٨٣) وست العرب بنت يحيى بن قايماز أم الخير الدمشقية الكندية المحدثة . وست الكتبة بنت الطراح المحدثة وزينب بنت علي بن أحمد بن فضل الصالحية محدثة . وعائشة ابنة عيسى بن الشيخ الموفق المقدسي المحدثة (٦٩٧). وعلي بن داود القحفازي شيخ أهل دمشق وخصوصاً في العربية . وعبد الوهاب ابن سحنون طبيب وله شعر وأدب وفقه (٦٩٤) وزيد بن الحسين الكندي علامة في فنون الآداب مفنن عُرف بعلو السماع (٦١٣) وعلم الدين السخاوي المقري النحوي الأديب الفقيه له تصانيف (٦٥٧) وإبراهيم بن أحمد بن فارس التميمي شيخ القراء بدمشق (٦٧٦) والقاسم بن أحمد المرسي اللورقي شيخ القراء والمتكلمين (٦٦١) وعبد الكريم بن الحرستاني خطيب الشام (٦٦٢) وعبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي شيخ الإسلام له تصانيف (٦٦٠) والحافظ شمس الدين محمد بن جعوان الحافظ النحوي (٦٨٢) ورشيد الدين الربعي مفسر لغوي كاتب (٦٨٧) ومحمد بن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب والفرائض (٦٩٣) وجاء من المحدثين موسى بن عبد القادر الجيلي مسند دمشق (٦١٨) والحافظ تقي الدين إسماعيل بن عبد الله الأنماطي المحدث (٦١٩) ومكرم بن محمد بن أبي الصقر القرشي المسند الفقيه (٦٣٥) وإسماعيل بن أبي اليسر التنوخي مسند الشام (٦٧٦) وعبد العظيم وهو عبد الرحمن المعروف بالمسجف (٦٣٥) والقاسم بن أبي بكر الإربلي المقري المحدث (٦٨٠) ومحمد بن علي ابن الصابوني المحدث (٦٨٠) .

وجاء من العلماء في الشام عبد الله الجماعيلي الإمام في الخلاف والفرائض والأصول والفقه والنحو والحساب والنجوم والمنازل (٦٢٠) ويعقوب بن صقلان المقدسي قرأ الحكمة على الفيلسوف الأنطاكي وعرف بها (٦٢٦) ونجم الدين النخجواني كانت له عارضة قوية في علوم الأوائل ونفيس الدولة بن طُليب

الدمشقي وولده صفي الدين النصراني الملكي ومحمد بن القيسراني الدمشقي عالم بالأدب والهيئة (٦٣٠) وأبو الفضل بن يامين الحلبي عالم بالرياضيات وعلم حل الزيج وتسيير المواليد (٦٠٤) وأحمد بن هبة الله المعروف بابن الجبراني الحلبي النحوي اللغوي وعبد الله اليونيني المحدث . ونجم الدين القمراوي عالم بالحكمة والشريعة . وشرف الدين المتاني عالم بالحكمة والشريعة وهما اللذان ذهبا إلى الموصل مختفيين ليلقيا الفيلسوف الأكبر كمال الدين بن يونس وحلا لغزه في الحكمة ، وكان عجز العلماء عن حله ، فسألهما عن موطنهما فقالا الشام فقال : من أي موضع منه قالا من حوران فقال : لا أشك أن أحدكما النجم القمراوي والآخر الشرف المتاني . وفي هذا دليل على شهرتهما في العلوم الحكمية والدينية. وقمرا مزرعة يقال لها قميرة اليوم ومتان قرية صغيرة وهما من قرى صرخد في جبل حوران .

وكانت بعض المدن عامرة بالعلماء مثل قنسرين التي خربت في القرن الرابع وكفرطاب التي خربت في أواخر الخامس . قال ابن العديم كانت كفرطاب مشحونة بأهل العلم وكان بها من يقرأ الأدب ويشتغل به . وهاتان المدينتان أصبحتا الآن قريتين حقيرتين، وكان في قرى غوطة دمشق علماء وفقهاء ويختلف إليها علماء دمشق يدرسون فيها فمن جملة تآليف الحافظ ابن عساكر كتب في روايات أهل داريا وكفرسوسة وصنعاء دمشق والربوة والنيرب ومن حدث بهما وأهل الحميريين وقبيبة وفذايا وبيت أرانس وبيت قوفا والبلاط وبيت سوا ودومة ومسرابا وحرستا وكفربطنا ودقانية وحجيرة وعين ثرماء وجديا وطرميس وبيت لهيا وبرزة . ومن هذه القرى ما دثر الآن ، وذكر المحدثين من أهل مَنين وأهل بعلبك مما دل على العناية بالحديث في القرن السادس .

ومحمد بن مياس العُرّماني الشاعر الأديب وموسى القمراوي الفقيه الأديب المناظر (٦٢٥) ومسعود بن أبي الفضل النقاش الحلبي الشاعر والتاج الصرخدي محمود بن عدي التميمي الشاعر المحسن (٦٧٤) والرشيد البصروي سعيد بن

علي أحد أئمة المذهب الحنفي النحوي الشاعر (٦٨٤) وعلي بن بلبان الكركي (٦٨٤) والفخر البعلبكي عبد الرحمن الحنبلي الفقيه المحدث (٦٨٧) وعبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة قال الصفدي: لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح وبرع في الفقه وحدث كثيراً (٦٦٢) ونبغ في حماة ابن بركات له تآليف في التاريخ. وأبو بكر بن الخيثمي الحموي كان إماماً في الأدب ومحمد بن المظفر بن أبي بكران الحموي عالم الأئمة الفقيه المحدث . وعبد العزيز بن حجة الحموي الشاعر الأديب وأبو المحاسن محمد بن نصر بن عُنين الدمشقي الشاعر (٦٣٢) ومحمد بن أبي الفضل الدّولعي الفقيه الخطيب الدمشقي (٦٣٥) ومحمد شمس الدين الأنصاري الكاتب بدمشق (٦٥٠) ومحمد بن العفيف التلمساني الشاعر (٦٨٨) ومحمد بن سوار ابن إسرائيل شاعر (٦٧٧) ومحمد بن عبد المنعم التنوخي شاعر (٦٦٩) وابن الساعاتي الشاعر الدمشقي صاحب الديوان المطبوع (٦٠٤) وفتيان الشاغوري الدمشقي الشاعر المبدع (٦١٥) وتقي الدين اليلداني المحدث (٦٥٥) وعلي بن عمر المشد شاعر (٦٥٦) وأبو المحاسن الشواء الشاعر الحلبي (٦٣٥) ومحمد بن أبي اليسر التنوخي الدمشقي الكاتب الشاعر (٦٦٩) وعبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري البدري الدمشقي إمام فقيه ناظم ناثر له تصانيف جيدة (٦٩٠) ومحمد ابن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب والفرائض (٦٩٣) وعبد العزيز السلمي الفقيه المجتهد له تصانيف (٦٦٠) وعبد الرحمن بن نجم الحنبلي الواعظ الفقيه (٦٣٤) ومحمد بن عبد الواحد السعدي المحدث الأصولي الفقيه له عدة تصانيف (٦٤٣) والحافظ خالد بن يوسف النابلسي (٦٦٣) وأبو السخاء فتيان الحلبي النحوي . ويحيى بن حميدة الحلبي المعروف بابن أبي طي صاحب التاريخ وطبقات العلماء (٦٣٠) ويحيى بن محمود الثقفي الحلبي محدث . وأحمد بن محمد الطرسوسي الحلبي محدث ويعيش بن علي الحلبي النحوي المعروف بابن الصائغ شرح المفصل للزمخشري المطبوع وشرح تصريف الملوكي لابن جني المطبوع منه المتن (٦٤٣) . وكانت حلب لما دخلها ابن خلكان في هذا العصر في سنة (٦٢٦) للاشتغال بالعلم أمّ البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين. ومما انفرد

به هذا القرن على صورة لم يسبق لها مثال إنشاء ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة في دمشق فكان في هذه العاصمة أعظم جامعة إسلامية عربية حوت العلوم الدينية والدنيوية فلم تكن دون القاهرة بأزهرها الذي بني في القرن الرابع ولا بغداد بمدرستها النظامية .

الإمام ابن تيمية والإصلاح الديني والأدب والعلم في القرن الثامن :

اختص القرن الثامن بقيام أعظم مصلح فيه وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده ، أراد إرجاع الدين إلى نضرته الأولى ، وتعريته من القشور التي ألصقها به الجهلة المتنمسون ، فآذوه وعذبوه ، وسجنوه ونفوه ، ونعني به شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية نابغة النوابغ في الشرع وصاحب التآليف العديدة الممتعة المطبوعة ، وإمام المعقول والمنقول ، وسيد العلماء ، ورأس الفقهاء (٧٢٨) وإن دمشق لتفاخر وحق لها الفخر بأنها تجلت فيها روح ابن تيمية ، ودفنت أعظمه في تربتها ، ولكن عصره يخجل كل الخجل من أعمال من ناهضوه مدفوعين بعامل الحسد ، ولا سيما المشايخ بنو السبكي الذين آذوه فأكثروا من أذاه ، طمعاً في نيل الحظوة من العامة والملوك واستعانوا بنفوذهم السياسي في حكومة مصر والشام فاعتقلوه زماناً في القاهرة والإسكندرية ودمشق ، والأمة وعقلاء علمائها تقدسه حتى لقيَ ربه . وقد أشبه ابن تيمية في دعوته في الإسلام « لوثيروس » صاحب المذهب الإنجيلي في النصرانية بيد أن مصلح النصرانية نجح في دعوته ، ومصلح الإسلام أخفق ويالالأسف .

قال السيوطي : إن دمشق كثر بها العلم في زمن معاوية ثم في زمن عبد الملك وأولاده وما زال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون في زمن التابعين وتابعيهم ثم إلى أيام أبي مسهر ومروان بن محمد الطاطري وهشام ودحيم وسليمان بن بنت شرحبيل ثم أصحابهم وعصرهم . وهي دار قرآن وحديث وفقه ، وتناقص بها العلم في المائة الرابعة والخامسة وكثر بعد ذلك ولا سيما في دولة نور الدين

وأيام محدثها ابن عساكر والمقادسة النازلين بسفحها ثم كثر بعد ذلك بابن تيمية والمزيّ وأصحابهما .

ونبغ أفراد في هذا العصر ولا سيما في الفلك والتاريخ والجغرافيا والحديث، ومنهم بدمشق البرزالي محدث الشام وصاحب التاريخ والمعجم الكبير (٧٤٠) والحافظ جمال الدين المزي صاحب التصانيف (٧٤٢) والحافظ محمد بن قايماز الذهبي عالم الشريعة والأدب والتاريخ وله عشرات من المصنفات أكثرها في التاريخ والرجال منها تاريخ الإسلام والمشتبه وميزان الاعتدال وطبقات الحفاظ وهذه الثلاثة الأخيرة مطبوعة(٧٤٨) والحافظ عمادالدين بن كثير المفسر المؤرخ الفقيه صاحب التآليف ومنها تاريخه المطول المطبوع (٧٧٤) ومحمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي الإمام الحجة المجدد من أكبر أنصار شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٥١) طبعت بعض كتبه في السنة ومن أهمها إعلام الموقعين . وأحمد بن فضل الله العمري الدمشقي إمام أهل الأدب والتاريخ والجغرافية والأسطرلاب وحل التقاويم وصور الكواكب وله عدة مصنفات منها مسالك الأبصار والتعريف بالمصطلح الشريف وهما مطبوعان . ومسالك الأبصار معلمة أدبية تاريخية كبرى (٧٤٩) وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الأديب المؤرخ صاحب الكتب المهمة من المطبوع منها الوافي بالوفيات (أجزاء) ونكت العميان وشرح قصيدة ابن زيدون والأرب من غيث الأدب وتشنيف السمع والغيث المنسجم ونسب الجراكسة ولوعة الشاكي وجنان الجناس إلى غير ذلك (٧٦٤) والملك المؤيد إسماعيل أبو الفداء وكان عالماً فقيهاً مؤرخاً جغرافياً فلكياً منها تاريخه وكتابه تقويم البلدان وهما مطبوعان (٧٣٢) وكان يفضل على العلماء كثيراً أوى إليه أثير الدين الأبهري فرتب له ما يكفيه ورتب لجمال الدين ابن نباتة في دمشق كل سنة ستمائة درهم غير ما يتحفه به . وبعمل الملك المؤيد أبي الفداء وعمل أسرته من قبل ومن بعد أصبحت حماة مدينة علم وأدب وخرجت رجالاً يفتخر بهم في تاريخ العلم وكانت أشبه بالقرى في القرون الأولى للفتح الإسلامي . ومثل هؤلاء الملوك على صغر ممالكهم كانوا مادة العلم والأدب في تلك العصور ، وكثيراً ما كان ملوكنا هؤلاء يحتالون

لنشر العلم بطرق غريبة حتى إن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة . ومن قرأ المفصل تعلم النحووالأدب معاً . وفي أواخر دولة المعظم عيسى هذا وفي دولة أبيه داود اشتهر بدمشق الاشتغال بعلوم الأوائل وكثر ذلك فأخمد في الدولة الأشرفية . ولعل ما نال أصحاب ابن حزم الظاهري من الضرب الذي أوعز به ملك مصر إلى فقهاء الشام في القرن الثامن كان من جملة ما ارتآه الجامدون من الأسباب للنيل من المجددين .

وجاء في هذا العصر أبو بكر محمد الأنصاري المعروف بشيخ الربوةالدمشقي كان يعرف الرمل والأوفاق ونحو ذلك من العلوم وهو صاحب نخبة الدهر في القوزموغرافيا والجغرافيا المطبوع والسياسة في علم الفراسة (٧٢٧) وأبو بكر بن عبد الله بن أيبك صاحب صرخد له تآليف كثيرة. ومحمد الأكمل بن مفلح الدمشقي الفقيه المؤرخ (٧٦٤) ومحمد بن شاكر الكتبي صاحب التصانيف منها فوات الوفيات المطبوع وعيون التواريخ (٧٦٤) . وعمر بن الوردي المعروف بابن أبي الفوارس صاحب التاريخ وديوان الشعر والمقامات المطبوعة كان فقيهاً أديباً (٧٤٩) . وعلي بن إبراهيم علاء الدين بن الشاطر الفلكي الدمشقي (٧٧٧) ويعرف أيضاً بالمطعم الفلكي ، كان أوحد زمانه يعرف تطعيم العاج وعالماً بالهيئة والحساب والهندسة وكانت له ثروة ومباشرات ودار من أحسن الدور وضعاً وأغربها ، وله الزيج المشهور والأوضاع الغريبة التي منها البسيط الموضوع في منارة العروس بجامع دمشق يقال: إن دمشق زينت عند وضعه، وفي تاريخ الصالحية أن ابن الشاطر هو صاحب الأسطرلاب والبسيط وكان له نظر على التوقيت بالجامع وألف الزيج والكرة وله الرسالة عليها . ويعرف علم الخيط في المزولة وتركيبها .

ومن المهندسين محمد بن إبراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي والمعلم علي بن محمد التقي المهندس كان معاصراً لابن فضل الله وحدثه بأحاديث عن الجامع الأموي وشهاب الدين أحمد الحموي النقاش كتب الختمة

الشريفة من أولها إلى آخرها على خوصة مفصلة الأجزاء والسور . ومن المحدثين الحافظ علي بن محمد اليونيني البعلي (٧٠١) قال الزبيدي وله ولأبيه ترجمة حسنة وإخوته البدر الحسن والقطب موسى وأمة الرحيم حدثوا ومن ولده الصدر عبد القادر وعم أبيه الزين عبد الغني وهم بيت علم وحديث . وعمر بن إبراهيم العجمي الحلبي فقيه فرضي حاسب له مصنفات (٧٧٧) وحسن بن عمر بن حبيب الحلبي له عدة تآليف منها درة الأسلاك في دولة الأتراك وأكثر كتبه مسجعة (٧٧٩) وعلي بن مظفر الوداعي المقرئ المحدث الكاتب وقف التذكرة الكندية في خمسين مجلداً وضعها في المدرسة السميساطية وهي بخطه في فنون مختلفة (٧١٦) وقاضي القضاة بدمشق عبد الله المقدسي (٧٣١) والجلال القزويني إمام البيان صاحب المصنفات والمثل السائر في الخطابة (٧٣٩) وعلي ابن سليم بن ربيعة الأذرعي فقيه أديب نظم التنبيه في الفقه في ستة عشر ألف بيت وشعره كثير (٧٣٢) وعبد الله بن مروان الفارقي الخطيب الفقيه (٧٠٣) وأحمد بن إبراهيم بن سباع الفزاري الخطيب النحوي المحدث (٧٠٥) ومحمد ابن أبي بكر الأرموي القرافي صاحب التآليف (٧١٤) وصلاح الدين خليل ابن كيكلدي الدمشقي ثم المقدسي أخذ عن مشايخ الدنيا له عدة مصنفات محررة (٧٦١) وشيخ قراء دمشق أحمد بن محمد بن أبي الحزم سبط السلعوس (٧٣١) وأحمد بن البرهان له مصنفات (٧٣٨) . ومحمد بن عبد الهادي البحر الزاخر في العلم (٧٤٤) وشيخ القراء ذو الفنون إبراهيم بن عمر الجعبري بالخليل(٧٣٢) وتصانيفه كثيرة . ومحمد بن جماعة الكناني الحموي له معرفة بفنون وله عدة مصنفات (٧٣٣) ومحمد بن علي المؤذن المعروف بابن أبي العشائر (٧٨٩) له عدة مصنفات منها تاريخ قنسرين . وعبد الرحمن الفقيه المواقيتي سبط الأبهري وكان له يد طولى في الرياضي والوفق والعمليات ومشاركة في فنون (٧٣٣) وهبة الله البارزي الجهني الحموي المؤلف العالم المشهور (٧٣٨) وعثمان بن محمد البارزي الحموي شرح الحاوي في الفقه (٧٣٠) وإسماعيل بن محمد بن جمال الدين بن الفقاع الحموي (٧١٥) العالم بالقرآات العربية درس في عدة مدارس بحماة وشهاب الدين السبكي الفقيه له تآليف (٧٧١) والكمال ابن الزملكاني الفقيه الأصولي العالم بالعربية صاحب الرسائل (٧٢٧) والأمير

العالم الشاعر أبو بكر محمد بن صلاح الدين بن صاحب الكرك (٧٣٠) وسليمان ابن أبي العز الأذرعي الفقيه (٧٠٧) والقاسم بن محمد الإشبيلي المحدث المؤرخ (٧٣٩) ومحمد بن سليمان الصرخدي المصنف الجامع بين أشتات العلوم (٧٩٢) وقاضي القضاة يوسف المحجي (٧٣٨) وابن أخيه محمود بن محمد ابن جبلة الخطيب ومحمد بن إسماعيل الكفربطناوي من فقهاء المدارس ؛ وقاضي قضاة دمشق إبراهيم بن عبد الباعوني ومحمد بن يعقوب المعروف بابن الصاحب الحلبي (٧٦٣) فقيه أديب كاتب ومحمد بن عيسى البعلي كان صاحب فنون (٧٣٠) وأسمى بنت محمد بن سالم بن صصرى التغلبية المسندة المحدثة (٧٣٣) وزينب بنت الكمال محدثة قرأ عليها كبار العلماء . وست العرب ابنة محمد بن علي الدمشقية المحدثة كانت حية سنة ٧٦٦ ومن الأطباء سليمان بن داود كبير الأطباء بدمشق (٧٣٢) وأحمد بن الصلاح البعلبكي الطبيب في بعلبك صاحب التآليف .

ومن الشعراء والكتاب علاء الدين بن غانم كاتب شاعر (٧٣٧) والحسن بن علي المحدث الكاتب المجود (٧٣٢) ومحمد بن الحسن الصائغ العروضي الأديب الشاعر له تآليف (٧٢٢) وأحمد أبو جلنك الشاعر الحلبي (٧٠١) . ومن كتاب هذا القرن الشهاب محمود الحلبي صاحب حسن التوسل في معرفة صناعة الترسل (٧٥٥) وأحمد الأنصاري . إلى أمثالهم ممن نبطوا العلم ونشروه وأظهروه .

ويلاحظ أن أعلاماً من العلماء اشتهروا في هذا القرن والذي قبله وبعده ، وكثير منهم نشأ من قرى الجنوب والشمال ، والقرى ما زالت مادة المدن في العلم والأدب كما هي في الزرع والضرع ، ومن مواطنهم اليوم من لا يعرف شيئاً مما يطلق عليه اسم العلم ، وبعضها في جاهلية جهلاء ، مثل زملكا وحرستا وكفربطنا والمزة ويلدا وداريا وإزرع ومحجة ونوى والجيدور ويبرود والبقاع وعجلون وصرخد ومتان وقمرا وحسبان والكرك وجبرين ويونين وأنطاكية وصفد وبعلبك والمعرة وكفرطاب وشيزر . وتوشك بعض تلك القرى أن تدثر ، وأعمال النابغين فيها خالدة خلود الدهر فسبحان من هذا شأنه .

العلوم في القرن التاسع :

بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع ، فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملاً علمياً عظيماً ، أو دل على نبوغ في فرع من فروع العلم ، وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين ، والسبب أن حكومة المماليك البرجية والبحرية كانت تشتد في إرهاق المتفلسفة والمتفقهة على غير الأصول المتعارفة التي لم يشتهر منها سوى أربعة أئمة : الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي. فكان المخالف قليلاً يعزر على مذهب المالكية ، والقتل أيسر مراتب التعزير عندهم ، ثم زادت الحال اشتداداً في أوائل القرن بانسيال جيوش تيمورلنك على القطر ، وقتله لبعض العلماء ، وحمله إلى سمرقند كل ممتاز بعلم أو صناعة . ومع هذا نشأ في هذا القرن أفراد قلائل في العلم ذكر التاريخ تراجمهم ، ومنهم أبو بكر بن أحمد ابن قاضي شهبة صاحب الطبقات وغيره (٨٥١) وأحمد بن علاء الدين حجي الحسباني الدمشقي الحافظ المؤرخ له كتاب سماه الدارس في أخبار المدارس ولعله الأصل لكتاب النعيمي في المدارس وله ذيل على تاريخ ابن كثير وغيره (٨١٥) وأحمد بن محمد بن عربشاه له عدة مصنفات في الأدب والتاريخ شاعر كاتب مجيد في اللغات العربية والفارسية والتركية ومن تآليفه عجائب المقدور في أخبار تيمور وهو مطبوع (٨٥٤) وصالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت وأمراء الغرب المطبوع كان في أواسط القرن التاسع ونقل عن أحمد بن شباط الغربي الأديب المؤرخ أيضاً .

ومن الفقهاء إبراهيم بن محمد العجلوني الفقيه كان في الشاميين نظير البيجوري في المصريين (٨٢٥) وإبراهيم بن إبراهيم النووي متميز في الفرائض والحساب ومتعلقاتهما له تآليف (٨٥٠) وإبراهيم بن علي الحسني البقاعي له مصنفات في الفقه والنحو والمنطق والحكمة وأدب البحث وغيرها . وإبراهيم بن محمد بن مفلح فقيه (٨٠٣) وعبد الله بن مفلح رئيس الحنابلة (٨٣٤) وتقي الدين الحصني عالم له مصنفات في الفقه وغيره (٨٢٩) وأبو بكر محمد بن مزهر الدمشقي الفقيه انتهت إليه رياسة عصره (٨٣٢) وعلاء الدين البهائي الغزولي عالم دمشق (٨٨٥) له كتاب مطالع البدور في منازل

السرور مطبوع ، وإبراهيم البقاعي ترك مائة مؤلف كان إماماً بالعربية والأدب والدين والتاريخ له نظم الدرر في تناسب الآي والسور في التفسير وعدة تواريخ للرجال ، وعبد الله التنوخي الأمير اللبناني المعروف بالسيد فقيه أديب مشارك في الطب والفلك طبعت بعض رسائله في الوعظ (٨٨٤) ، ومحمد بن أحمد الباعوني (٨٧١) له مؤلفات منها منظومات في التاريخ .

ونشأ في هذا القرن أحمد الطولوني كبير المهندسين وكان أبوه وجده مهندسين . وخليل بن جمال الدين الأديب المؤرخ الدمشقي صنف تاريخاً للحوادث وغيره (٨١٥) ومحمود العيني (٨٥٥) الفقيه المؤرخ له عدة مصنفات في التاريخ وغيره . وعبد الرحمن ابن العيني عالم دمشق في هذا القرن . وأحمد المقدسي المشهور بابن زوجة أبي عذيبة (٨٥٦) صاحب تاريخ دول الأعيان. وأحمد بن حجر العسقلاني الفقيه المحدث المؤرخ (٨٥٢) صاحب تاريخ الدرر الكامنة (المطبوع) وإنباء الغمر . وأحمد بن خليل المعروف بابن اللبودي له أدب وشعر وبعض تآليف (٨٩٦) وأحمد بن المحوجب عالم بالدينيات واللسانيات . وأحمد بن عبد الله العامري فقيه أصولي له تآليف . وأحمد بن محمد الكشك عالم فقيه (٨٣٧) وزين الدين بن رجب الحنبلي له عدة مصنفات ومنها طبقات الحنابلة المطبوع . وأبو العباس المالكي الفقيه العالم المفنن له عدة مصنفات . وعبد الرحيم بن عبد الرحمن الحموي فقيه أديب له مصنفات . ومحمد بن خليل القباقيبي الحلبي (٨٤٩) إمام في القراآت صنف فيها . وعبد الله ابن قاضي عجلون فقيه عالم بالمعقولات (٨٦٥) وقاضي القضاة العوني الناصري خطيب الخطباء (٨١٥) . وصدقة الجيدوري المقرئ (٨٢٥) ونور الدين أبو الثناء خطيب الدهشة استوطن حماة له تآليف كثيرة . ومحمد الجزري الدمشقي المقرئ صاحب المصنفات الجليلة منها كتاب الطبقات، والنشر في القراآت العشر طبعا (٨٣٣) وعائشة بنت عبد الهادي محدثة دمشق (٨١٥) وأبو البقاء البدري له تآليف (٨٨٧) وعلاء الدين ابن خطيب الناصرية الحلبي المؤرخ (٨٤٣) وأبو بكر بن علي بن حجة الحموي الأديب الشاعر صاحب الخزانة وثمرات الأوراق وغيرهما وهما مطبوعان وكان رئيس أدباء عصره (٨٣٧) . وزين الدين ابن الشحنة الحلبي الفقيه المؤرخ (٨١٥) كتب

في عدة فنون وله أراجيز في اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض . ومحمود ابن الشحنة الفقيه الشاعر الأديب (٨٩٠) له عدة تآليف منها الدر المنتخب في تاريخ حلب طبع مختصره . وأحمد السرميني الحلبي الفلكي (٨٢٤) كان إماماً في الهيئة وحل الزيج وعمل التقاويم . وعبد الملك الباني الحلبي (٨٣٩) علّم بالقراآت له نزهة الناظرين في الأخلاق . وعز الدين ابن عبد السلام السعدي المقدسي العالم الرحلة صاحب التآليف (٨٥٠) . والبدر البشتكي محمد بن إبراهيم الدمشقي (٨٣٠). وعلي بن خليل الطرابلسي (٨٤٤) له كتاب في الفقه اسمه معين الحكام. وابن حبيب الحلبي (٨٠٨) له عدة مصنفات. وعبد الله بن جماعة المقدسي صاحب التآليف (٨٦٥) . والبرهان الحلبي المحدث (٨٤١) وعبد الله توقشندي المقدسي عالم زمانه في الأرض المقدسة (٨٦٧) .

ومن علماء السريان نوح البقوفاوي بطريرك اليعاقبة في حلب . وقد امتاز هذا القرن بكثرة المدارس في لبنان قال الدويهي في حوادث سنة ٨٧٥هـ : وقد أحصينا أسماء من كان من النساخ في ذلك العهد ممن وقفنا على كتبهم فإذا هم ينيفون على مئة وعشرة وفي ذلك الوقت أهملوا الخط الاسترنكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور .

انحطاط العلم والأدب في القرن العاشر :

زاد انحطاط العلم في القرن العاشر ، فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف في هذه الديار مثل القرنين السالفين . وكانت الآداب تسير إذ ذاك بقوة التسلسل منبعثة من قوتها القديمة ، وإذ اختلف لسان الحاكم والمحكوم عليه ، وخصت الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك ، مالت النفوس عن العلم ، اللهم إلا من كانت لهم فطر سليمة عشقوه لفائدته وقليل ما هم . ذكر المقدسي أن أهل الدولة العثمانية كانوا لا يولّون المدارس في الشام أحداً من أبناء العرب ، زاعمين أن العلماء في العرب كثير وأنهم إن ولوا عربياً من غير طريقهم ، كثر الطالبون من أبناء العرب وعجزوا عن إرضائهم ، وضاق الأمر على ملازمي الروم . وحصر الترك عنايتهم بالاستانة كما حصروها من قبل ببورصة ، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم ، بل جامعة ذلك

العصر ، كما قال جودت . وكان العلماء بعد الفتح العثماني يأتون إلى القسطنطينية زرافات ، ولذلك لم يكن حظ للولايات دع البعيدة من عناية الدولة العثمانية بها وترقيتها في العلم والآداب .

وتسلسل العلم الديني في بعض البيوت بدمشق في هذا القرن والذي بعده على صورة غريبة مثل بني الغزي وحمزة وفرفور والعمادي والنابلسي ومفلح وممن نبغ بدمشق محمد بن محمد الغزي العالم بعلوم اللسان وغيرها وله عدة مصنفات (٩٣٥) . ومحمد بن بدر الدين الغزي الفقيه المفسر النحوي المحدث المقرئ الأصولي النظار المؤرخ وله مئة وبضعة مصنفات (٩٨٤) . وعبد الرحمن بن فرفور عالم بالتاريخ والأدب (٩٩٢) . وامتاز في الدينيات محمد بن حمزة (٩٣٣) وعلي بن إسماعيل بن عماد الدين (٩٧١) وإسماعيل النابلسي (٩٩٣). وإبراهيم بن عمر بن مفلح(٩١٧). وكان فيه محمد بن علي بن طولون النحوي الفقيه المحدث المؤرخ صاحب مصنفات كثيرة في التاريخ على اختلاف ضروبه ومنها المطبوع (٩٥٣) . وعبد القادر النعيمي المؤرخ المحدث ألف كتباً كثيرة منها الدارس (٩٢٧) . وعبد الباسط العلموي اختصر بعض كتب النعيمي وزاد عليها ومنها مختصر الدارس (٩٨١) . وابن سكيكر الدمشقي المؤرخ له زبدة الآثار فيما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار(٩٨٧).وبهاءالدين محمد بن يوسف الباعوني ومؤلفاته مثل مؤلفات عمه أراجيز تاريخية(٩١٠) . ومن علماء القرن في دمشق محمد بن محمد بن سلطان العالم الفقيه صاحب التآليف (٩٥٠) . ومحمد بن مكي عالم بالطب والهيئة والهندسة والفلك (٩٣٨) وعرف بالمهارة في الفقه وغيره.وأبو بكر البلاطنسي (٩٣٦) . وأبو بكر محمد القاري (٩٣٥) وأبو الفتح البستري (٩٦٢) . وأحمد بن محمد الشويكي له تآليف (٩٦٦) وإسماعيل الكردي الباني عالم بالمعقولات (٩٥٦) . وعثمان الآمدي وهو خطيب متفنن (٩٨٥) . ومحمد بن محمد بن عماد الدين عالم في الدينيات (٩٨٦) . وأحمد بن أحمد الطيبي الفقيه النحوي له عدة مصنفات (٩٧٩) وأسد الشيرازي عالم في البلاغة والعربية والمنطق والأصلين والفقه(٩٩٨) . ومحمد بن هشام نحوي (٩٠٧) ، ومحمد بن منيعة (٩٠٤) . ومحمد الكنجي له يد في النحو والحساب والميقات والقرآن (٩٣٢) . ومحمد الكفرسوسي

(٩٣٢) . ومحمد الميداني عالم بالقراآت والعربية له عدة مصنفات (٩٢٣) . وإبراهيم بن الهلالي فقيه محدث (٩١٦) . وأبو بكر ابن قاضي عجلون إمام مفنن (٩٢٨) .

وجاء في القدس عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العليمي صاحب تاريخ القدس والخليل المطبوع . وبرهان الدين المقدسي الفقيه الأديب له عدة مصنفات (٩٢٢) . وفي غزة أبو عبد الله محمد بن قاسم الغزي (٩١٨) له كتب في الفقه والأصول وغيرها . وإبراهيم بن يوسف الحنبلي المعروف بابن الحنبلي له عدة كتب (٩٥٩) . وفي دمشق يوسف بن عبد الهادي (٩٠٩) الفقيه المؤرخ صاحب الرسائل والكتب الكثيرة في الفنون المختلفة وهو أشبه بالسيوطي في مصر بكثرة تآليفه وتنوع موضوعاته طبع له كتاب مساجد دمشق . وفي حلب محمد ابن الحنبلي المؤرخ العالم له عدة تآليف منها تأليف في تاريخ حلب (٩٧١) . وعبد البر ابن الشحنة الحلبي الأصولي الفقيه (٩٢١) . وعمر الشماع الحلبي المؤرخ المحدث له عدة مصنفات (٩٣٦) . وفي الرملة شمس الدين الرملي العالم الفقيه (٩٢٣) . ونشأ في حلب خليل بن أحمد الشيخ غرس الدين (٩٧١) عالم بالحساب والميقات والهيئة والوفق والموسيقى والطب وهو صاحب شجرة الإفادة بشرقية جامع حلب الأعظم . وفي حماة محمود بن أبي بكر المعري الحموي الحلبي الفقيه . وفي دمشق هاشم بن السيد الطبيب ناصر الدين السروجي (٩٦٤) . وفي حماة محب الدين بن داود الحموي له تآليف . وفي دمشق موسى بن يوسف بن أيوب القاضي شرف الدين الدمشقي الشافعي ألف تاريخاً في مجلد وتذكرة في مجلدين (١٠٠٠) .

ومع انحطاط محسوس في حركة العقول في هذا العصر كان في الشام بعض النساء العالمات مثل فاطمة بنت قريمزان شيخة المدرستين العادلية والزجاجية معاً انتهت إليها رياسة أهل زمانها بحلب أخذت العلم عن زوجها (٩٦٦) . وبوران بنت الشحنة الشاعرة الحلبية (٩٣٨) . وعائشة الباعونية الدمشقية المحدثة المتصوفة الشاعرة المجيدة لها عدة تآليف ومنها البديعية وشعرها لطيف (٩٢٢).

الآداب في القرن الحادي عشر :

أما القرن الحادي عشر فشبيه بتاليه وسالفه من حيث قلة الإبداع والتجدد والاكتفاء بالموجود ، لكن عدد العالمين والمتأدبين كان أكثر على ما يظهر أو أنه دوّن كله ولم يفقد ، فقد نشأ في دمشق أحمد بن محمد الغزي فقيه له بعض التآليف (١٠١٧) ومحمد أكمل الدين بن مفلح المحدث الرحلة المؤرخ كتب تاريخاً ترجم فيه معاصريه وله تعليقات تاريخية مهمة (١٠١١) . والنجم محمد الغزي محدث الشام صاحب التآليف منها في التاريخ وتراجم الرجال (١٠٦١). وأحمد بن سنان القرماني الأديب المؤرخ صاحب التصانيف وله تاريخ آثار الدول المطبوع (١٠١٩) . وعبد الوهاب الفرفوري الفقيه (١٠٧٣). وأحمد بن أبي الوفاء بن مفلح الحنبلي الفقيه المحدث عارف بالفرائض والحساب والتاريخ (١٠٣٨) . ومن الفقهاء محمد الداودي (١٠٠٦) . ومن علماء العربية محمد الخوخي (١٠٢٢) . وفي الفقه محمد الحصكفي صاحب التصانيف في الفقه وغيره (١٠٨٨) . ومحمود الباقاني له عدة تصانيف (١٠٠٣) . وأبو بكر ابن عبد عُرف أبوه بمنلا جامي (١٠٧٧) . وأحمد بن محمد الزرياني فقيه المالكية (١٠٥٠) . وكمال الدين بن مرعي العيتاوي الفقيه (١٠٨٦) . ورمضان العطيفي الفقيه النحوي الراوية(١٠٩٥).وعبد الباقي بن فقيه فصة محدث مقرئ أثري (١٠٩١) . ويحيى الشاوي له تآليف . وشمس الدين بن بلبان عالم بالسنة (١٠٨٣).والشاكر الحموي كان متصوفاً ناظماً وناثراً وله ديوان في ثلاث مجلدات.

ومن أدباء هذا القرن وشعرائه أبو بكر بن منصور العمري (١٠٤٨) وإبراهيم الصالحي الشاعر المعروف بالأكرمي (١٠١٢) . وعمر بن محمد المعروف بابن الصغير شيخ الأدب بالشام بعد شيخه أبي بكر بن منصور العمري شاعر مجيد عارف بالطب (١٠٦٥) . وإبراهيم الفتال الشاعر (١٠٩٨) وأبو بكر ابن أحمد المعروف بابن الجوهري . ومحمد الكريمي (١٠٦٨) . وعبد الكريم الطاراني الشاعر الكاتب المؤرخ (١٠٤١) . وعبد اللطيف البهائي شاعر متفنن (١٠٨٢) . وعبد اللطيف بن المنقار شاعر (١٠٥٧) . والحسن البوريني الشاعر اللغوي له تآليف منها تراجم رجال عصره وشرح ديوان ابن الفارض المطبوع

(١٠٢٤) . وأحمد العناياتي الشاعر (١٠١٤) . وأحمد بن الشاهيني الأديب اللغوي (١٠٥٣) . وأحمد الصفوري الشاعر الأديب المؤرخ (١٠٤٣) . وأحمد ابن محمد بن المنقار أديب شاعر (١٠٣٢) وإسماعيل النابلسي الفقيه له بعض التآليف (١٠٦٢) . ودرويش محمد بن أحمد الطالوي الدمشقي الأديب(١٠١٤) ومنجك بن محمد بن منجك صاحب الديوان المطبوع (١٠٨٠) . وشهاب الدين العمادي شاعر منشئ (١٠٩٨) . وعبد الحي العكري المعروف بابن العماد مصنف أديب مفنن أخباري أثري له شذرات الذهب في التاريخ مطبوع (١٠٨٧) . وعبد الرحمن بن النقيب منشئ شاعر (١٠٨١) . وإبراهيم العمادي أحد بلغاء الشام المذكورين (١٠٩٨) . وأحمد بن المنلا النخجواني الملقب بالمنطقي شاعر ناثر فقيه ينظم وينثر في الألسن الثلاثة العربية والفارسية والتركية .

وظهر في دمشق في العلوم والفنون بضعة أفراد منهم علاء الدين بن ناصر الدين علي الطرابلسي اشتهر بالرياضيات والقراآت والفرائض والفقه وله تآليف (١٠٣٢) . وعمر بن محمد القاري عالم مفنن له باع في الهيئة (١٠٤٦). وعمر بن يحيى المعروف بالدويك كان عارفاً بفنون عديدة منها الرياضيات والفلك والميقات وله شعر (١٠٨٣) ومحمد بن يونس الطبيب الخطيب (١٠٠٨) والمنلا محمود الكردي عالم في كثير من الفنون (١٠٤٧). وابن الحكيم المصاحب أبو بكر بن محمود رئيس أطباء دمشق وخطيب أمويها عالم في العلوم الغريبة مثل علم الوفق وعلم الحرف وله يد طولى في العقليات (١٠٠٧) . وعبد القادر ابن عبد الهادي رياضي فقيه أصولي(١١٠٠) . وعبد الحي بن محمد بن عماد عالم بالرياضيات (١٠٨٩). وإبراهيم بن الأحدب الزبداني محدث فرضي رحالة أخذ الفرائض والحساب عن العلامة محمد النجدي ويلحق بابن الهائم في هذين العلمين (١٠١٠). ونشأ في هذه المدينة أيوب الخلوتي من المتصوفة له في التصوف رسائل (١٠٧١) . ومن الخطباء الشهاب أحمد بن يحيى البهنسي الخطيب ابن الخطيب ابن الخطيب وأحمد بن محمد البصراوي ويعرف بابن الإمام (١٠٠٣) .

وجاء في المدن الأخرى أبو الجود عبد الرحمن الحلبي البتروني كان محققاً في المذهب والتفسير والبحث نظاراً (١٠٣٩) . وأبو الوفاء محمد بن عمر العرضي الحلبي متفرد بالإتقان والحفظ والضبط له تاريخ معادن الذهب وله رسائل

وتآليف (١٠٧١) . ومحمود البيلوني الحلبي كان إذا تكلم في فن من العلم يقول سامعه لا يحسن غيره (١٠٠٧) . وفتح الله البيلوني الحلبي له عدة مصنفات وحواش ومجاميع وشعر (١٠٤٢). ونور الدين بن برهان الحلبي صاحب السيرة الحلبية المطبوعة وغيرها من الحواشي والشروح والرسائل (١٠٤٤) ، وعلي البصير له كثير من التآليف في الفقه وغيره (١٠٩٠). ومحمد بن حسن الكواكبي رئيس حلب في الفنون والعلوم ألف مؤلفات كثيرة في الفقه والتفسير وهو شاعر مجيد (١٠٩٦) . وعبد الوهاب بن رجب إمام في العربية (١٠١٥) . وعلي البصير الحموي له تآليف في الفقه وغيره . ومحمد بن أبي بكر الحموي له تآليف عديدة في الفقه والتفسير والعربية ورسائل ورحلات وكان عالماً بالفرائض والحساب والمنطق والحكمة والزايرجا والرمل وهو جد الشيخ محمد المحبي مؤلف خلاصة الأثر (١٠١٦) .

ومن علماء السريان أندراوس اخبيجان الحلبي أول بطاركة الكاثوليك . وأبو السعود الكوراني الحلبي الشاعر الأديب (١٠٥٦) . وأحمد بن خليل الأطاسي الحمصي الفقيه مفتي حمص وعالمها (١٠٠٤) . وأحمد بن النقيب الحلبي الأديب المتفنن (١٠٥٦) . وباكير بن أحمد المعروف بابن النقيب الحلبي لم يكن في حلب من أدباء عصره أكثر رواية منه للنظم والنثر (١٠٩٤) . وبشير بن محمد الخليلي القدسي الأديب الشاعر لم يكن في زمنه من أقرانه من يدانيه فيه إلاّ شرف الدين العسيلي (١٠٦٠) . وتقي الدين التميمي الغزي صاحب الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١٠١٠) . وحسن بن محمد أبو الفوارس الحموي المعروف بابن الأعوج أمير حماة شاعر اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء عصره. وحسين الجزري الحلبي الشاعر (١٠٣٣). وحسين بن عبد الله المعروف بالمملوك متصوف (١٠٣٤) . وخير الدين الرملي المفسر المحدث الفقيه اللغوي صاحب التآليف والفتاوي ومنها المطبوع (١٠٨١) ورجب بن علوان الحموي أمهر ما كان في العلوم الرياضية كالهيئة والحساب والفلك والموسيقى وغيرها (١٠٨٧) . وسرور بن سنين الحلبي شاعر (١٠٢٠) وصالح بن سلوم الحلبي رئيس الأطباء (١٠٨١) . وصلاح الدين الكوراني الحلبي شاعر (١٠٤٩) . وعبد الحق الحمصي الملقب زين الدين الحجازي

عالم بالمعقولات . وعبد الله بن حجازي الحلبي الشهير بابن قضيب البان مطبوع بشعره وإنشائه في الألسن الثلاثة وله تآليف (١٠٩٦) . وفتح الله النحاس الحلبي الشاعر (١٠٥٢). ومحمد القاسمي الحلبي شاعر ناثر (١٠٥٤). ومحمد الكواكبي الحلبي عالم في المنقول والمعقول (١٠٩٦) . ومحمد بن عبد القادر الشهير بالحادي الصيداوي أديب فقيه (١٠٤٢) . ومحمد التمرتاشي الغزي رأس الفقهاء الحنفية له التآليف الكثيرة (١٠٠٤) . ومحمد بن علي المعروف بالحريري وبالحرفوشي العاملي الدمشقي اللغوي النحوي الأديب الشاعر صاحب التصانيف الكثيرة (١٠٥٩) . ومحمد البيلوني الحلبي راوية الشعر والوقائع خبير بصنعة النقد أديب (١٠٨٥) ، ومحمد بن محمد الحلفاوي الحلبي أديب (١٠٥٤) ومحمد العسيلي القدسي له تصانيف دينية . وموسى الرام حمداني الحلبي البصير متفنن في الرياضيات والعلوم الحكمية وعلم الحرف والأخبار والأدب (١٠٨٩) . وبهاء الدين العاملي الفقيه الأديب صاحب المخلاة والكشكول وغيرهما من كتب الأدب المطبوعة . ومحمد الفصي البعلبكي الفقيه وآباؤه كلهم رؤساء العلم في تلك الناحية وله تآليف (١٠٢٤) . وأبو الوفاء بن معروف الحموي له تآليف (١٠١٦) . وحسين الأشقر كان جامعاً لأنواع الفنون (١٠٤٢) . وعبد القادر بن قضيب البان كان له ما ينيف على أربعين تأليفاً (١٠٤٠) . وعبد النافع بن عمر الحموي كان متضلعاً من العلوم شاعراً (١٠١٦) . وداود الأنطاكي ويعرف بالشيخ الصوري (١٠٠٥) ألف كتاباً في السب سماه تذكرة أولي الألباب مطبوع . وتقي الدين الغزي التميمي (١٠٠٥) له الطبقات الحنفية.

العلوم والآداب في القرن الثاني عشر :

دخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد ، إلا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديماً لا إبداع فيها ولا اختراع ، فالمسائل الدينية المقررة تنتقل خلفاً عن سلف ، والآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و « صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير » . كما قال أحد العارفين بذاك القرن . وجاء في العاصمة زمرة من العلماء منهم إبراهيم بن حمزة محدث لغوي (١١٢٠) . وأبو

الإسعاد بن أيوب عارف بعلوم جمة مبرز في علوم الأبدان (١١٠٦) . وأبو الصفا المفتي فقيه مفسر نحوي . وأحمد بن حسين باشا الكيواني أديب كاتب صاحب الديوان المطبوع (١١٧٣) . قال المرادي : وهو في هذا القرن أي الثاني عشر كالأمير منجك المنجكي في القرن الماضي بل أرجح ، وإن لم يكن أرجح منه فهو مقارن له . وأحمد بن عبد الكريم الغزي فقيه نحوي له تآليف (١١٤٣) . وأحمد بن علي المنيني المحدث اللغوي النحوي الأديب له تآليف منها شرح تاريخ اليميني المطبوع (١١٧٢). وأحمد شاكر الحكواتي شاعر رحلة (١١٩٣) . وأحمد الفلاقنسي أديب منشئ (١١٧٣) . وأحمد المهمنداري فقيه مفنن له شعر وأدب (١١٠٥) وأحمد البهنسي فقيه أديب (١١٤٨) . وأحمد البقاعي أديب مفنن شاعر (١١٧١). وأسعد الطويل أديب (١١٥٠) . وإسماعيل الحائك فقيه عالم (١١١٣) . وإسماعيل العجلوني رحلة له يد في العلوم لا سيما الحديث والعربية وله تصانيف (١١٦٢) . وحامد العمادي فقيه فرضي شاعر أديب له تآليف . وخليل الحمصاني له يد في التفسير خاصة (١١٢٣) . وزين الدين البصروي عالم أديب (١١٠٢) . وسعيد الجعفري عالم أديب له شعر (١١٨٣) . وسعيد السمان لغوي شاعر ناثر له تآليف (١١٧٢). وسعدي العمري شاعر ناثر (١١٤٧) . وسعدي بن حمزة محدث فرضي حيسوب مهندس مساح (١١٣٢) . وسليمان الحموي المعروف بالسواري كاتب شاعر (١١١٧) . وصالح الجينيني محدث فقيه (١١٧٠) . وعبد الجليل المواهبي عالم في المعقولات (١١١٩) . وعبد الرحمن الصناديقي فقيه أصولي نحوي (١١٦٤). وعبد الرحمن الغزي فقيه فرضي نحوي شاعر (١١١٨) . وعبد الرحمن الكيلاني عالم مدقق شاعر ناثر (١١٧٢) . وعبد الرحمن البهلول شاعر لغوي أديب (١١٦٣) . وعلي الطاغستاني عالم محقق مفنن (١١٢٩). ومحمد الدكدكجي صوفي مقرئ متفنن (١١٣١) . ومحمد الكفيري فقيه أديب (١١٥٠) . ومحمد الغزي فقيه أديب مؤرخ نسابة (١١٦٧) . ومحمد أمين المحبي عالم أديب مؤرخ له تآليف منها خلاصة الأثر المطبوع (١١١١) . ومحمود الجزيري عالم في الزايرجا والحرف والأوفاق والرياضيات (١١٤١) . ومحمود العبدلاني عالم محقق (١١٧٣) . ومراد المرادي عالم في المعقول والمنقول له تآليف (١١٣٢).

ومكي الجوخي عالم أديب متضلع له شعر وكتابة (١١٩٢) . ومصطفى اللقيمي عالم فرضي حيسوب ناظم ناثر (١١٨٧) . ومصطفى البكري عالم بلغت مؤلفاته ٢٢٣ مؤلفاً بين مجلد وكراسين وأقل وأكثر وله نظم كثير وقصائد خارجة عن الدواوين تقارب اثني عشر ألف بيت (١١٦٢) . ومصطفى العلواني الحموي أديب ناثر ناظم (١١٩٣) . ومصطفى السفرجلاني متفنن في العلوم الحكمية له رسائل في المنطق والفلسفة والحكمة والكلام وشعر ونثر (١١٩١) . وموسى المحاسني عالم محقق (١١٧٣) . وعبد الرحيم المخللاتي عالم في الفرائض والحساب والفلك (١١٤٠) . وعبد الرحمن الكابلي عالم محقق (١١٣٥) . وعبد الرحيم الطواقي فقيه نحوي فرضي له بعض تآليف ورسائل (١١٢٣) . وعبد الرزاق الرومي فقيه له تآليف . وعبد السلام بن محمد المعروف بالكاملي أو الكامدي فقيه أصولي نحوي أديب(١١٤٧).وعبد الغني النابلسي إمام في التصوف والفقه والتفسير وعلوم الأدب وله تآليف كثيرة ونظم ونثر المطبوع منها شرح الطريقة المحمدية والبديعية وكتاب في الزراعة وديوان والرحلة القدسية والرحلة الحجازية وغيرها (١١٢٦) . وعبد الفتاح بن مغيزل أديب طبيب (١١٩٥) عبد القادر التغلبي فقيه فرضي (١١٣٥) عبد القادر الكردي عالم محقق له ثلاثون تأليفاً (١١٧٨) . وعبد الله البصروي عالم محقق في العلوم والفنون مؤرخ (١١٧٠) عبد الله الطرابلسي أديب شاعر له تآليف ورسائل (١١٥٤) عبد الله المكتبي محقق في الحساب والفلك والهيئة والتقويمات (١١٦٢) . عثمان الشمعة عالم بالدينيات وعلوم الأدب (١١٢٦) . عثمان القطان عالم بالعقليات والنقليات (١١١٥) . عمر البغدادي عالم متصوف له رسائل (١١٩٤) . عمر الرجيحي كاتب أديب (١١٣٠) . علي العمادي عالم أديب (١١١٧) . علي التدمري فقيه نحوي فرضي عالم بالحرف والزايرجة والوفق (١١٣١) . علي كزبر عالم رحلة مقرئ (١١٦٥) . محمد بن عيسى بن كنان مؤرخ أديب (١١٥٣) . يوسف ابن محمد الطرابلسي رئيس الأطباء .

هذا غاية ما يقال في رجال دمشق أما في المدن الأخرى فقد نشأ في حلب طه الجبريني المفسر المحدث، العالم بالمعقولات (١١٧٨) . أحمد الكواكبي الفقيه المفسر الشاعر الأديب (١١٢٤) . أبو السعود الكواكبي العالم المحقق

الشاعر (١١٣٧) . وبنو الكواكبي وبنو الشحنة في حلب من البيوت التي تسلسل فيها العلم عدة قرون . المطران جرمانوس فرحات (١١٤٥) كان يحسن عدة لغات وله تآليف بالسريانية والعربية (طبع منها كتابه في النحو) وهو تلميذ عالم عصره سليمان الحلبي . عبد الله زاخر (١١٦٢) مترجم الإنجيل وطابعه . عبد اللطيف الأطاسي الحمصي الأديب عالم بالكيمياء والأوفاق وغيرها وله شعر كان حياً سنة ١١٤٠ . البطريرك ميخائيل جروة الحلبي . الايكونيموس بطرس التولوي . القس يوحنا زندو الحلبي . وعطاء الله زندو عبد المسيح لبيان الشاعر . والشاعران ميخائيل جبارة وأنطون ذكري . ويوسف الشراباتي . ويواكيم البعلبكي الواعظ له تآليف (١٧٨٢م) .

وأحمد العكي العالم الفقيه له تآليف كثيرة وشعر وأدب (١١٤٧) عبدالله الاطرابلسي المعروف بالأفيوني الفقيه له عدة تآليف وشروح (١١٥٤) . عبد المعطي الخليلي له فتاوى ورسائل كلها منتخبة (١١٥٤) . إبراهيم الحاقلي له عدة تآليف ترجم عدة كتب من العربية إلى اللاتينية منها كتاب ابولونيوس في الهندسة ومختصر في الفلسفة الشرقية وعدد تآليفه ٦٤ (١٦٦٤م) . البطريرك اسطفان الدويهي العالم المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع (١٧٠٤م) ، علي البرادعي البعلي الواعظ كان جده الأعلى جلال الدين من العلماء الأجلاء . ومحمد التاجي الحنفي صاحب الفتاوى التاجية الفقيه (١١١٤) . السمعاني اللبناني كتب بالعربية واللاتينية منها المكتبة الشرقية (١٧٦٨م) وله شهرة في ايطاليا وإسبانيا وتآليفه كثيرة قال الدبس بعد أن عدد تآليفه : وأعجب بهذا الرجل الذي يعجز رجل وإن كان مغرماً بالمطالعة عن أن يقرأ في حياته ما ألفه هو في أوقات فراغه . والقس يوسف الباني الحلبي ترجم عدة كتب إلى العربية في الدين المسيحي . والبطريرك مكاريوس الحلبي نبغ في أواسط القرن السابع عشر للميلاد وهو صاحب الرحلة إلى القسطنطينية وبلغاريا وروسيا .

العلم والأدب في القرن الثالث عشر :

كان القرن الثالث عشر تتمة القرن الثاني عشر ، ولكن فيه بطء وضعف ، نشأ فيه من دمشق محمد بن حسين الحلبي العطار العالم بالرياضيات والفنون

(١٢٤٣) اتهم بالتساهل في دينه فالتزم بيته فألف عدة رسائل بالفنون الحربية والفلك والحساب طبع بعضها . وأحمد الكزبري العالم بالكتاب والسنة(١٢٤٨). أحمد المنيني الفقيه المحدث (١٢٥٦) . أحمد بن إسماعيل بيبرس فقيه (١٢٤٧) أسعد المنير فقيه (١٢٤٢) . حامد العطار المحدث المفسر (١٢٦٣) . كمال الدين الصمادي الجرائحي الدمشقي له تآليف في التاريخ (١٢٠٩) . حسن جينة فقيه أديب له رسائل في الأخلاق (١٢٠٦) . خليل الحشة فقيه (١٢٤٢) . رضاء الدين الحلبي فقيه (١٢٨٦) . شاكر العقاد الشهير بمقدم سعد الفقيه الحكيم الأديب (١٢٢٢) . صالح الدسوقي له بعض رسائل في الفقه والأدب (١٢٤٦) . عبد الرحمن الكزبري الفقيه المحدث (١٢٦٢) . مكسيموس مظلوم له خمسون تأليفاً ومعرباً (١٨٥٥م). يوسف مهنا الحداد عالم بالدينيات والتاريخ والرياضيات يعرف اليونانية والعبرانية (١٨٦٠م) . حسين الغزي الحلبي أديب (١٢٧١) . جبرائيل بن يوسف المخلع أديب يحسن الفارسية ترجم الكلستان للشيخ سعدي مطبوع (١٨٥١م) . عبد القادر العمادي فقيه (١٢٢٨) . عبد الغني السقطي عالم مفنن (١٢٣٦) . عمر الغزي فقيه (١٢٧٧) . قاسم الحلاق فقيه مفسر محدث شاعر ناثر (١٢٨٤) . كمال الدين الغزي عالم مؤرخ شاعر صاحب التذكرة (١٢١٤) . محمد المخللاتي فرضي موقت فلكي (١٢٠٧) . نجيب القلعي فقيه (١٢٤١) . محمد عابدين صاحب التآليف والرسائل المتقنة منها حاشيته المشهورة ورسائله وفتاويه وكلها مطبوع . عبد الغني الميداني عالم بالأصول والفقه وفنون العربية (١٢٩٩) عبد السلام الشطي شاعر فقيه (١٢٩٥) . مصطفى المغربي التهامي عالم أديب شاعر (نحو سنة ١٢٨٠) . عبد القادر الحسني الجزائري عالم بالتصوف والأخلاق وله شعر ونثر وتآليف ومنها المواقف ورسائل منها مطبوع (١٣٠٠) .

ونشأ في حلب محمد نور الترمانيني (١٢٥٠) له عدة شروح على بعض كتب الآلات والأدب وله شعر وأخوه أحمد الترمانيني (١٢٩٣) خلّف عدة تآليف وحواش وشروح ومنها كتاب الجامع في الكيمياء . رزق الله حسون (١٨٨٠م) كاتب شاعر ضليع بالعربية وفنونها وله رسائل جيدة وهو أول من أنشأ صحيفة عربية بالاستانة . وفرنسيس مرّاش الأديب له عدة تآليف

وديوان شعر (١٨٧٣م) . عمر الأنسي البيروتي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٢٩٣) . أمين الجندي الشاعر الرقيق له ديوان مطبوع (١٢٥٧) . بطرس كرامة الشاعر له ديوان مطبوع (١٨٥١م) . ناصيف اليازجي الشاعر اللغوي الأديب صاحب المقامات والديوان وغيرهما من كتب النحو والبيان وكلها مطبوعة اشتهر في هذا العصر كثيراً (١٨٧١م) . نقولا الترك شاعر أديب له ديوان شعر وتاريخ حملة الفرنسيس على مصر والشام مطبوع وغيره . حسين بيهم البيروتي أديب له ديوان شعر (١٢٩٢) . محمد النصري كان في حدود المائتين وألف له مؤلفات كثيرة أشهرها شرح قصيدة كعب. نصر الله الطرابلسي شاعر (١٨٤٠م) . أحمد البربير البيروتي شاعر عالم كبير له عدة مؤلفات طبع بعضها (١٢٢٦) . حيدر أحمد الشهابي اللبناني (١٨٣٤م) مؤرخ أديب له التاريخ المنسوب إليه المطبوع . محمد أرسلان اللبناني له مؤلفات في الفلك والتاريخ (١٨٦٤م) . ناصيف المعلوف الأديب الكاتب ألف ٣٦ مؤلفاً طبع أكثرها . نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي له كتب في التاريخ والأدب . عمر اليافي متصوف له ديوان شعر (١٢٣٤). محمد الدباغ له عدة مصنفات (١٢٨٨) .

العلوم المادية في منتصف القرن الثالث عشر :

وفي النصف الثاني من هذا القرن بدأت تباشير العلوم الرياضية والطبيعية ، وكانت انحطت انحطاطاً أشبه بالاندراس ، تقبل على الشام من طريق الديار المصرية ، بواسطة النهضة التي انبعثت بعناية محمد علي عزيز مصر فإنه أنشأ مدارس للهندسة والطب والترجمة والفنون الجميلة والحربية والبحرية وغيرها ، فتخرج فيها كثير من المصريين وبعض أفراد من الشاميين . وأخذت تسري من أنوارها أشعة نافعة إلى الشام .

ثم إن الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية في الاستانة ولا سيما المدرسة الحربية والطب ، وبعد حين أحدثت مدارس الملكية والحقوق والزراعة والهندسة فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها ولكن بالتركية ، فكان ذلك إلى آخر عهد العثمانيين في ديارنا من العوائق الكبيرة في سبيل نشر العلم ، لأن الدولة كانت تحرص على نشر لغتها ، وأبناء العرب أو من يريد أن يسلك مسالك الجيش والطب والإدارة والهندسة والزراعة أرغمتهم الحالة على التخلي عن

لغتهم ، فجاء أكثرهم ضعافاً حتى في العلم الذي أخصوا فيه ، وكانوا أضعف من ذلك في لغتهم ، فلم ينبغ منهم رجال اشتهروا وأفادوا كما نبغ من مدارس الوطنيين النصارى مثل مدرسة عين ورقة الأكايركية التي أنشئت سنة (١٧٨٩ م) ونبغ فيها كثير من البطاركة والمطارنة والكهنة من الموارنة في القرن التاسع عشر . قال الدبس : ومن هذه المدرسة خاصة انبعثت علوم اللغتين العربية والسريانية بين نصارى الشام وغيرها من العلوم والفنون ، ومثل مدرسة كفتين للروم الأرثوذكس ، والمدرسة الوطنية في بيروت ، والجامعة الأميركانية في بيروت التي علّمت زمناً طويلاً العلوم بالعربية ومنها الطب، فجاء من تلامذتها أفراد خدموا الآذاب العربية .

ونشأ في لبنان بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف ومحيط المحيط وقطر المحيط وكان يعرف العربية والسريانية والإيطالية واللاتينية والعبرانية واليونانية، ووجد من خديوي مصر إسماعيل وغيره من ملوك المسلمين وأمرائهم تنشيطاً على إتمام عمله ، كما نشأ في تلك الحقبة أحمد فارس الشدياق اللغوي المحقق صاحب جريدة الجوائب وكتاب الساق على الساق وكشف المخبا والجاسوس على القاموس وسر الليال وغيرها وكلها مطبوع ، ووجد هذا من عزيز مصر وباي تونس وملك باهوبال تنشيطاً كثيراً . وهنا يقضي الواجب أن نشير بالتكريم للأسرة العلوية المصرية أسرة محمد علي الكبير فإن رجالها في كل دور قد تقيّلوا آثار جدهم الأعظم في الأخذ بأيدي المعارف وبر المؤلفين والصحافيين والشعراء فعدوا من دعائم النهضة العربية الأخيرة والعاملين على الأخذ بأيدي العاملين فيها[1].

العلوم والآداب في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر :

ومن علماء القرن الأخير والذي بعده في دمشق سليم العطار محدث فقيه محمود الحمزاوي فقيه أديب له مصنفات . بكري العطار إمام العربية ولا سيما النحو والتصريف ثم الفقه والحديث . حسن البيطار فقيه متفنن . محمد الطنطاوي عالم بالعربية والأصول والفقه والفلك والميقات . حسن الشطي فقيه . محمد الجوخدار فقيه. عبد الله الحلبي فقيه أصولي . أحمد الحلواني شيخ القراء . محمد الخاني متصوف فقيه . عمر العطار فقيه عالم بالعربية . عبد الرحمن الطيبي فقيه . محمد المرعشلي أديب وفقيه . عبد الرحمن البوسنوي عالم بالعربية .

أحمد فوزي الساعاتي عالم بالعلوم المادية والدينية . عبد المجيد الخاني أديب شاعر . عبد الحكيم الأفغاني عالم بالفقه والأصول . ملا عيسى الكردي فقيه أصولي. محمد محمود الأتاسي فقيه أصولي . علاء الدين عابدين فقيه أديب . صالح قنباز عالم بالتربية والطب له عدة رسائل وكتب . عبد الله السكري فقيه. محمد المنيني فقيه محدث . وفي بيروت يوسف الأسير عالم بالعربية والفقه وله شعر وأدب وعدة تآليف نشر العلوم الإسلامية والعربية بين نصارى لبنان (١٣٠٧) . إبراهيم الأحدب عالم بالتفسير والحديث والأصول والفقه واللغة والأدب وله عدة تآليف ثلاثة منها دواوين باسمه ونحو ثمانين مقامة ونظم مجمع الأمثال للميداني وشرح رسائل بديع الزمان وهما مطبوعان وغير ذلك من المقالات في الصحف (١٣٠٨) . أمين الشميل حقوقي مؤرخ له عدة تآليف (١٨٩٧).إسكندر ابكاريوس له تآليف في التاريخ(١٨٨٥) يوحنا ابكاريوس (١٨٨٩) له قطف الزهور في تاريخ الدهور ومعجم إنكليزي مطول . محمد الحوت (١٢٧٦) فقيه محدث له كتاب في الحديث . عبد الغني الرافعي الطرابلسي (١٣٠٩) شاعر متصوف . محمد الميقاتي الطرابلسي (١٣٠٢) شاعر . إبراهيم الحوراني الحمصي (١٩١٦م) أديب رياضي فلكي له عدة تآليف ومقالات وتحقيقات . سليم كساب لغوي أديب له عدة مصنفات (١٩٠٩م). ميخائيل مشاقة الدمشقي رياضي فلكي موسيقي مؤرخ من رجال الإصلاح الديني في النصرانية(١٨٨٩م)له تآليف . سليمان الصولة شاعر هجاء له ديوان(١٨٩١م) . يوسف الدبس(١٩٠٩م) أديب له تاريخ سورية المطبوع . جرجس همام رياضي أديب له المعجم العربي الانكليزي والكتب المدرسية والهندسية(١٩٢٠م). سعيد الخوري الشرتوني لغوي أديب صاحب معجم أقرب الموارد وغيره من الكتب اللغوية والأدبية كان متقناً للفقه الإسلامي . رشيد الشرتوني أديب نحوي كاتب له عدة كتب مدرسية وغيرها . رُشَيْد الدحداح اللبناني له عدة تآليف في التاريخ ونشر تآليف فيه (١٨٨٩م). أديب إسحاق كاتب مترسل شاعر سياسي (١٣٠٣) . إبراهيم سركيس أديب له بعض الرسائل والمصنفات . سليم شحادة مؤرخ وهو أحد مؤلفي كتاب آثار الأدهار المطبوع . أنطون الصقال شاعر كاتب . قاسم أبو الحسن الكستي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع

(١٣٢٢) . حسين الجسر فقيه أديب له عدة مصنفات منها الرسالة الحميدية في الرد على الدهريين وغيرها من المقالات في الصحف ومنها في الأخلاق والأدب (١٣٢٧) . يوسف ضيا الخالدي المقدسي له عكاظ الأدب والتحفة الحميدية في اللغة الكردية . روحي الخالدي له عدة تآليف منها علم الأدب عند الأفرنج والعرب . طاهر الجزائري العالم بالتفسير والحديث والفقه والأصول والفلسفة والتاريخ والأدب واللغة له بضعة وعشرون مصنفاً مطبوعة في فنون مختلفة وله التفسير ومعجم اللغة وغيره مما لم يطبع وكنانيش فيها آراؤه ومطالعاته يحسن الفارسية والتركية ويلم بالحبشية والسريانية والعبرانية والفرنسية (١٣٣٩) . محمد المبارك متصوف أديب لغوي شاعر ناثر له رسائل أدبية مطبوع بعضها (١٣٣٠) . محمد مرتضى متصوف فقيه أديب كاتب شاعر . عبد الرزاق البيطار فقيه أديب له تاريخ رجال عصره مخطوط . جمال الدين القاسمي فقيه محدث أصولي أديب شاعر كاتب له تفسير القرآن وعدة كتب في الإصلاح الإسلامي وتاريخ دمشق وبعضها مطبوع (١٣٣٢) . عبد الله الحموي شيخ القراء . شاكر الحمزاوي فقيه . شبلي شميل فيلسوف كاتب أديب طبيب له تآليف وآثار في النشوء والارتقاء والفلسفة . جرجي زيدان مؤرخ كاتب قصصي له عدة مصنفات منها روايات تاريخية وتاريخ التمدن الإسلامي وآداب اللغة العربية (١٩١٤) . رفيق العظم مؤرخ اجتماعي كاتب له عدة مصنفات منها أشهر مشاهير الإسلام (١٣٤٣) . سليم التنير كاتب باحث له تآليف ورسائل .

ومات من الفقهاء خالد الأتاسي . أبو الخير عابدين . أمين السفرجلاني أديب له بعض تآليف . أحمد الزويتيني الحلبي (١٣١٦) الفقيه . أحمد صلاح . محمد الزرقا . صالح الرافعي . أحمد الصديقي . طاهر الحسيني . يوسف الإمام . خليل التميمي . محيي الدين الحسيني . ابراهيم أبو رباح . بشير الغزي . مصطفى كرامة . صلاح الدين تفاحة . محيي الدين اليافي . حسين العمري إلى أمثالهم .

وهلك في هذا القرن من الشعراء والكتاب والكاتبات والأديبات سليم قصاب حسن شاعر له ديوان مطبوع . نجيب حداد شاعر كاتب قصصي (١٨٩١م)

داود عمون شاعر أديب . يوسف خطار غانم ، محمد الهلالي شاعر . إسكندر عازار . نعوم شقير له مؤلفان في تاريخ سينا والسودان مطبوعان . أمين حداد . نعوم لبكي . أنطون رباط . أبو الخير الطباع . محمد علي حشيشو . جرجي ديمتري سرسق . فرح أنطون له عدة تآليف وترجمات مطبوعة . إسكندر شاهين له عدة كتب مترجمة . شاكر شقير كاتب شاعر . محمد أرسلان . عمر حمد شاعر . عمر اليافي . محمود الشهال شاعر . نقولا رزق الله . جميل مدور . نوفل نوفل . أمين الشميل . صلاح الدين القاسمي . شاكر الخوري له كتاب هزلي . أحمد الصابوني له تاريخ حماة مطبوع . محيي الدين الخياط كاتب له عدة كتب مدرسية. حسن رزق. حسن بيهم كاتب متفنن. سليم سركيس كاتب هزلي . عبد الوهاب الإنكليزي . سليم الجزائري . شكري العسلي له عدة رسائل اجتماعية وأدبية . رشدي الشمعة شاعر كاتب . أحمد طبارة . عارف الشهابي . عبد الغني العريسي . جرجي حداد . سعيد عقل . باترو باولي . رفيق رزق سلوم . فيليب الخازن . فريد الخازن . محمد المحمصاني عبد الحميد الزهراوي . عبد القادر المؤيد . حسين وصفي رضا . بشارة زلزل له عدة كتب في الطب وغيره . محمد عبد القادر الحسني . محيي الدين الحسني له مؤلفات . شاكر عون . سليم بسترس . سليم تقلا . سليم عباس . سليم البستاني. أسعد الشدودي. عبد الغني الرافعي . شاكر أبو ناضر. خليل باخوس. سليم باز. سليم جدي . فيليب جلاد . نجيب حبيقة . يوسف حرفوش . أمين الخوري . يوسف دريان .

وهلك من النساء في العهد الأخير عفيفة كرم . وردة اليازجي . عفيفة اوزون . زينب فواز . وردة الترك . هيلانة البارودي . سلمى قساطلي . هنا كسباني . مريانا المراش .سارة نوفل . فريدة عطية .

المعاصرون من العلماء والأدباء :

ومن شيوخنا وكهولنا وشبابنا ونسائنا من اشتغلوا بالعلوم والآداب على اختلاف أنواعها وممن اشتهر منهم : (١) علماء الدين والفقه والقضاء : سليم البخاري . رشيد رضا . بدر الدين الحسني . عبد الله العلمي . عبد الله الجزار .

مسعود الكواكبي . سعيد العرفي . سعيد مراد الغزي . مصباح محرم . عبد المحسن الأسطواني . أحمد عباس . محسن الأمين . جرجس صفا . عطا الكسم . سعيد النعسان . سعيد الباني . بهجة البيطار . طاهر الأتاسي . يوسف النبهاني . محمود منقارة . عبد الكريم عويضة . عبد اللطيف نشابة . عبد الحميد الجابري . عبد القادر بدران . عبد القادر القصاب . طاهر المنلا الكيالي . أحمد النويلاتي . خالد النقشبندي . نجيب قباني . عبد الكريم حمزة . محمد الأسطواني . محمد الكستي . إبراهيم هاشم . سليمان أحمد . طاهر أبو السعود . يوسف الإمام الحسني . محيي الدين الخاني . عيسى العكرماوي . منيب هاشم . نمر الداري فهمي الحسيني . عادل زعيتر . أحمد الزرقا . نجيب أبو صوان . مصطفى برمدا . حسن الشطي . عوني عبد الهادي . معين الماضي . يوسف الخيري . أمين عز الدين. إسماعيل حافظ. ميخائيل عيد البستاني. مصطفى الخاني. مصطفى نجا . فوزي الغزي ، فتح الله أديب . علي الكيالي . عبد المجيد المغربي . محمد الحسيني . محاسن الأزهري . توفيق الدجاني . خليل الخالدي.

ومن المتفردين بالقراآت في دمشق : محمد الحلواني . عبد الله المنجد . أحمد دهمان . محمد القطب . عبد الرحيم دبس وزيت وغيرهم .

(٢ً) العلوم الفلسفية والمادية : يعقوب صروف . منصور جرداق . جودت الهاشمي . مصباح حولاّ . فارس الخوري . سعيد البحرة . رشدي سلهب . درويش أبو العافية . شكري خليفة . أمين معلوف . عبد الوهاب المالكي . أميل خاشو . يوسف افتيموس . إبراهيم الدادا . وجيه الجابري . فيكتور كورنلي . إسماعيل باقي. أحمد رستم . مصطفى الشهابي . وصفي زكريا . جمال الفرا . يوسف قدورة. محمد الترمانيني. صلاح الدين الكواكبي. مصطفى تمر . هاشم الفصيح . عبد الوهاب القنواني . أسعد الحكيم . سعيد شقير . أحمد حمدي الخياط . مرشد خاطر . جميل الخاني . حسني سبح . محمد محرم . شوكة الشطي . جميل صليبا . جعفر الحسني وغيرهم .

(٣ً) العلوم الاجتماعية والتاريخية والحقوقية : شكيب أرسلان . فارس نمر . داود بركات . خليل ثابت . عيسى إسكندر المعلوف. نقولا حداد . محمد رستم حيدر . نسيم صيبعة . سعيد حيدر . جرجي يي . عمر الصالح البرغوثي

خليل طوطح . ميخائيل ألوف . قسطنطين الباشا . سليم شحاده . نجيب صليبا . رفيق التميمي . أسد رستم . راشد طبارة . أسعد منصور . سعيد المحاسني . زكي الخطيب . عارف الخطيب . قسطنطين زريق . حبيب الخوري . روحي عبد الهادي . حسن فهمي الدجاني . أحمد سامح الخالدي . ساطع الحصري . حسن يحيى الصبان وغيرهم .

(٤ً) الأدباء : عبد الله البستاني . لويس شيخو . أسعد خليل داغر . سليم الجندي . إسعاف النشاشيبي . عارف النكدي. كامل الغزي . قسطاكي الحمصي. الخوري بطرس البستاني . مصطفى الغلاييني . رشيد عطية . أمين ظاهر خير الله. حنا صلاح . رشيد بقدونس . أنيس المقدسي . جبر ضومط . جرجس منش . أحمد رضا . سليمان ظاهر . عزة دروزة . بندلي الجوزي. عبد الرحمن سلام . عبد القادر المغربي . عبد القادر المبارك . إبراهيم منذر . أنيس الخوري المقدسي . ميخائيل صقال . نجيب ميخائيل ساعاتي . جرجس شلحت . سامي جريديني . حسني عبد الهادي . راغب الطباخ . سامي الكيالي . عز الدين علم الدين . عبد الله النجار . عمر الأتاسي . أبيفانيوس زائد . علي ناصر الدين. عبد اللطيف صلاح . عبد الله مخلص . عمر الزعني . حبيب كحالة . عارف الزين . فيليب طرازي . راجي الراعي . جميل معلوف . عمر الفاخوري . جرجي باز ، أحمد صلاح الدين . أحمد عبد المهدي . يوسف زخم . جميل الشطي . صبحي القوتلي . توفيق ناطور . أنطون جمَيِّل . نزيه المؤيد . لويس معلوف . شكري الجندي . وصفي الأتاسي .أمين الحشيمي . أنيس النصولي . أديب التقي . جودت الكيال . محمد الداودي . أحمد عبيد . حمود الزبروُتي . منح هارون . فائز الغصين . سامي العظم . خالد الحكيم . وجيه بيضون . نجيب الريس . شريف عسيران . أديب الصفدي . أديب فرحات . سعيد الصباغ جمال الملاح . أديب وهبة . عبد الغني باجقني . عارف التوام . فوزي العظم . حسن الحكيم . الياس القدسي . عبد الله رعد . صبحي أبو غنيمة . ميشل بيطار . إبراهيم حرفوش . توفيق حمادة . عبد الله خير . سليم خطار الدحداح . حكمة المرادي . يوسف اليان سركيس . يوسف صادر . أنطون صالحاني . جودت المارديني . نعيم صوايا . إسكندر طحيني. بولس عبود . إميل عرب . يوسف

علوان . يوسف غصوب . جبرائيل قرداحي . يوسف قيقانو . نجيب مخلوف . فيليب مسك . أمين مشحور . حلمي مصري . عيسى بندك . شكري كنيدر . عبد الله صفير . حبيب زيات . أحمد عمر المحمصاني. محمد علي الطاهر. يوسف حيدر . أنطون شعراوي . توفيق الحلبي . توفيق جانا . أسعد ملكي . رزق حداد . عباس أبو شقرا . طه مدور وغيرهم .

(٥) الكتاب : عبد الباسط فتح الله . خليل زينية . خليل سعادة . خليل سعد . سامي قصيري . نعوم مكرزل . يوسف الخازن . عبد الله الأسطواني . نجيب شاهين . أميل زيدان . إبراهيم سليم النجار . يوسف العيسى . بدر الدين النعساني . عادل أرسلان . محمد الجسر . توفيق اليازجي . ادوارد مرقص . أمين الريحاني. مصطفى الخيري . محمد علي السراج . محب الدين الخطيب . سليم قبعين . ميخائيل نعيمة . بولس الخولي . جبران تويني . جبران خليل جبران . شحادة شحادة . أمين غريب . فؤاد صروف . سعيد أبو جمرة . يوسف البستاني خليل السكاكيني . عادل جبر . نجيب نصار . رشدي الحكيم . عيسى العيسى . سليم ابكاريوس . أمين الكيلاني . سعيد الزهور . خليل بدوي . خليل بيدس . بطرس غالب.ناجي أديب.وجيه الكيلاني.سعيد الأفغاني.صلاح الدين المنجد نجيب الريس. سامي كبارة . جبران تونسي . خليل كسيب . علي الطنطاوي . كاظم الطاغستاني . عمر الطيبي . أمين الحلبي. راشد البيلاني . عبد الهادي اليازجي . فارس فياض . أحمد شاكر الكرمي . أحمد كرد علي . معروف الأرناؤط . عبد الحسيب الشيخ سعيد . نجيب اليان . ايليا زكا . نجيب شقرا . زكي مغامز وأمثالهم .

(٦) الشعراء : فؤاد الخطيب . أمين ناصر الدين . خليل مطران . خير الدين الزركلي . خليل مردم بك . شفيق جبري . سليمان التاجي . عبد الحميد الرافعي . مصباح رمضان . طانيوس عبده . الياس فياض . سليم عنحوري . محمد الشريقي . نوفل الياس . محمد البزم . جرجي عطية . بشارة الخوري . شبلي ملاط . أمين تقي الدين . رشيد نخلة . محمد سليمان . أسعد رستم . فخري البارودي . نسيب أرسلان . إيليا أبو ماضي . حليم دموس . أبو السعود مراد . عبد الرحمن القصار . كامل شعيب . عارف الرفاعي . نديم الملاح . محمد

الفراتي . عبد الرحيم قليلات. جميل العظم . إبراهيم الشدودي . حسين الحبال . أمجد الطرابلسي . جميل سلطان . زكي المحاسني . عمر أبو ريشة وغيرهم .

(٧) الخطباء : عبد الرحمن شهبندر . أسعد الشقيري . أسعد عفيش . نقولا فياض . غريغوريوس حداد . حبيب أسطفان . أنيس سلوم . فيلكس فارس . حنا خباز . عبد الرزاق الدندشي . مصطفى الشماع . محمود النحاس . بدر الدين الصفدي . أفرام أبيض . عبد الرحمن الكيالي . سامي السراج وغيرهم.

(٩) الكاتبات والشواعر والخطيبات : ماري زيادة . ماري عجمي . سارة خطيب . لبيبة هاشم . نجلا أبو اللمع . سلمى صائغ . جوليا طعمة . عفيفة صعب . عنبرة سلام . مسرة الأدلبي . ماري ينى . هيلانة البارودي . فاطمة سليمان . ابتهاج قدورة . بهيجة المؤيد . خيرية ترمانيني وغيرهن .

تأثيرات الأجانب في التربية :

من المعاهد التي خرجت أُناساً بالعربية والفرنسية كلية القديس يوسف اليسوعية في بيروت ، وكان أول نزول الآباء اليسوعيين في الشام سنة (١٦٥٣م) ، فأسسوا مدرسة عينطورا بلبنان التي أخذها الآباء اللعازريون بعد مدة (١٨٣٤م) وخرجت كثيراً من الأدباء باللغة الفرنسية فقط . وقد ضعفت في هذا القرن ملكة البيان في المسلمين ، وهم يتلون القرآن ولكن بدون أن يتدبروا معانيه ويفهموا إعجازه ، حتى أصبح الفقيه والمحدث والنحوي والمنطقي لا يحسن كتابة سطرين إلا بصعوبة . ويتعاصى عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع في المفردات البسيطة إلى المعاجم ، وضعف الشعر على تلك النسبة بحيث لم ينبغ إلا أفراد قلائل من الشعراء يستحق شعرهم أن يسمع ويدون ، بل كانوا إذا أرادوا الخطب في الجوامع والمساجد يحفظون شيئاً منها لأهل العصور التي سلفت ويوردونها بدون مناسبة ، بل إن الإجازات التي يكتبها الشيوخ وغيرها من التحميدات والتقاريظ وأدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين ويحرفونها على صورة مستكرهة ، وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبز الأب للابن ، وكان المفتي أبو السعود من مشايخ الإسلام في الإستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس ، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية

توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء ، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة ، كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم . بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء للأميين ، وكم من أُمي غدا في دمشق وحلب والقدس وبيروت قاضي القضاة، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم، لأن أخذ القضاء في دار الملك كان متوقفاً على بذل شيء من الرُّشى ، فيصل إليه أجهل الناس وبذلك فترت الهمم ، وانصرفت الرغبات عن تعلم علوم الدين ، لأن الجاهل والعالم سواء ، ومن يحسن المصانعة والرشوة ويمتّ إليهم بأسلوب من أساليب الشفاعة .

وأصبح الشعر عبارة عن شبكة يتعلم صاحبها نصبها ليتزلف بها إلى الكبراء وأرباب الدولة ، والشاعر كطبال أو زامر أو قرّاد يغني ويلعب أمام من يعطيه دريهمات قليلة . وهناك شبكة رسمية أُخرى يصطاد بها المال وهي أن من حفظ قواعد النحو والصرف في كتب لهم معينة وانقطع إلى مدرسة من المدارس ، وجاز الامتحان ست سنين على أُسلوب لهم مخصوص يعفى من الخدمة العسكرية ، فتعلم بذلك كثيرون، ومن فهموا ما تعلموه جاء منهم بعض فقهاء وأدباء ، ثم أبطل ذلك في العقد الثاني من القرن الرابع عشر .

وبينا كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق وطرابلس والقدس وغيرها آخذة بالأفول والاندراس ، والمسلمون أو الذين خرجوا من الأمية بعض الشيء من أهل هذه الديار يولون وجوههم قِبَل المناصب الدينية والإدارية والعسكرية ، كان إخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة ، جعلت تدريس العربية وآدابها واللغات الحية أول بند من منهاج الدراسة فيها ، فجاء من أبنائهم ومن أخذ العلم عنهم من سائر الطوائف جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الآداب ، ومنهم أفراد نزحوا إلى مصر واميركا وتولوا الأعمال الكبرى وأظهروا آثار قرائحهم ونبوغهم ولا سيما في القرن التالي ، وبطلت القاعدة التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقبيح نحو النصارى وغناء اليهود ، فأصبح بالتعلم من النصارى نحاة ثقات ، ومن اليهود مغنون ومغنيات ، أي أن الزمن أبطل ذاك الزعم .

الآداب في القرن الرابع عشر :

اختص القرن الرابع عشر بأن تجلت فيه فائدة العلم لعامة الشعب ، فصار المقتدرون من الناس يلقون بأولادهم لأي مدرسة كانت ليأخذوا العلم منها ، ودبت الغيرة في نفوس المسلمين فأنشأوا بعض المدارس الأهلية مثل مدارس المقاصد الخيرية وغيرها في بيروت وصيدا ودمشق وحماة وحمص وحلب وطرابلس فخرّجت هذه المدارس مئات من المتأدبين كما خرّجت المدارس الطائفية مثل مدرسة البطريركية الكاثوليكية ومدرسة الحكمة المارونية في بيروت .

وكان الفضل في هذه النهضة الشامية أولاً لمدارس لبنان وبيروت وعناية بطاركة الموارنة ومطارنتهم وأساقفتهم وقسيسيهم بالعلم واللغة . أما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الاميركية أكثر من غيرها ، ولو لم تُبطل تدريس العلوم بالعربية وتجعله إنكليزياً لتضاعفت الفائدة التي نشأت من هذه المدرسة العالية ، وكان من أستاذين من أساتذتها الدكتور فانديك الاميركاني والدكتور ورتبات الأرمني فضل على العربية بما كتباه في العلوم المختلفة باللغة العربية وكذلك كان شأن بوست الاميركاني فإنه ألف كتباً علمية نافعة بلغتنا فعدّ منا ، وكذلك فعل بورتر وغيره .

إن المدارس الطائفية ومدارس المرسلين من الأميركيين واليسوعيين وغيرهم من الأمم ذات المطامع في الأرض المقدسة قد جعلت التربية متلونة فأصبح كل متعلم يخدم الغرض الذي أُنشئت له مدرسته ، وانقسمت الأمة بهذا الضرب من التعلم أقساماً ، وتباعدت مسافة الخلف بين أبناء البلد الواحد ، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد مما لم يكن له أثر يذكر في غابر العصور ، ولأن معظم المدارس التي أنشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين والسياسة ، فالإنجيليون أو البرتستانت تنتشر دعوتهم كل يوم ، واليسوعيون ينزعون منزعاً آخر في التربية الدينية والسياسية ، وهكذا لو أردنا أن نعدد أسماء الجمعيات الدينية التي تعلم المسيحيين في الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين إرسالية. ومنها ما ينزع من المتعلم حب قوميته

وبلاده ، وكم رأينا رجالاً ونساء درسوا في تلك المدارس فجاؤوا لاعرب ولا إفرنج ، يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم ، ولا يشعرون شعور الشامي ، بل يبغضون تقاليدهم وتاريخهم ، ولذلك صح أن يقال إن تلك المدارس لم تنفع النفع المطلوب ، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بأن هيأت لها في هذه الديار أنصاراً .

وبينا نرى بعض المسلمين يكتبون التركية كأهلها وشعورهم تركي صرف ولم ينفعوا الشام بشيء كثير من علمهم ، نشاهد كثيرين ممن درسوا في مدارس الرهبان والقسيسين والحاخامين والمدارس العلمانية الفرنسية يكتبون الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية أو الروسية أو اليونانية أحسن من كتابتهم لغتهم بدرجات وكل هؤلاء لم يستحق أحدهم اسم العالم والأديب ، بل إن معظمهم قد اسودت الشام الجميلة في عينه ، وهجرها إلى أرض أخرى . إن الشامي المتأدب في الجملة بآداب قومه يحب لغته ويغار عليها ، ولذلك أسس عدة صحف ومجلات راقية في مصر والمهجر من أميركا الشمالية والجنوبية وحبب المطالعة بالعربية إلى من نزل عليهم ، أو إلى من هاجروا من الشاميين بحيث لا تقل صحفنا ومجلاتنا العربية خارج الديار الشامية عن خمسين جريدة ومجلة حية ، وما ندري إن كانت هذه الهمة تظل على حالتها بعد انقراض هذا الجيل ، فإن الجيل الجديد من الشاميين في أميركا الشمالية والجنوبية قلما يعرف العربية بل هو يتكلم بالإنكليزية أو الاسبانية أو البرتغالية . وأعظم نقص في المدارس الأميرية والطائفية والأجنبية أن الأولى تصوغ موظفين والثانية والثالثة تهيء المتخرجين على معلميها إلى الهجرة ، وتباعد بين أبناء الوطن الواحد وتبث مبادىء اجتماعية لا تنطبق على حالتنا .

نعم تمت بالشاميين كما قلنا مرة (المقتبس المجلد الخامس) دواعي التفريق في الوطنية وضعفت ملكتها فيهم بقوة المدارس غير الوطنية في ديارهم . فإن كانت هذه المدارس قد نفعت الشام بما أدخلته إليها من النور ، فقد أضرتها بانحلال عقدة الوطنية ، فمدارس الأميركان والروس واليونان والفرنسيين والإنكليز قد أصلحت وأفسدت . أصلحت بتلقين من تخرجوا فيها شيئاً من معارف الغرب ، وأضعفت في نفوسهم حب الوطن بتحبيبها إليهم أوطاناً غير أوطانهم ،

وتعريفهم إلى رجال غير رجالهم . والعاقل من حرص على نفع أمته قبل كل نفع ، وانتفع بما عنده قبل أن يتطال إلى ما عند غيره . ومن زهد في لغة آبائه وجدوده كان حرياً بالزهد في وطنه ووطنيته . واللغة والوطن يصح أن يكونا اسمين لمسمى واحد . جنت مدارس الأجانب والحكومة أعظم جناية ، لأن المتخرجين فيها ومعظمهم من الذكاء على جانب لم ينفعوا الدولة ولم ينفعوا الأرض التي ولدوا فيها . إن المدارس غير العربية في الشام أشبه بالسارق الذي يسرق الأعلاق ونفائس المتاع ، أستغفر الله بل إن من يسرق فلذات الأكباد ، ليخرجها على ما أراد ، أشق على النفس وطأة ، وأعظم في المغبة أثراً . وهل يقاس سارق الأموال بسارق الأطفال والرجال ؟ أوَليست الأرواح أثمن من كل بضاعة ، وهل أعز من الولد على قلب أبويه . إن المدارس التي تعلم على غير الأسلوب الوطني هي التي تسلب من الشام اليوم بعد اليوم روحها ، وناهب الروح ماذا يدعى في الشرع والعقل . ولم يبلغ البشر درجة من التمدن حتى تتساوى في عيونهم اللغات والعناصر كلها ، وتتجرد أمة فتفنى لإحياء غيرها ، وتقلل جنسيتها لتزيد سواد أخرى ، ولا تهمها دارها وتريد هدمها لتعمر بأنقاضها دار جارها .

في نحو سنة(١٢٧٨) فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية وهي أول مدرسة أميرية أنشئت في حلب. وأنشأ [١]مدحت باشا في دمشق سنة(١٢٩٥هـ) ثماني مدارس ابتدائية للذكور والإناث ودار صنائع ، وأسس مثل ذلك في أعمال ولايته الواسعة، وما برحت المعارف مذ ذاك العهد تعلو وتسفل والحكومة لا تطلب من المدارس الابتدائية والثانوية إلا أن تُخرج لها طبقة من الموظفين ملكيين وعسكريين يكونون أتراكاً بألسنتهم لا بقلوبهم ، عثمانيين بتربيتهم لا بأصولهم ، وقد أخذ دعاة تتريك العناصر يقاومون العربية سراً ، فما هي إلا أعوام حتى أصبح معظم الدارسين في مدارس الحكومة يخرجون بعد درس عشر أو خمس عشرة سنة ، وهم لا يحسنون لغتهم ولا لغة الدولة الرسمية ،

(١) من تقرير لنا في إصلاح المعارف العمومية في ١١ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ — ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٠ .

فضلاً عن اللغة الفرنسية التي كان تعلمها إذ ذاك رسمياً في الظاهر صورياً في الحقيقة ، على مثل ما كانت اللغة العربية في مدارس الحكومة ، وكان يندر بين من تخرجوا في هذه المدارس من يعاني الصناعات الحرة ، ومعظم من أتموا تعلمهم في مدارس الحكومة العثمانية نشأوا مستعدين للوظائف فقط .

وما فتئت مدارس الحكومة بعد خمسين سنة من تأسيسها غير وافية بالغرض من بعض الوجوه ، وجعل التعليم بالعربية عقبى خروج الدولة العثمانية من هذا القطر ، وروحها لم تبرح تلك الروح التركية ، لأن معظم المعلمين ممن تعلم بالتركية وتخلق بالأخلاق التركية ،وقد حاولت إدارات المعارف في الديار الشامية نزع الروح القديم وتنشئة المعلمين نشأة عربية ، وليس في الوسع أن يشيب المرء إلا على ما شب عليه ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولم تهتد مدارس الحكومة حتى اليوم إلى إيجاد مثال من التربية يلتئم مع ماضي الأمة العربية وينفعها في حاضرها ومستقبلها ، وتغذية العقول غذاءً كافياً ينفعها في استخراج ثمرات الأرض وكنوزها والتفنن في صنعها ووضعها ، وتجديد برامج التعليم من الزوائد التي يستغنى عنها في باب تربية الفتاة والصبي . أما التعليم الديني عند المسلمين فهو أحط تعليم ،أصيبوا بذلك بعد خراب المئات من المدارس الدينية في القطر وأكل أوقافها ، وقد تغافلت الدولة التركية عن إنهاضها ، ولم يتهيأ لها في الدور الحديث من يفكر حقيقة في إصلاحها ، وإذا درس المشايخ الدروس النظامية ، وتأهلوا للقضاء والفتيا والتعليم أهلية حقيقية ، تنحل بتعليمهم التاريخ والرياضيات والطبيعيات والاجتماعيات مشاكل كثيرة . ومن العجيب أن مدينة كدمشق لا يقل سكانها عن ثلاثمائة ألف نسمة كان فيها في الثلث الأول من القرن العاشر نحو ثلاثمائة مدرسة ومعهد مختلفة الشكل — عدا الكتاتيب الملحقة بالجوامع — تقرأ فيها دروس العلم والأدب والطب والهندسة ، ليس فيها اليوم درس ديني واحد يقرأ بصورة مطردة ، ولذلك بلغت العلوم الشرعية درجة من الضعف تضحك وتبكي ، وبلغت أكثر وظائف الوعظ والتدريس والخطابة والإمامة من السخف ما نسأل الله معه السلامة .

وقد جبرت حلب هذا النقص فتولى مفتيها بمعاونة ناظر أوقافها كبر هذا الأمر ، فوضع برنامج لتدريس العلوم الآلية والدينية مدة اثني عشرة

سنة ، ونزل الطلبة في المدارس: المدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية والشعبانية والقرناصية والإسماعيلية ، وربطت لهم رواتب تعاونهم بعض الشيء على ما هم بسبيله ، يتقاضونها من أوقاف تلك المدارس ويقرأ الطلبة اليوم على أساتذة تلك المدينة على نظام في الجملة ويرجى أن يكون منهم علماء دينيون ومتأدبون .

أما علماء الدين عند المسيحيين والإسرائيليين فأخذوا يتعلمون في مدارس لهم نظامية في روسيا أو إيطاليا أو أميركا وغيرها فلا يرقى في الأغلب إلى الرئاسة الدينية عندهم إلا من توفرت فيه شروط العلم والنباهة ، ويكون على الأغلب بانتخاب أقرانه ، ولذلك جاء البون شاسعاً بين عقلية علماء الدين من المسلمين وعقلية غيرهم من أرباب الأديان ، وغدا أرباب الإنصاف يقولون بالرئاسة الدينية في الإسلام على النحو الذي هي في النصرانية ، لأنه ثبتت فوائدها في تثقيف العامة وجمع كلمة الخاصة ، ولأن الحكومات ليس من شأنها أن تعلم إلا البسائط العامة المشتركة ، والأمور الأخرى من شأن زعمائها الذين تعتقد فيهم صلاحها. ومن أغرب الحالات أن مدارس الحكومة في جميع المقاطعات الشامية لا يتعلم فيها غير المسلمين ، أما سائر الطوائف فلا يعتمدون في تعليم أبنائهم على غير مدارسهم أو على مدارس المبشرين . وبهذه الطرق المختلفة في مناحي التربية يستحيل أن يجتمع أبناء الوطن على مقصد واحد ، لأن كل فرد يتعلم النفرة من مخالفه في معتقده ، وخصوصاً في مدارس بعض الرهبنات التي تهزأ بالإسلام والعرب ، وتحرّف التاريخ الصحيح ولا تعلم منه إلا ما ينطبق مع رغائبها ، ولا يفيد شيئاً في تكوين الوطنية والقومية ، ولو اتحدت التربية واشترك جميع أبناء الشام في التناغي بها والاعتماد عليها ، لا تلبث هذه الأمة خمسين سنة أن تخرج سماؤها سلسلة طويلة من الرجال يرفعون مستوى العقل فيها ، ارتفاعه عند أمم الحضارة في الغرب ، ويؤثرون فيها كما أثر أجدادنا في مجموع الحضارات الحديثة . وعندنا أن لا نهضة في الأخلاق والعلم والشؤون الاقتصادية والاجتماعية إلا إذا تعلم المسلمون تعليماً صحيحاً ، لأنهم ستة أسباع السكان ، والثروة الثابتة ملكهم ، وهذا لا يتم إلا إذا تعلم أبناء غير المسلمين مع أبناء المسلمين تعليماً وطنياً واحداً .

الجامعات والكليات :

احتفل الصهيونيون (سنة ١٣٤٣هـ) بإنشاء جامعتهم العبرية في القدس يعلمون العلوم باللغة العبرانية ولا تمضي خمس عشرة سنة حتى تنبعث الديانة اليهودية والمدنية اليهودية من مراقدها ، كما انبعثت منذ القرن الماضي في بيروت شعلة المدنية الأميركية والمذهب الإنجيلي من الجامعة الأميركية ، وانتشرت المدنية الفرنسية والكثلكة من كلية القديس يوسف اليسوعية .

وفي (١٥ حزيران ١٩٢٣م)أسست في دمشق الجامعة السورية وهي ذات فرعين الطب والحقوق لتكون جامعة عربية للشام بالمعنى الذي يفهمه العلماء من الجامعات ثم أضيفت إليها شعبة الآداب وألغيت بعد سنين ، وما زالت اللغة العامية شائعة في مدرستي الطب والحقوق ، لأن معظم المدرسين من الطبقة التي لا تقيم للعربية وزناً، فقدتخرجت في مدارس الترك لتكون من الموظفين في الحكومة العثمانية ، ولم تُعن بالمطالعة والبحث ولا بالتأليف والترجمة ، وبعض الشهادات التي كان العثمانيون يعطونها من مدارسهم مشهور أمرها ، ومن الغريب أن توسد هذه الأعمال العلمية الجليلة إلى أُناس هم أتراك في تربيتهم وأفكارهم ومنازعهم في صميم بلاد العرب ، وفي جامعة عربية يراد منها تكوين أمة عربية . ويرجى إدخال الإصلاح المنشود إلى هاتين المدرستين العاليتين إذا وُسدت مناصب التعليم فيهما إلى كفاة، يحسنون العربية إحسانهم العلم الذي يدرسونه وأن تصقل أماليهم بأيديهم صقلاً متقناً بحيث تصدر دروسهم عن علم أتقنوه وتمثلوه وهضموه وصار لهم ملكة خاصة ، لا مترجمة في الأكثر عن التركية ترجمة جذماء عوجاء كما يفعلون إلى اليوم ، ومتى كانت اللغة التركية لغة علم وعنها يؤخذ في مثل هذا العصر ، والمعلوم أن لغات العلم ثلاث الإنكليزية والفرنسية والألمانية ليس إلا ، ومتى كانت تربية الأعاجم تصلح للأمة العربية التي يجب أن تتكون بحسب تاريخها ومنافعها الحاضرة والمقبلة .
وبعد عشرين سنة مضت على هذا التدوين ارتقى مستوى التعليم في الجامعةالسورية وارتقت اللغة العربية فيها باعتزال من ربوا تربية تركية ووسد إليهم أمر التعليم لأول إنشائها وجاء أساتذة أتقنوا العربية وآدابها وهم اليوم يلقون دروسهم

بلغة أقرب إلى الفصحى وقد وضعوا التآليف في الطب والحقوق بلغة عربية «مقبولة».

ولا سبيل إلى الانتفاع بالجامعة السورية نفعاً حقيقياً يتفق مع شهرة الديار الشامية القديمة بالعلم – إلا إذا تمت فروعها فأُنشئت فيها مدرسة للآداب وأخرى للعلوم وثالثة للإلهيات ، وبذلك تتم فروعها وتنبعث منها أنوار الحكمة المشرقية والمغربية ، ولا غضاضة علينا إذا جئنا من مصر وديار الغرب بعلماء إخصائيين في الفروع التي لا نحسنها من ضروب العلم ، نتعلم منهم طريقتهم في البحث والدرس والتحليل والتركيب ، فالقطر المصري وهو أسبق منا في العلوم ما زال إلى اليوم يأتي من الغرب بعلماء يوسد إليهم الإدارة والتعليم في جامعته . وعلى ذكر القطر المصري لا بأس بأن نشير إلى أن المتعلمين من الشاميين ما برحوا يفزعون إلى مصر منذ أواخر القرن الماضي يخدمون الآداب ويرزقون منها ، فكان لمصر الفضل على الشام وبنيه لأنها كانت منبعث قرائحهم . وكان في هذه المقايضة العلمية بين الشام ومصر من الفوائد ما لا يمكن أحداً جهله .

وبعد ذلك يرجى أن لا يضيق كثيراً نطاق اللغة العربية ، بعد أن رأى الناس أمرها يضعف الحين بعد الآخر في الغرب والجنوب ، وهي إلى ضؤولة في الشرق والشمال والوسط على ما يبذله المجمع العلمي العربي منذ سنة (١٣٣٧هـ) من العناية بنشرها وتهذيب ألفاظ الكتاب وتراكيبهم ، والأخذ بأيدي المؤلفين والمترجمين ، وتحبيب المطالعة إلى الجمهور ، وتعليمه في محاضرات ودروس عامة ، وعرض آثار مدنية الأسلاف على أنظاره لبعث عقليته من رقدتها . وإذا توفرت الجامعة السورية العربية على صياغة علماء الهيين وعلماء مدنيين وأدباء ومهندسين وطبيعيين وكيماويين وزراعيين وأطباء وحقوقيين وأثريين يعرفون كيف يبحثون ويعلمون ، نخدم المدنية خدمة حقيقية .

الإخصاء :

وبعد فإن أهمّ ما ينبغي صرف العناية إليه اليوم نشر العلوم الانسيكلوبيدية ، أي المشاركة في العلوم المتعارفة ، ثم الانقطاع إلى فرع واحد ، أي إلقاء النظر على المعارف التي تنير الفكر من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والتاريخية

والأدبية ثم معالجة موضوع واحد : «إذا كانت القرون الوسطى قرون التعميم في التعليم ، فإن هذا العصر عصر التخصص . فقد اتسعت معارف البشر النظرية والعملية فدعت الحاجة إلى أن يقسموها بحسب استعدادهم وحاجاتهم إلى أقسام ينقطع إليها أفراد . فالأصول من المعارف هي المعلومات العامة وتفرعاتها هي الإخصائيات . كان بادئ بدء كل شيء مفهوماً في الفلسفة ، فكانت لفظة عام عند الأمم الجاهلة تتناول جميع العلوم ، وتنقسم إلى قسمين : المحسوسات والمعقولات ، ودعيتا علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة . أما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيماً معقولاً ولا جارية على طريقة معقولة ، وكان أرباب الأفكار يحتقرونها فلا يمارسها إلا الصعاليك يخلفون في تعلمها آباءهم ، بدون وقوف على القوانين الميكانيكية أو الطبيعية التي كانوا يعملون بها على الدوام .

ثم حسنت الحال بالتدريج ودخلت الأعمال في طور نظام ، وانتظمت العلوم الرئيسة ، لا سيما الآداب والفنون وعلوم النظر والعلوم العملية أي التجارة والصناعة والحرف ، ونشأ الإخصاء في كل فرع من فروع هذه الطبقات . فالطبيب مضطر إلى تعلم أمور كثيرة ، ولا يخصي في تعاطي فرع واحد إلا في المدن ، أما في القرى فيمارس كل فرع من فروع الأمراض الباطنية والخارجية . وهكذا الحال في الأعمال التجارية والصناعية فإن كل حرفة أو مهنة تنقسم إلى أقسام .

وقد دخل كل علم اليوم في دائرة الإخصاء حتى ما يلزم الطاهي والبائع من المعارف ، فأصبح من الضروري بالنظر لتكاثر أعمال البشر ، أن يزيد أبداً الإخصاء في كل علم وشأن . وإذا نظرت إلى الإخصاء من حيث العلم فإنه دليل الكفاءة وبدونه لا يكون عالم ، فان المبادئ الأولية من جميع العلوم هي ولا شك نافعة لكل الناس ، ومتى حاز المرء قسطاً من هذه العلوم ورأى أن يتبحر فيها يجب عليه تعيين الموضوع الذي سينصرف إليه وبدون ذلك يتقدم المرء في عمله تقدماً بطيئاً ، ويخلط ويبقى متوسطاً وإلى ضعف . والإخصاء ضروري أيضاً في العلم العملي أي في المعامل والأعمال اليدوية وذلك للسرعة في الإنتاج وبهذا يرى أرباب معامل الابر والخياطة في لندرا أن في تقسيم الأعمال اقتصاداً كبيراً .

إذا قسمت الأعمال وأخصى المشتغلون بالعلوم وتوسعوا فيها ، فالإخصاء يؤدي ولا جرم إلى الضعف الأدبي ، وذلك أن العاملات مثلاً إذا قضين نهارهن في عملهن السهل اللطيف في الظاهر ، كأن يتوفرن على إدخال الخيوط في إبرهن فإنهن لا يفقدن شيئاً من حواسهن ، ولكنه ثبت أنهن يفقدن حاسة النظر في أقرب وقت . أما القوى العقلية والقوى المماثلة لها فإنها تتأذى أيضاً . ومن ينصرفون في العلم المحض إلى الإخصاء ككثير من الرياضيين والمهندسين والفلكيين يعيشون في العالم كأنهم ليسوا منه ، ويدهشون من عاصروهم بغرابة أخلاقهم ، وتشتت أفكارهم ، وبالجملة فيقضى على كل مخص في العلم أو في الصناعة أن يحرز حظاً من المعارف لأول أمره ، وأن يخصي في علمين أو ثلاثة ، فإذا مهر أحدها أراح غيره اه .

الصحافة العربية :

نشأت الصحافة، أي نشر صحف الأخبار ، بعد انتشار فن الطباعة الحديثة عام(١٥٦٦م) في مدينة البندقية،ولم تلبث أن انتشرت في أوربا،ولكنها لم تُعرف في ديار العرب إلا في سنة(١٧٩٩م)أنشأها في مصر نابوليون بونابرت ، ولم تصل إلى الشام إلا في أوائل منتصف القرن التاسع عشر،ففي بدء سنة(١٨٥١م) أنشأ المرسلون الأميركان في بيروت أول مجلة عربية اسمها «مجموع فوائد ».وللشاميين الفضل الأول في إنشاء الجرائد، جمع جريدة ، وهو الاسم الذي وضعه أديب لبناني للتعبير عن Journal أو Gazette ثم وضع لغوي لبناني آخر اسم «مجلة» للتعبير عن Revue أو Bulletin أطلقه على هذه الرسائل الدورية التي تضم بين صفحاتها مختلف الفوائد في شتى الموضوعات . وما زال للشاميين الفضل الأكبر في إنشاء الجرائد والمجلات.وقد أنشأوا في الاستانةومصر وتونس وأوربا وأميركا صحفاً عربية كثيرة ، وآزروا في صحف كثيرة ، كما أنشأوا في الشام صحفاً كانت تعلو وتسفل بحسب مقدرة القائمين بها ، ذلك لأن الأمية كانت غالبة ، ولم يكن الإقبال على مدارس المرسلين والمدارس الطائفية وهي التي سهلت درس العربية قبل غيرها ، هذا الإقبال الذي شوهد من بعد ،

وخرّج مئات من الطلاب الذين كان أقل ما ثقفوه فيها تعلم مبادئ لغتهم ومبادئ اللغات الأجنبية .

ولما احتل البريطانيون مصر وزاد الضغط على الصحافة العربية في الشام ، هبط مصر كثير من نبهاء الكتاب الشاميين من أرباب الصحف ومن المترجمين وغيرهم ، وأنشأوا جرائد ومجلات ومنها إلى اليوم جريدتا الأهرام والمقطم ومجلات المقتطف والهلال وغيرها من الجرائد والمجلات التي نشرها الشاميون وعاشت مدة ثم احتجبت . وكلها أبلت بلاءً حسناً في خدمة الأفكار ونشر الآراء العلمية والتهذيبية والأدبية والدينية . وقد نشرت في الشام وفي مصر بأقلام الشاميين أنفسهم صحف ومجلات كثيرة لم يكتب لها البقاء ، وإن كان بعض القائمين بها على حصة موفورة من العلم والأدب ،وقضي عليها لقلة القراء ، أو لوفاة أصحابها كمجلة الضياء والمنار ولم يأت من يخلفهم في موضوعهم . وأخرى أن المجلات المفيدة لم تجد من الحكومات والجمعيات معاضدة فعلية .

ظلت الصحف السياسية والمجلات العلمية مستندة إلى قوى أصحابها فقط ، ولو كان في القوم أناس يحبون حقيقة معاضدة الآداب لألفوا شركات برؤوس أموال كبيرة لإنشاء بضع صحف ومجلات تخدم الخدمة اللازمة ، ولا تسف إلى تناول ما يسد بعض عوزها من الحكومات أو من أفراد أو من أرباب المظاهر يعطون المجلات أو الجرائد ما تيسر حتى تسبح بحمدهم وتنشر محامدهم وصورهم فالجرائد والمجلات بذلت الجهد إذاً في نشر الأفكار والتهذيب في الشام على قلة الوسائط ، وكان صوتها يسمع أكثر مما سمع لو بذلت الأمة العناية بتعهدها أكثر مما بذلت ، نعم كانت خير معلم وأجمل مدرسة للناس ، ترشدهم في جميع ما تشتد إليه حاجتهم من المعارف ، وتغرس في نفوسهم روحاً وطنياً لا تقوم الأمم بغيره ، وتلقن الجمهور على اختلاف نزعاته تربية سياسية صالحة في الجملة لأمة لم تستقر حالتها السياسية .

دخل منذ ثمانين سنة كثير من النبهاء في الصحافة ، ولكن المتوسطين الذين خاضوا غمارها كانوا أوفر عدداً ، فأفسد المتوسطون عمل الذين كان يرجى من أقلامهم رفع مستوى المعارف . ومع كل الضعف الذي تجلت أعراضه في كل أدوار الصحافة الشامية كان منها أن علمت الناس ما لم يكونوا يعلمونه ،

علمتهم أن وراء حياتهم المادية حياة معنوية . لا تبقي لهم مادياتهم بدون الأخذ بحظ وافر منها ، علمتهم بسائط من التاريخ وحال الأمم وسياسات السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين وتدليس المدلسين . وأن أمتهم كانت شيئاً مذكوراً فيما مضى ، ولا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد ، والاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم . وأصبح بعض العامة ممن أدمنوا تلاوة الصحف وتفهمها ، أرقى عقلاً من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مئة أو مئين من السنين . علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية ، وأن نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً . علمتهم أن الغرب لا يريد خيراً للشرق ، والشرق شرق والغرب غرب ، وأن الأقليات التي كانت تصرفها أوربا بحسب أميالها السياسية لا تعيش إلا بالاندماج في الأكثريات ، وتوحيد المقاصد الوطنية . وكل أمة تُحكم برأي السواد الأعظم من أبنائها .

علم معظم الناس،إلا أناساً مأخوذين بتعصبات مذهبية ونعرات طائفية ، أن الغرب لتحقيق أغراضه يفادي بكل من يمتون إليه بصلة من صلات القربى المذهبية ، وأن الاعتبار عنده للمصلحة كيفما كانت وكان السبيل إلى الحصول عليها ، وقاعدتهم كلهم الغاية تبرر الواسطة . ولقد عرفت الحكومات التي استولت على هذه الديار منذ نشأة الصحافة الشامية كيف تستفيد من هذه القوة ، فكانت تحتال في أول دور أن تشرّف صاحب الجريدة برتبة لها ووسام ، ومن خالف الصدع بأمرها تكسر قلمه وتشرده وتسجنه وتُنزل عليه غضبها ، وقد تجلى ذلك في الثلث الأخير من الدور الحميدي ، فلما أُعلن القانون الأساسي أخذ الأتراك الذين قبضوا بعده على زمام المملكة يتوسعون في هذا المبدإ مبدإ السير بقوة الصحافة إلى الغرض الذي يرمون إليه . فصانعوا بعض أربابها وضحكوا من بعضهم بإكرامهم وإعطائهم مالاً . ولما جاءت الحكومات المنتدبة وهي من أعرف الأمم بتأثير الصحافة في الأفكار لم تقصر في اتخاذ هذه النظرية على طريقة جمعت أيضاً بين الرغبة والرهبة والعطاء والمنع . ولم تخل الشام في كل دور من أُناس باعوا في خدمة صاحب القوة ضمائرهم . شأن كل أمة جديدة في الحياة السياسية ، ولكن ظهر ذلك جلياً في صحافتنا لأن الدعاة للقوة ضعاف ،

حتى في فهم ما انتدبو إليه ، فكانت تنكشف أعمالهم منذ أول يوم يسبحون بحمد من استهووهم .

وبعد فالصحافة العربية في الشام تحتاج إلى أربع أو خمس صحف وبضع مجلات على النمط العالي من نوعها في أمم الحضارة ، تصدر في أمهات حواضر الشام (القدس وبيروت ودمشق وحلب) وترجع في شؤونها إلى شركات منظمة تدير ماليتها ، أو أحزاب سياسية ثابتة تدير حركتها ، ويوكل أمرها إلى كفاة ينسجون فيها على أحسن منوال نسجته صحافة أوربا وأميركا ، ونحن لا نتطال إلى أن يكون للشام اليوم صحافة كصحافة بريطانيا العظمى بوفرة مادتها ، وصدق لهجتها لأمتها ، وسرعة تناولها الأخبار ، وتنويع أساليب التعليم والتفهيم ، بل نرجو أن تكون لنا صحافة متناسبة مع ماضينا وحاضرنا ، بحيث لا تكون الشام أحط من مصر في هذا الشأن على الأقل . الصحافة عنوان ارتقاء الأمة ، وليس ما يمنع من إبرازها في قوالب مقبولة لجميع الأذواق ، وهذا لا يتم إلا إذا وسدت أعباء الصحافة للعارفين .

قلنا في سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) من مقالة (المجلد السادس من مجلة المقتبس) :
وقد رأينا هذا التهالك على إنشاء الصحف والمجلات حتى كان لنا منها نحو مئة صحيفة في هذا القطر الصغير ، نأسف لأكثرها على الورق الذي تطبع فيه والوقت الذي يصرف عليها ، وهي خلو من الفوائد اللازمة ، ولولا بضع جرائد ومجلات لابأس بها في الجملة ، لقلنا إننا بعد اشتغال ستين سنة في الصحافة لا نزال في حالة ابتدائية ، قلنا : إن للنجاح في الأعمال أسباباً كثيرة ، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ، إذا اختل أحدها تعذر النهوض بالشق الآخر . وإنشاء الجرائد والمجلات لا يخرج عن هذا الحد المقرر . وهل في الأرض عمل لا يحتاج إلى علم وتجارب ومال واستعداد ؟ ولطالما رأينا مصر في الثلاثين سنة الأخيرة ، والشام في عهدها الدستوري وغيرهما من الأقطار والأمصار التي يتكلم أهلها بالعربية ، تتجرأ على إصدار الصحف بدون حساب ولا روية ، وأدركنا العامة أجرأ من الخاصة على اقتحام هذا المركب الصعب ، وليس لديهم في الأغلب من وسائط النجاح كبير أمر ، فلا يلبث ما ينشئون أن يظهر إلى الوجود حتى يختفي اضطراراً لا اختياراً . وهذا هو السبب في تعدد الجرائد وقصر أعمارها واشمئزاز

الناس منها ، إذ توهموها بما تمثل لهم من حال بعض من أقدموا عليها آلة للتكسب والتدجيل لا أداة للوعظ والإرشاد والتعليم .

« ما رأينا صناعة من الصناعات استسهل الناس أمرها كالصحافة . فلم يعهد معلم في النجارة أو الحدادة أو البناء أو الهندسة يحترف هذه الحرف بدون سابق ممارسة ويتصدر للاعتياش منها وهو لا يعرف من أسرارها سراً . ولكن فن الصحافة في هذه الديار الذي يتوقف النجاح فيه على أسباب كثيرة أهمها العلم والتجربة والمال ، قد رأينا أناساً من الأغمار يدّعونه بدون خشية وأكثرهم لا يعرفون قراءة الجرائد والمجلات دع تأليفها وإصدارها .

« كان جمهور الناس إلى عهد قريب يشارك الأطباء في طبهم ، فترى الكبير والصغير إذا عرض لهما مريض من خاصتهما ومعارفهما لا يتوقفان في وصف علاج يشفيه ، مدعين أن ذلك من مجرباتهما أو مجربات أصحابهما ، ولما كثر الأطباء واستنارت الأمة بعض الشيء خفت هذه العادة في التعدي على الأطباء في طبهم إلا عند الطبقة الجاهلة . أما الصحافة فيدخل فيها بالفعل أناس ليسوا منها وليست منهم . ويصفون للأمة أدوية تقيها الأسواء والأرزاء ، ويعترضون على العالمين والحاكمين والسلاطين بلا خشية ولا حياء . كأن طب الأرواح ليس أصعب من طب الأشباح . أو كأن الصحافة من العلوم اللدنية لا الكسبية ، يتعلمها المرء بالذوق وتوحى إليه إيحاءً .

« من أجل هذا احتقرت الأمة الصحافة لما رأت من ضعف بعض أدعيائها في أخلاقهم ومعارفهم وقد شانوا اسمها وعبثوا بجمالها . تذرعاً إلى مطمع ينالونه ، وصيت بالباطل يحصلونه ، ومقام عالٍ ينزلونه . نعم لم نشهد العطار بيطاراً ، ولا الإسكاف نجاراً ، ولا الحطاب رساماً ، ولا الفحام نظاماً ، ولا الجوهري حجاماً . ولكن شهدنا الفلاح صحافياً ، والمتشدق مؤلفاً . والثرثار محامياً ، والمكثار خطيباً . كما نشهد الأغبياء قد يحاولون مجاراة الأذكياء ، والفقراء يقلدون الأغنياء .

« بيد أن سنن الفطرة التي لا تغالب ، ونظام هذا الكون البديع الذي قلما اختل ، يعاقبان المعتدي على ما لا يعلم بما جنته يداه ، كما قيل في الأمثال الإفرنجية كل خطاء يحمل عقوبته فيه . وندر جداً في الناجحين من تيسر لهم الوصول إلى ما وصلوا إليه إلا باتخاذ الذرائع المنجحة ، ونسج حلل مجدهم بأيديهم .

رأينا كثيراً ولا سيما في مصر والشام التصقوا بالصحافة وأنفقوا ثرواتهم في سبيلها فلم ينجحوا ، ورجعوا بعد العناء الطويل وخسارة المال صفر الأيدي خائبين ، لأن مائدة العلم لا يجلس إليها طفيلي ، ولأن التمويه إن صعب في عمل فهو في الأعمال العلمية أصعب ...

« ولقد شاهدنا عياناً أن معظم الصحف التي كتب لها البقاء في هذين القطرين الشقيقين خاصة هي التي قام بأعبائها أناس متعلمون تخرجوا في الكتابة وتدربوا في السياسة وتذوقوا لماظة من العلوم التي لا يسع صاحب جريدة ومجلة جهلها . ومعظم من لم يخادنهم التوفيق أخفقوا لأسباب ناشئة من ضعفهم وقلة معارفهم في صناعة يلزمها ما يلزم لكل صانع من الأدوات إن لم نقل إنها تتوقف على أدوات أكثر . ولو كان قومنا يبالغون في انتقاء الرجال للأعمال ، لوضع في قانوننا بند يُلزم كل من تصدّر لمعاناة صناعة القلم ، أن يمتحن في الفن الذي يخوض عبابه ، كما يمتحن المتطببون والصيادلة ، فإنشاء الصحف إن لم يكن أحق بالعناية من معرفة الأمراض والعلل والعقاقير ، فلا أقل من أن يكون على مستواها ، فكم من جاهل قتل نفساً زكية ، ومن صحافي جرع قراءه السم الزعاف ، على حين ينتظر منه الترياق النافع » .

هذا ما قلناه ونزيد عليه أن الإخصاء أو الاختصاص العلة الأولى في نجاح الغرب في صحافته يجب أن يكون له في صحفنا المقام المحمود ، وفي اليوم الذي أصبحت فيه توسد في مصر أعمال الصحافة إلى أمثال هؤلاء من الحقوقيين والكتاب والسياسيين دخلت مصر في حياة جديدة ، وهذا قريب المنال على الشام التي كان لبعض أبنائها خدمة تشكر في تاريخ الآداب والصحافة . ومن أهم مجلاتنا التي تصدر في الشام « المشرق » « مجلة المجمع العلمي العربي » « المجلة الطبية » « مجلة المعهد الطبي » ومن المجلات المحتجبة « الرئيس » « الطبيب » « المقتبس » « الآثار » « الكلية » « الحارس » « الحدر » « المرأة الجديدة » ومن صحفنا اليومية « لسان الحال » « الأحرار » « القبس » « ألف باء » « فتى العرب » « الرأي العام » « البلاغ » « الاستقلال » « الجوائب » « فلسطين » « العهد الجديد » « البرق » « الأحوال » « النهار » « النضال » « الكفاح » « الأيام » إلى ما هنالك من جرائد أسبوعية ومنها الجدي والهزلي المصوّر وغير ذلك .

وبعد فالواجب على الصحافي قبل كل شيء أن يحسن الكتابة العربية كأحسن منشئيها ، وأن يكون قادراً على النقل والاحتذاء من أفكار الغربيين ، أي عارفاً بلغة أو لغتين من لغات السياسة والعلم ، وأن يكون ممن عانى البحث ملماً بالقوانين الدينية والزمنية وتاريخ الأمة ولا سيما تاريخ هذا القطر عارفاً الاقتصاد والاجتماع وحياة الأمم وتاريخها وثوراتها ونهضاتها ونقاباتها وألوان أحزابها وأوضاعها كل هذه المسائل أقل ما يجب للصحافي المشاركة التامة فيه . أما المباحث المالية والزراعة والتجارة والفنون والأدب والشعر والآثار والتاريخ وغيرها مما يجعل من الصحيفة مدرسة تامة الأدوات لإنارة الأفكار وبث الصحيح منها ، فيجب أن يوكل شأنها لأهل الإخصاء من العارفين بها . وبذلك يصح أن يقال إن لنا صحافة راقية ، وما دامت الصحيفة الواحدة ينشئها واحد أو اثنان أو ثلاثة على الأكثر ، تضطر الصحف إلى أن تكون ناقلة ضعيفة في مادتها وأخبارها وأفكارها وإذا زاد عليها خدمة غرض سياسي لا يحسن صاحبها التصرف فيه ، فهناك البلاء الذي يحول دون الرقيّ .

الطباعة والكتب :

لم يصل إلينا فن الطباعة الحديث أفضل اختراع تم في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد ، إلا في القرن السابع عشر ، ومن أوائل الكتب العربية التي طبعت في رومية في القرن الخامس عشر الإنجيل الشريف وقانون ابن سينا ، وقام بتأسيس مطبعة في الشوير من لبنان عبد الله زاخر الراهب الماروني سنة(١١٤٥) وطبعت هذه المطبعة ٣٤ مؤلفاً خلال ستين سنة وأكثرها ديني وهي مطبعة يدوية على الحجر ، وقد طبعت مطبعة الشوير المزامير سنة (١٦١٠م) ، ودخلت الطباعة الاستانة سنة(١١٣٥هـ) وأول مطبعة أُنشئت في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس في أواسط القرن الثامن عشر . بل إن فن الطباعة بهذه الحروف المتعارفة لم تثبت قدمه إلا بمجيء الإرساليات والرهبنات الدينية من الغربيين ، وإلى اليوم لا تزال المطبعتان العظيمتان في بيروت بل في الشام كله هما لتلك الجمعيات (الأميركانية أُسست سنة ١٨٣٤م واليسوعية ١٨٤٨م) التي كان الغرض الأول منها نشر الكتب المقدسة والدعاية إلى إنجيل المسيح في هذا الشرق

القريب بين أبناء العرب ، ثم خدمة التهذيب والثقافة الإنكليزية والفرنسية وبعد ذلك تعليم شيء من العربية . والكتب العلمية الحديثة التي ظهرت في هذه المطابع باللغة العربية شاهد عدل على أنه لا يتأتى نشر المبدإ الذي يريدونه قبل أن يخدموا القطر بلغته.

ربما بلغ عدد المطابع في الشام ثمانين مطبعة من أهمها المطبعة الأدبية في بيروت ، وقلّ جداً فيها المطابع التي طبعت الكتب النافعة ولاحظت نفع جمهور الناس قبل منفعتها الخاصة . طبعت قصصاً معربة وأشعاراً ودواوين قديمة وحديثة وكتباً دينية ورسائل علمية في المعارف العامة وقليلاً من كتب العرب التي لا يزال ألوف منها محفوظاً في خزائننا وخزائن الغرب مما يقبل الغريب على طبعه ويجود العناية به من حيث التصحيح والتعليق . ونحن قلما كتب لمطابعنا أن تتأسى بهم وتتعلم منهم . ولولا ألوف من كتبنا طبعت في مصر والإستانة والهند وأوربا لما وجدنا بين أيدينا من تركة السلف الصالح ما فيه الغناء في العلوم والآداب القديمة ، ذلك لأن بعض من يرجى منهم خدمة الطباعة بنشر الكتب النافعة لا يجدون من يطبع لهم ما يريدون إحياءه من كتب القدماء ، أو ما يؤلفونه هم على النمط الحديث ، لأن الطابعين ينظرون إلى أرباحهم أولاً ، وأرباحهم موقوفة على كثرة ما ينصرف من مطبوعاتهم ، والجمهور بالطبع كما هو في كل بلد لا يقبل على الجد إقباله على الهزل ، ولا يقدر أن المنفعة له في الصعب قبل السهل ، وأكبر الظن أن كثيراً من أرباب المطابع هم من العامة أو يقربون منهم في الفكر والتعلم.

ولقد شاهدنا أناساً من الغُيُر على العلم طبعوا مصنفاتهم بأنفسهم فافتقروا إذ لم يعرفوا تصريفها ، والمؤلف غير التاجر ، ثم هم لم يجدوا في الأغنياء والحكومات من يناصرهم ولو بابتياع نسخ معدودة من كتبهم . ورأينا أناساً طبعوا كتباً سخيفة من تأليفهم فروّجوها هم أو أحبابهم بالتجبية والقحة فدرّت عليهم أرباحاً لا يستهان بها . فلا عجب إذا أصبح الطابعون والمصنفون يهتمون لمنافعهم الخاصة ولو كان في الطابعين من يخاطرون بطبع كتب العلم والأدب التي لها قراء مخصوصون لزاد عدد الراغبين في المسائل الجدية أكثر من الآن ولارتفع ميزان العقل أكثر مما ارتفع .

نعم لم يطبع كثير من الكتب الخالدة سواء كانت للمعاصرين أو لمن قبلهم في عهد ارتقاء العلم في العرب ، وقل أن طبع كتاب بذاك الإتقان الذي تطبع

به الكتب في أرض المدنية اللهم إلا في بضع مطابع لا يهتم أهلها ربحت أم خسرت لأنها لجماعات لا لأفراد . وما عدا عشرات من الكتب التي طبعها في بيروت خاصة علماء المشرقيات أو من أخذوا عنهم طرائقهم في الطبع والنشر.لم يكد يطبع في سائر مدن الشام كتاب يعد نموذجاً في إتقانه ووضعه وتأليفه . وغاية ما نشروه كتب قصص وكتب مدارس ابتدائية أو أشعار أُناس تهجموا على التأليف تهجماً . ولما يستعدوا له الاستعداد الكافي ، ولم يجوّدوا مصنفاتهم بإنضاجها بالبحث والتنقيب ، وإيراد الطريف من المباحث .

فالشام مقصر في هذا الشأن من وجوه كثيرة . ولولا مئات من المجلدات خلفها لنا أجدادنا ، وما زالت تطبعها مطبعة ليدن في هولاندة منذ أكثر من ثلاثة قرون بمعرفة أفاضل علماء المشرقيات في الغرب ، ولولا ما طبعته جمعيات المستشرقين في ممالك أوربا وأميركا لفاتنا الوقوف على أمور كثيرة في مدنية العرب وتاريخهم ، وإلى اليوم لم تبلغ مصر على كثرة ما يطبع فيها من الكتب ، وبعضها باتقان زائد في الطبع ، كمطبوعات المطبعة الأميرية ودار الكتب المصرية ومطبعة جمعية التأليف والترجمة والنشر مبلغ مطبعة ليدن وليبسيك في الإجادة ، ولا سيما في الفهارس والشروح والهوامش والأمانة في النقل الذي أصبحوا بـه قدوتنا وعنهم يجب أخذه

تأملنا ملياً فيما تصدره المطابع من الكتب فرأيناها مصنفات هوائية موقتة إلا قليلاً ، تخدم فكراً خاصاً ولا يتوقع منها إلا الشهرة على الأغلب لا عموم الفائدة . ومعظم من يعدونهم من المؤلفين هم في الحقيقة مترجمون ، ومنهم من لا يجيد الترجمة . وكم من تأليف نظرت فيه فانقبضت نفسك مما في تضاعيفه من ضعف التأليف ورداءة الطبع . ومع هذا كان الناس يؤلفون على عهد النهضة الأدبية الأولى أي في أواخر القرن الماضي أكثر من اليوم ، ولقد تسربت روح التفرنج إلى طائفة ممن تلقنوا اللغات الأجنبية ، وغدوا لا يهتمون إلا بالأخذ من كتب اللغة التي يحسنونها من لغات الغرب ،وفي الغالب تكون الفرنسية أو الإنكليزية وقلما رأينا رجلاً كفوءاً من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير كتب الإفرنج أن نقل . لمن حرموا معرفة اللغات الغربية من بني قومه . موضوعاً نافعاً لهم في اجتماعهم وصناعتهم وتمدنهم ، لأن الأثرة زادت بزيادة المدنية .

وقد زاد في رداءة التآليف المطبوعة كون المؤلفين ، ومنهم الوسط في علمه وتأليفه ، يخافون نقد الناقدين عليها ، وكون بعض الصحف والمجلات تصانع في الأكثر هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم موضع المؤلفين ، وتدهن دهاناً عجيباً لمن كان من أهل دين صاحب الجريدة والمجلة أو على مشربه السياسي !. أو يكون ممن يتوقع منه أن يكتب له ذات يوم مقالة أو يعاونه أدنى معاونة مادية. ولذلك استشرى الفساد وظن كل من طبع شيئاً أنه خدم الأمة خدمة صالحة . والنقد الذي هو من أهم الذرائع في السير نحو الكمال إلى بحابح المدنية مما لا يؤبه له ، وربما تعرض صاحبه لمقت هؤلاء الطابعين والمؤلفين . قسم السيد أسعد داغر من يعرضون في سوق الأدب بضاعتهم من ترجمة وتأليف وتصنيف إلى فريقين فريق المحترفين وفريق الهواة ، فالمحترفون هم الذين يعملون بالقلم ليتقوا شر المتربة ، ويعيشوا من شق تلك القصبة ، والهواة هم الذين يشتغلون بالعلم والأدب لأن لهم فيهما حفاوة صحيحة مجردة عن المآرب ، ورغبة حقيقية منزهة عن حب الأرباح والمكاسب ، ومعظم هؤلاء هواة كانوا أم محترفين يشق عليهم أن تنقد كتبهم ومؤلفاتهم وينظرون إلى الانتقاد والمنتقد بعين الشانئ الكاشح .

ليس في كل ما طبعته المطابع الشامية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهو عصر النهضة عندنا ، سوى كتب قليلة تستحق العناية وتستوقف القارئ للأخذ منها مثل كتب محمد عابدين ، أحمد فارس ، فانديك ، ورتبات ، پوست ، پورتر ، لامنس ، شيخو ، مشاقة ، إبراهيم اليازجي ، إبراهيم الحوراني ، طاهر الجزائري ، عبد الرحمن الكواكبي ، سعيد الشرتوني جمال الدين القاسمي ، رفيق العظم ، شبلي شميل ، شكيب أرسلان ، نجيب الحداد ، يعقوب صروف ، عيسى المعلوف ، إسعاف النشاشيبي ، إبراهيم الأحدب ، يوسف الأسير ، بطرس وسليمان وعبد الله البستاني ، أحمد حمدي الخياط ، مرشد خاطر ، جميل الخاني ، شفيق جبري ، سليم الجندي ، خليل مردم بك ، أمين الريحاني ، خليل سعادة وأضرابهم ممن أبرزوا تآليف منقحة ، وفي بعضها إبداع وإيجاد ، وذلك لأنهم هضموا العلوم التي عُرفوا بها ، وجاءوا بالجديد ، وفيها أفكار علمية أو مدنية أو دينية صحيحة .

الفنون الجميلة

تعريف الفنون الجميلة :

الفنون الجميلة أو الصنائع النفيسة ، وأسماها بعضهم نواضر الفنون وقيل إن العرب أطلقوا عليها اسم « الآداب الرفيعة » هي الصنائع التي من شأنها إدخال السرور بجمالها وجلالها على النفوس البشرية،وتربي ملكة الذوق والشعور، وهي سبعة أقسام : الموسيقى، الغناء،التصوير، النقش ، البناء ، الشعروالفصاحة، الرقص . وأرجعها بعضهم إلى ثلاثة فروع فقط : التصوير والشعر والموسيقى .

ولقد كان لهذه الديار حظ كبير من هذه الفنون بقدر ما ساعدتها بقعتها وطاقتها ، وربما تم فيها أشياء لم تصلنا أخبارها ، أما الدول التي تعاقبت على الشام بعد الإسلام ، فإن ما وصلنا من أنباء هذه الفنون فيها قد تعرّض له كاتبوه بالعرض كأن يكون المشتغل بالموسيقى أو التصوير مثلاً ذا مشاركة في فنون أُخرى من أدب وشعر ، وطب وفلك ، وحديث وفقه ، أو أن القوم دوّنوا عامة سير الموسيقيين والمغنين والمصورين والنقاشين مثلاً فضاع ما دونوه في جملة ما ضاع من أخبار حضارتنا .

الموسيقى والغناء :

نشأت الموسيقى مع البشر ولازمتهم في جميع ما عرف من أدوارهم في حياتهم الخاصة والعامة ، وفي مظاهر سلمهم وحربهم ، وسعادتهم وشقائهم ، وأفراحهم وأتراحهم،وسفرهم وحضرهم ، وتعبهم وراحتهم ، ودينهم ودنياهم والمرء من طبعه أن لا يستغني عن رفع صوته ، ليطرب نفسه وجليسه ، وقلبه

يصبو بالفطرة إلى سماع أوتار تهزه وتطربه . فالموسيقى تجمع الحواس وتنشط لها النفوس ، وبها يجسر الجبان ، ويعطف اللئيم ، ويرقّ الكثيف ، ويلين القاسي ويقوى الضعيف ، ويكف الظالم ، ويعتدل المائل ، فهي مدعاة السرور ، مجلبة الطرب ، مسلاة الحزين ، مفرّجة الكروب ، مهوّنة الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الأخلاق القومية ، مصورة الانفعالات النفسية ، أصدق عامل على التحمس ، أقوى دافع إلى النهوض والتحسس ، معلمة أنفع الدروس الشريفة مذكرة بالمطالب العالية ، فيها يتجلى العقل البشري بإشارات وحركات ، تعمل عملها في الأفئدة والوجدانات .

ولقد ثبت أن العنصر السامي من أكثر العناصر ولوعاً بالطرب والخيال ، وقيل : إن الحثيين من أقدم شعوب الشام كانوا أقل عناية بالموسيقى والغناء من جيرانهم البابليين والأشوريين والآراميين . ومع هذا كان لهم من الغناء ما ابتدعوه بفطرتهم ، ومنه ما أخذوه من مجاوريهم . وكان الآراميون مولعين بالغناء والضرب بالإيقاع على آلات لهم يبوّقون بها ويزمرون ، ويُطرّبون بها فيَطرَبون ، وهي بالطبع على حالة ابتدائية على مثال الشعوب التي سبقتهم إلى سكنى هذا القطر . ومثل هذا يقال في الفينيقيين الذين اقتبسوا مدنية الفراعنة ، وهم من أصل سامي ، فإنهم كانوا يعرفون الموسيقى ، ومنها ما نقلوه عن المصريين لتمازج مدنية السلائل المصرية بمدنية فينيقية الصغيرة ، وإذ كان للمصريين عناية فائقة في معابدهم بالموسيقى على ما ظهر من تماثيلهم التي مثلت بها الضاربين والمغنين ، تعلم جيرانهم أهل فينيقية بعض هذه العناية ، ولكن على طريقة الاحتذاء لا إبداع فيها ، ويقال ذلك في الكنعانيين والإسرائيليين فقد أولعوا بها وظهرت آثارها في معابدهم وبيعهم ، وأمام أربابهم ومعبوداتهم ، وفي حروبهم وغاراتهم وأعيادهم ومآتمهم واجتماعاتهم ، على ما فهم من نصوص التوراة . ومزامير داود مشهورة مذكورة ، والآلات التي اشتهرت عند الشعوب القديمة وعانت استعمالها ، ترجع في الأكثر إلى شبابة وبوق وصنج وطبل ودف .

ولقد دلت بعض النقوش التي عثر عليها في وادي موسى وجرش وتدمر أن العمالقة والنبط والعرب لم يكونوا أقل من الشعوب التي سبقتهم إلى نزول هذه الديار ولوعاً بالتلحين والإيقاع والضرب على القيثار والنفخ بالمزمار ، وقد

نقل اليونان والرومان إلى هذا القطر موسيقاهم وأصول غنائهم على الأرجح كما نقلوا أربابهم ، واقتبسوا أرباباً مع أربابهم ، وإذ طال عهد دولتيهم كثيراً تأصلت موسيقاهم ، وثبتت مصطلحاتهم ، وربما نقلوا بعض مصطلح الأمة التي حكموا عليها في غنائها وموسيقاها . ولما انتشرت النصرانية في الشام في القرن الثالث للميلاد عُني منتحلوها بالموسيقى في كنائسهم عناية اليهود بها من قبل في بِيَعهم ، وإذ اقتبست النصرانية كثيراً من عادات الروم ومصطلحاتهم لم تقصر في اقتباس الموسيقى والتلحين والغناء لثبوت فوائدها الروحية .

ولما جلت بعض القبائل العربية إلى الشام يوم سيل العرم وقبله وبعده ، حملت معها ما ألفت أن تفزع إليه من اللحون ، وتضرب عليه من الآلات ، حتى إذا كان الإسلام ، وكانت مدنية الفاتحين إلى السذاجة والفطرة ، وكان غناؤهم لا يتعدى الحداء والإنشاد يوم الغارة والحَفْل ، وفي ظل الخيام والآطام، أخذت موسيقاهم تقتبس من الموسيقى الشامية الرومية كما تقتبس من الموسيقى الفارسية. وقال بعض العارفين : كان اقتباسها من الموسيقى الفارسية فقط . وزعم بعضهم أن أخذها كان من الرومية أكثر . ولا يعقل أن يتأخر العرب في نقل الموسيقى إلى القرن الأول للهجرة واستعدادهم لها كاستعدادهم لغيرها من الفنون ، ولهم من فطرتهم ومناخ أرضهم أعظم دافع للولوع بها، وهم المعروفون بحب الارتحال وكانت لهم صلات مع جيرانهم من الأمم الأخرى منذ الزمن الأطول « ولم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب » .

ومع هذا فنحن مضطرون أن نشايع القائلين بأن أول من غنى هذا الغناء العربي بمكة ابن مسجح ، نقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم كثر الموالي من الفرس فكانوا يتعلمون في مكة والمدينة ، ومنها ينتقلون إلى الشام والعراق ومصر وغيرها من الأصقاع التي استظلت براية الإسلام . وفي الأغاني أن سعيد ابن مسجح أبو عثمان مولى بني جُمح وقيل إنه مولى بني نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، مكي أسود مغنٍ متقدم ، من فحول المغنين وأكابرهم ، هو أول من وضع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام ، وأخذ ألحان الروم .

وقيل : إن أول من أخرج الغناء العربي جرادة ، جارية ابن جدعان وفيه نظر

فإن الغناء معهود من عهد عاد، حتّى كان من جملة مغنياتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال غنته الجرادتان. وكان النضر بن الحارث بن كَلَدة أول من ضرب على العود أخذه عن الفرس وعلمه أهل مكة فانتشر في الحجاز وكان يتغنى أيضاً .

وفي القصة التي ساقها صاحب الأغاني في الدعوة التي دعي إليها حسان بن ثابت في آل نُبيط وقد أتوا بجاريتين إحداهما رائقة والأخرى عزة فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً وغنتا بقول حسان :

انظر خليلي بباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد

ورواية حسان نفسه أنه كان في الجاهلية مع جبلة بن الأيهم ، وقد رأى عنده عشر قيان : خمس يغنين بالرومية بالبرابط (الأعواد) وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، أهداهن إليه إياس بن قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . في ذلك كله إشارة إلى أن الغناء العربي في الشام أقدم من الإسلام .

موسيقى كل أمة ملازمة لها كروحها ، وهي مظهر من مظاهر حياتها ، فلا يعقل أن تخلو أمة من روح حتى تجيء أمة أخرى فتقبسها روحها . ولكن الأمة إذا اختلطت بأخرى ، وكان عند الثانية فضل على الأولى في شيء ، وفي الثانية طبيعة الاقتباس ومرونة على الاحتذاء والتشبه ، قد تحمل الأولى إلى الثانية ما ينمي فيها ذاك الروح فتعدله على أسلوبها ومناحيها .

ولقد زعم بعضهم أن الإسلام لم يُحِلّ الموسيقى محلها اللائق بها، وادعى بعضهم أنه حرمها ، فكان الحظر أسهل من الإطلاق في نظرهم ، بيد أن الإسلام وهو دين الفطرة لا يخرج عن حد قيود العقل ، إلا أنه لا يقول بالإفراط في شيء حتى ولا بالعبادة ، لأنه يكون قد دعا إذ ذاك إلى البطالة واللهو ، وهما مخالفان للشرع ، وبذلك تكون الموسيقى وبالاً على من يأخذ نفسه بها ، ومصيبة على من ينصرف إلى سماعها ، ولو صح ما قالوا فلماذا رأينا جِلّة من الصحابة والتابعين لحنوا وتغنوا، وسمعوا الألحان وطربوا لها ، ولو لم يجزها الشارع الأعظم في أوقات معينة وحوادث وقعت ، هل كان يجرأ أحد من أصحابه ومن بعدهم على الجلوس في مجالس الطرب ، والدين غض والعهد بصاحبه غير بعيد ، قال عبد الله بن قيس : كنت فيمن يلقى عمر مع أبي عبيدة مَقْدَمَهُ الشام ، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلّسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال عمر :

امنعوهم فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين هذه سنتهم ، أو كلمة نحوها ، وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم فقال : دعوهم . والتقليس الضرب بالدف والغناء واستقبال الولاة عند قدومهم المصر بأصناف اللهو . وقيل المقلس هو الذي يلبس القالس أو القلنسوة وهي أشبه بقبعات الروم .

ولما استقر الملك لأمية في الشام ودخلت الحضارة كان في جملة ما دخل إليه الغناء على صورة لا خنا فيها ولا تبذل ، ولقد روى المبرّد أن معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه ، فلما أصبح قال ليزيد : من كان مُلهيك البارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر ، قال : إذاً فأَخثر له من العطاء .وقالوا : إنمعاوية قال لما دخل على ابن جعفر يعوده فوجده مُفيقاً وعنده جارية وفي حجرها عود: ما هذا يا ابن جعفر؟ فقال: هذه جارية أروّيها رقيق الشعر فتزيده حسناً بحسن نغمتها قال : فلتقل ، فحركت عودها وغنت وكان معاوية قد خضب .

ألیس عندك شكر للذي جعلت ما ابيض من قادمات الريش كالحمم
وجددت منك ماقد كان أخلقه ريب الزمان وصرف الدهر والقدم

فحرك معاوية رجله فقال له ابن جعفر : لم حركت رجلك يا أمير المؤمنين قال : كل كريم طروب .

ورأينا بعض خلفاء بني أُمية في دمشق وأُمراءهم وساداتهم ، يضعون ألحاناً ويسمعون الغناء ويولعون بالموسيقى ، ويجيزون أربابها ويواسونهم من غير نكير : ومنهم عمر بن عبد العزيز ، وناهيك به من كامل ، في جميع الفضائل . فقد دوّنت له صنعة في الغناء أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها ، وكان أحسن خلق الله صوتاً . قال أبو الفرج : وأما الألحان التي صنعها فهي محكمة لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة وحذق في الغناء . وممن صنع في شعره غناءً يزيد بن عبد الملك الأموي وممن غنى وله أصوات صنعها مشهور وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز ، الوليد بن يزيد . وقد ذكروا أنه كان للخلفاء من بني العباس غناءٌ ، ومنهم من كان يضرب بالعود ، ومن خلفاء العباسيين السفاح والمنصور والواثق وابن المعتز والمعتضد وكثير غيرهم من أبناء الخلفاء ، دع سائر الطبقات من أهل

الرفاهية والسعة ، ممن كانوا في كل زمان ينشطون إلى سماع الأغاني ، ويبرون الرجال والنساء من أرباب الموسيقى والغناء ، ويغالون بابتياع الجواري اللائي حذقن الغناء ، وبرعن في الموسيقى وشسون شيئاً من الأدب .

وكانت تغلو في العادة قيمة مثل هذه الطبقة من الجواري . والسواذج منهن أي غير المثقفات دون من عُني أولياؤهن بثقافتهن في الرتبة والقيمة مهما بلغ من جمالهن ، والموسيقى والشعر في مقدمة ما كان يطلب منهن . وذكر المسعودي أن كثيراً من الجواري اشتهرن بالغناء بالمدينة ، وكان يقصدهن بعض الناس من بغداد ، وربما وافى الواحدة وجوه أهل المدينة من قريش والأنصار وغيرهما ، ومنهن القارئة القوّالة ، ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة . وكان لبعض الموسيقيين والموسيقيات والمغنين والمغنيات من أرباب النباهة والفضل ، يد في إصلاح بعض الأحوال وتخفيف النوازل عند العظماء ، ولطالما ارتجلوا ألحاناً وأبياتاً ظاهرها طرب وغرام وسلوى ، وباطنها وعظ وعبرة وتعريض ، ذلك لأن الموسيقى عندهم كانت على الأغلب مرافقة للشعر والأدب ، وكم من شاعر تدفقت الحكمة على قلبه ، وجاش بها صدره ، فهذّب نفساً بل نفوساً بأبيات يقولها .

جاء أبو النصر الفارابي الفيلسوف إلى الشام على عهد سيف الدولة بن حمدان فأدهشه ومن عنده من الموسيقيين على إتقانهم لها ، وأقام في دمشق ومات فيها ، قال ابن أبي أصيبعة : إن الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها إلى غاياتها ، وأتقنها إتقاناً لا مزيد عليه ، وإنه صنع آلة غريبة يسمع عنها ألحاناً بديعة ، يحرّك بها الانفعالات ، ويحكى أن القانون الذي كان يضرب عليه للطرب هو من وضعه ، وأنه كان أول من ركّب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم . وقد ذكر المؤرخون من تنافس سيف الدولة بن حمدان مع الوزير المهلبي للاستئثار بمغنية أديبة مشهورة اسمها الجيداءُ ما يدلّ على ولوع القوم بالموسيقى ، وكان لجيداءَ في مجالس سيف الدولة من ارتجال الألحان والأدب البارع ما اشتهر أمره ، وفي عصره اشتهرت في انطاكية المغنية المشهورة « بنت يُحنا » .

ولم تبرح الشام تخرج من رجال الموسيقى والغناء رجالاً كانوا بهجة

عصورهم ، ومنهم أبو المجد بن أبي الحكم من الحكماء المشهورين من أهل القرن السادس ، كان يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ، ويجيد الإيقاع والغناء والزمر وسائر الآلات ، عمل أرغناً وبالغ في إتقانه[١] وحاول أيضاً عمل الأرغن واللعب به أبو زكريا يحيى البياسي من أطباء الناصر صلاح الدين .

وكان من البارعين في هذا الفن من العلماء قسطا بن لوقا البعلبكي وعبد المؤمن بن فاخر ونجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة وفخر الدين الساعاتي . وكان رشيد الدين بن خليفة أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود ، وأطيبهم صوتاً ونغمة حتى إنه شوهد من تأثير الأنفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبي نصر الفارابي ، فكثر إعجاب المعظم به جداً وحَظِيَ عنده . ومنهم علم الدين قيصر أخذ الموسيقى عن الفيلسوف كمال الدين بن يونس في الموصل .

وكان أحمد بن صدقة طُنبورياً مقدماً حاذقاً حسن الغناء ومحكم الصنعة ، وكان ينزل في الشام فاستدعاه المتوكل إلى بغداد وأجزل صلته . وكان خلفاء بني العباس كلما سمعوا بنابغة في هذا الفن حملوه من القاصية وأغدقوا عليه الهبات ذكراً كان أم أنثى ، ولهم في ذلك نوادر إن لم تصحّ كلها ففي بعضها إشارة إلى ما كانوا فيه من حب هذا الفنّ .

ومنهم الجمال البستي كان يلعب بالجغانة (الأصل الصغانة وهي القيثارة) ولي خطابة جامع التوبة بدمشق على عهد الملك الأشرف ، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ وكان يتهم باستعمال الشراب ، وصاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين إسماعيل . فكتب إليه عبد الرحيم المعروف بابن زويتينية الرحبي أبياتاً ، يعرّض بها بالرجلين ويرجو أن يعاد جامع التوبة إلى ما كان عليه محله من قبل ، وهو خان للفسق والفجور ، لأن حظه حتى بعد أن صار جامعاً أن يتولاه موسيقار ، وشرّيب عقار ، فقال :

---

(١) الأرغانون آلة لليونانيين والروم تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها إلى بعض ، ويركب على رأس الزق الأوسط زق كبير ثم يركب على هذا الزق أنابيب صفر لها قصب على نسب معلومة ، يخرج منها أصوات طبيعية مطربة مشجية على ما يريد المستعمل (الخوارزمي) .

يا مليكاً أوضح الحقّ لدينا وأبانَه
جامع التوبة قد قلّدني منه أمانه
قال قل للملك الصالح أعلى الله شانه
يا عماد الدين يا من حمد الناس زمانه
كم إلى كم أنا في ضرّ وبؤس وإهانه
لي خطيب واسطيٌّ بعشق الشرب ديانه
والذي قد كان من قبلُ يغني بجغانه
فكما نحن فما زلنا ولا أبرح حانه
ردّني للنمط الأوّل واستبق ضمانه

وكان محمد بن علي الدهان المتوفى سنة ٧٣١ شاعراً موسيقياً ملحناً قانونياً دهاناً ، وكان الكمال القانوني من المشهورين في عصره بقانونه ، وصفه عبد الرحمن بن المسجف (٦٣٥) الدمشقي فقال :

لو كنت عاينت الكمال وجسّه أوتار قانون له في المجلس
لرأيت مفتاح السرور بكفه اليسرى وفي اليمنى حياة الأنفس

وذكر ابن حجر في أخبار سنة(٧٧٩) أن دنيا بنت الاقباعي المغنية الدمشقية اشتهرت بالتقدم في صناعتها ، فاستدعاها الناصر حسن على البريد إلى مصر فأكرمها ، ثم وفدت على الأشرف فحظيت عنده ، وهي كانت من أعظم الأسباب في إسقاط مكس المغاني ، سألت السلطان في ذلك فأجابها إليه ، واستمر إبطاله في الدولة . واشتهرت في القرن الثامن بدمشق فرحة بنت المخايلة المغنية كما اشتهرت المغنية المعروفة بالحضرمية وهي التي كانت مع عرب آل مِرا يوم وافوا دمشق لحرب التتر في زهاء أربعة آلاف فارس ، فكانت تغنيهم من الهودج سافرة وكانوا يرقصون بتراقص المهاري وتقول :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ليالي لاقينا جُذاماً وحِميرا
ولما لقينا عصبــة تغلبية يقودون جُرداً للمنية ضمّرا

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثله ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

ومنذ الزمن الأطول إلى أيامنا ما خلت الشام من عوادة وطنبورية وكراعة وربابية وصناجة ورقاصة وزفانة . ولم يخل عصر بعد زهو الشام على عهد الأمويين والعباسيين ومن بعدهم من المماليك وغيرهم من مبرزين في الغناء والموسيقى . واشتهر في دمشق بضرب القانون وكان أستاذاً فيه أحمد التلعفري (٨١٣) كان كاتب المنسوب . ومن النابهين ابن القاطر الدمشقي من أهل القرن الحادي عشر كانت له شهرة عند أرباب هذا الفن فإذا حضروا معه مجلساً عظّموه وتراخوا في العمل حتّى يشير إليهم ، ذكر ذلك المحبي وترجم له ولرجب بن علوان الحموي وقال : إن هذا كان يعرف الموسيقى على اختلاف أنواعها وهو أعرف من أدركه وسمع به . وله أغانٍ صنعها على طريقة أساتذة هذا الفن . ومنهم برسلوم الحلبي رئيس أطباء الدولة العثمانية ونديم السلطان محمد بن إبراهيم كان حسن الصوت عارفاً بالموسيقى . واشتهرت أسرة بني فرفور في القرنين الماضيين بدمشق بالشعر والآداب وقد أخرجت رجلين من أبنائها عارفين بالموسيقى وهما جمال الدين وعبد الرحمن .

وفي تراجم أهل الغناء الذي كتبه الكنجي المتوفى سنة ١١٥٠ﻫ ترجمة ستة وعشرين مغنياً من معاصريه في دمشق وفيهم المؤذن والمنشد في الأذكار والمغني على الآلات الموسيقية ، مما يدل على الإقبال على الموسيقى حتّى في أعصر الظلمات فإذا كانوا في عصره على هذا القدر في دمشق فقط فكم كان في حلب وغيرها من المدن ، وحلب مشهورة من القديم بغرام أبنائها بالموسيقى منذ عهد سيف الدولة بن حمدان ، دع الموسيقيات والمغنيات ممن غفل المؤرخون عن ذكرهم أمثال علوة محبوبة البحتري في حلب التي ذكرها كثيراً في شعره الخالد .

ومن الموسيقيين من كانوا يمارسون الموسيقى للتكسب وهم المحترفون . ومنهم من كان يخدم هذا الفن المهمّ حباً به وهم الهواة ، ومن هؤلاء طبقة من الرجال والنساء لا يُستهان بها ولكنها كانت ولا زالت متكتمة ، ومنهم من تستعمل من الموسيقى أو تسمع منها ما لا يعبث بوقارها إن كانت من أرباب

المظاهر الدينية أو الدنيوية مخافة أن ترمى بما يثلم الشرف ، لأن بعض الفقهاء شددوا على الغناء والموسيقى ، وكان بعضهم يعد ساقطاً من العدالة كل من يغني بأجرة من الموسيقيين والمغنين ، ويتسامحون مع من يغني في جماعة من أصحابه ، ويعدون الغناء فناً يفقر صاحبه ، وجاء في الأمة مثل شيخ الإسلام عبد العزيز ابن عبد السلام (٦٦٠) وكان على نسكه وورعه يحضر السماع ويرقص ويتواجد والناس تقول في المثل « ما أنت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام » . وصناعة الغناء كما قال ابن خلدون : آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية ، وأول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه .

ولقد أدركنا وأدرك أجدادنا أن الشام كلها كانت لا تخلو معظم طبقاتها من موسيقيين ، وكل مجلس من مجالسهم أو سهرة من سهراتهم ، أو نزهة من نزهاتهم ، كانت تضم أناساً أتقنوا هذا الفن حتى صار لهم ملكة ، فكان السرور يملأ القصور والدور ، والموسيقى والإنشاد من الأمور المألوفة لا يُستغنى عنها بحال ، أما في القرى والبوادي فكان لهم الغناء والحداء ، وضرب الرباب والقيثارة والمزمار والدف والكوبة ، أي أن لهم ما يطرب آذانهم وترتاح إليه أرواحهم وتسهل معاناته وممارسته ، ومن مشاهير الموسيقيين في النصف الأول من القرن الماضي محمد السوُّالاتي الدمشقي أخذ عنه أرباب الموسيقى في عصره من المصريين والشاميين ذكره في سفينة الملك .

ومن أهل المظاهر الذين عُرفوا بالموسيقى في أوائل هذا القرن الشيخ أبو الهدى الصيادي من حلب وعبد الرزاق البيطار من دمشق وكانا من أساتذة هذا الفن الجليل ، ومنهم من عُنوا بالموسيقى فبرزوا فيها من أبناء هذه الديار مثل محمود الكحال . أحمد السفرجلاني . علي حبيب . عمر الجراح . عبد القادر الحفني . محيي الدين كرد علي . سامي الشوا . رحمون الحلبي . توفيق الصباغ . علي الدرويش . باسيل الحجار . محمد الشاويش . نجيب زين الدين . مصطفى سليمان بك. شفيق شبيب . محمد علي الأسطه . رضا الجوخدار . مصطفى الصواف حمدي ملص . رجب خلقي . يوسف الزركلي . محمد الأنصاري ، محمد محمود الأتاسي . ميشل الله ويردي . مدحت الشربجي . اليكسي بطرس . اليان نعمة . إسكندر معلوف . بولس صلبان . نصوح الكيلاني . تحسين يوقلمه‌جي . عباد الحلو . طلعت شيخ الأرض . حسن التغلبي . جميل البربير ، أحمد التنير . أمين

النقيب . محيي الدين بعيون . وديع صبرا . عزت الصلاح . قسطندي الخوري . أحمد الشيخ . محمد الجراح . إبراهيم شامية . فريد الأطرش . وغيرهم ممن جعلوا الموسيقى حرفة أو للتسلية في خلواتهم ومنهم من كانوا صلة بين الموسيقى القديمة والموسيقى الجديدة . ومن المنشدات المطربات فريدة مخيش . رمزية. جمعة . خيرية السقا . نادرة . سارينا . فيروز . أسمهان الأطرش . ماري جبران . ماري عكاوي . لور دكاش .

ولقد أنبغت بيروت وحلب كثيرين من المغنين والغالب أن في هاتين المدينتين خاصية حسن الصوت . سألت صديقنا الشيخ كامل الغزي من أساتذة حلب عن المغنين والموسيقيين في بلده فكتب لي رسالة قال فيها :

إن حلب لا تخلو في أكثر أوقاتها من الشداة والمترنمين الذين يعدون بالمئات ويعرف عند الحلبيين من يأخذ على غنائه أجرة باسم ابن الفن ، ومن رجال أواسط القرن الماضي مصطفى يشبك ، فتح نادياً لممارسة الفنون الموسيقية دعاه بقاعة بيت مشمشان ، كان يختلف إليه في أوقات معينة كثير من المولعين بالموسيقى ليتلقوها عن أستاذها . وما زال الحلبيون يضربون المثل بالمكان الذي تتوفر فيه دواعي الطرب فيقولون : (ولا قاعة بيت مشمشان) . ومن رجال أواسط القرن الماضي عبد الله البويضاتي ومن رجال القرن الماضي وأوائل القرن الحالي محمد بن عبده . إسماعيل السيخ . جبرا الأكشر . آجق باش . طاهر النقش . محمد الوراق . الدرويش صالح قصير الذيل . محمد غزال . باسيل حجار . أحمد سالم. أحمد بن عقيل. وممن أخذ عن هذا بعض فصول الرقص المعروف بالسماح السيد أحمد أبو خليل القباني الممثل الموسيقار الدمشقي والسيد عبده الحمولي المطرب المصري وهما من المشاهير . ومن تلامذته امرأة قنصل إيطاليا في حلب كانت تقول إن السيد أحمد بن عقيل يقل نظيره في هذا الفن حتى في أوربا قال : ومن الأحياء في حلب عبده بن محمد عبده وشرف الدين المعري ومن قينات القرن الماضي وأوائل القرن الحالي الحاجة عائشة المسلمينية .

وقال : إن العود المعروف بالبربط لم يكن معروفاً في حلب في القرن الماضي حتى جاء حلب سنة (١٢٩٣هـ) رجل من أهل دمشق اسمه سعيد الشامي فأخذ

الناس عنه. ومن العازفين على الكمنجة أوائل هذا القرن شعيا الكمنجاتي وإسحاق عدس ونيقولاكي الحجار . ومن الأحياء سامي الشوا ووالده أنطون موسيقار أيضاً . والعازفون بالناي المعروف عند العرب باليراعة كان نابغة فيه أوائل القرن عبده زرزور وكل من في حلب اليوم خريجوه وتلاميذه اه . ومن الموسيقيين الحلبيين أيضاً عبد الكريم بلّة وحبيب العبديني وأحمد مكانس وعمر البطش ومصطفى طمرق توفوا في أوائل هذا القرن .

ولقد بدأت الموسيقى التركية تنازع الموسيقى العربية في أواخر القرن الماضي لأنها خُدمت أكثر من موسيقانا ، ثم جاءت الموسيقى الإفرنجية ، فأصبحت الموسيقى الشامية مزيجاً لا يقام له وزن ، لم يحتفظ بالقديم وهو من روحه وعاداته ولم يحسن اقتباس الجديد لأنه ليس من مصطلحه . ولا يفوتنا القول إن الموسيقى في العصور المتأخرة كان لها في أذكار بعض أرباب الطرق الصوفية مقام رفيع . ومنهم من أتبعها بالصنوج والأوتار ، ومنهم من شفعها برقص ، وقد قام منهم مبرزون في صنعتهم ، وماتت شهرتهم ، يوم سكنت نأمتهم ، والموسيقى في الكنائس على اختلاف الطوائف المسيحية وتباين العصور ، ما زالت شائعةمعتبرة وكم من موسيقار عندهم تقلبت به الحال حتى رقي بفضله إلى أرقى درجات الكهنوت .

التصوير :

أخذ الحثيون التصوير على الأغلب كما أخذوا النقش والبناء عن جيرانهم من البابليين والأشوريين ، وربما أخذوا عن المصريين أيضاً ، لكنهم لم يجودوه كل الإجادة على ما رأينا من تصاويرهم المكتشفة ، وخالفنا رأي بعض المشتغلين بآثارهم المعجبين بمدنيتهم ،فإن الآثار التي اكتشفت للحثيين في جرابلس تدل على مبلغ تلك الأمة من الإتقان في النقش والتصوير . وقد قال لنا الاستاذ هروزني التشكي وهو إخصائي بآثار الحثيين : إن عادياتهم مما يعجب منه ، ولا تقل بجمالها عن بقية آثار الأمم الأخرى ، وكذلك فعل الكنعانيون والفينيقيون والإسرائيليون ، أخذوا عن أشور وبابل ومصر هذا الفن ، ولم يعرف أنه كان لهم طرز خاص في التصوير ، وكانوا على ما ظهر دون من اقتبسوا عنهم . أما

التدمريون فأجادوا في تصويرهم وكانوا ينقشون على القبور صور من دفن فيها من الرجال والنساء ، مثل أهل جنوة في إيطاليا في العصور الأخيرة ، ومنها صورة جاريتين رآهما أوس بن ثعلبة التيمي في القرن الأول وقال فيهما أبياته المشهورة :

فتاتيْ أهل تَدمر خبراني ألمّـا تسأما طول المقام
قيامكما على غير الحشايا على جبل أصم من الرخام

وفي دار الآثار بدمشق مجموعة تماثيل من قبور تدمر كأنها تنطق ، ومنها صورة فتاة مزينة الرأس يستدل منها على صورة تصفيف الشعور في ذاك العصر ، وكيف كانت أزياء نساء تدمر وبهرجة رؤوسهن وأقراطهن وعصباتهن ، وفيما ظهر مؤخراً في مدينة تدمر من تماثيل صاحبتها زينب ووصيفاتها وفي غير ذلك من الشخوص دليل على تبريز التدمريين في هذا الشأن .

أما التصوير عند الروم واليونان في الشام فإن منه نموذجات تأخذ بمجامع القلوب قال الثعالبي : لم يبدع التصوير إبداع الروم والرومان أحد من الأمم ، فقد كان لهم إغراب في خرط التماثيل وإبداع في عمل النقوش والتصوير ، حتى إن مصورهم يصور الإنسان ولا يغادر شيئاً إلا الروح ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت ، وضحك الخجل ، وبين المتبسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ ، فيركب صورة في صورة ، وصورة في صورة .

والمصانع الشامية من العهد الروماني هي ذات أشكال معتادة في تلك الأعصر لها نقش ظاهر خاص بها من النقوش النباتية الكبيرة المنقولة عن نباتات القطر ولا سيما في فلسطين على عهد الملوك والقضاة ومنها ما يستعمل فيه صور الطيور . قال دوسو : إن في الكتابات التي وجدت في الصفا صورة فرسان مسلحين برماح طويلة على مثال بدو هذه الأيام ، وأحياناً تمثلهم وهم يطاردون غزالاً أو وعلاً أو يصطادون أسداً ، ومنهم الفرسان يحملون الرماح والمشاة مسلحون بالقوس والنشاب . ولقد غصت فلسطين على عهد الامبراطور قسطنطين بالمصانع التي تذكر بالحوادث الخطيرة التي وردت في الإنجيل وقد زينت هذه المصانع بالفصوص التي تمثل هذه المشاهد .

جاء الإسلام للقضاء على الوثنية وعبادة الأصنام ، فحاذر المسلمون إذا أجازوا الرسم المجسم أن يكون في عملهم مدرجة للعرب إلى الرجوع إلى عبادة الأصنام، فجعلوا في التجويز بعض القيود الخفيفة ، ولما ذهبت تلك الخشية أخذت مسألة التصوير تنحل شيئاً فشيئاً ويُعمد إلى ما فيه مصلحة منه . ذكر المقريزي أن الرسول عليه السلام أقر نقود العرب في الجاهلية التي كانت ترد إليهم من الممالك الأخرى والدنانير قيصرية من قبل الروم مصورة وأن عمر ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها وبأعيانها وضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلداً سيفاً .

ورأينا زيد بن خالد الصحابي استعمل السّتر الذي فيه صور ولم ينكر الناس عمله . قال صديقنا السيد محمد رشيد رضا في المنار : ومن الآثار في حكم التصوير وصنع الصور والتماثيل اتخاذ أحد أعاظم أئمة التابعين القاسم بن محمد ابن أبي بكر (رض) الحجلة التي فيها تصاوير القندس والعنقاء ، وهو ربيب عمته عائشة الصديقة وأعلم الناس بحديثها وفقهها ، ومنها استعمال يسار بن نمير مولى عمر بن الخطاب (رض) وخازنه الصورَ في داره، ومنها صنع الصور في دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما وَليَ إمارة المدينة وكانا من التابعين قال : وعمل مروان يدل على أن التصوير كان مستعملاً في عصر الصحابة ،فمن عرض مسألة التصوير واتخاذ الصور على هذه القواعد الشرعية علم منها أن دين الفطرة الذي قرن كتابه ووصف بالحكمة ، ورفع منه الحرج والعسر عن الأمة ، لم يكن ليحرم صناعة نافعة في كثير من العلوم والأعمال ويحتاج إليها في حفظ الأمن وفنون القتال ، وإنما يحرم ما فيه مفسدة أو ما كان ذريعة إلى مفسدة اه .

ويعجبني ما كتبه أُستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في وصف رحلته إلى صقلية عام ١٣٢٢هـ (١٨٩٤ م) في مجلة المنار وقد ذكر تنافس الغربيين في حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج فقال : « إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوين والمبالغة في تحريره خصوصاً شعر الجاهلية ، وما عُني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المطبوعات من الرسوم والتماثيل ، فإن الرسم

ضرب من الشعر يُرى ولا يُسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى . إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضى ، والطمأنينة والتسليم ، وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ ،متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً ، يصورونه مثلاً في حالة الجزع والفزع والخوف والخشية . والجزع والفزع مختلفان في المعنى ، ولم أجمعهما هنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع ، وما الهيأة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . أما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك .

قال : « ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية ، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية وأوضاعهم الجثمانية . هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ فأقول لك: إن الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان ، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالاً إلى المفتي فهو يجيبك مشافهة ، فإذا أوردت عليه حديث إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون أو ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الأول اللهو والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ،والأول مما يبغضه الدين والثاني مما جاء الإسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به ، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة ، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات ، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة

في نقش المصحف موضع النزاع ، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر .... وبالجملة فانه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل اه .

لما جاء الفاتحون إلى الشام كانت في تصويرها عالةعلى الروم والفرس وبقيت على ذلك مدة قليلة لأن التصوير لم يكن يعرف أنه كان في متفرق أقطار جزيرة العرب اللهم إلا في اليمن ، برع فيه أهلها براعة أثبتتها الآثار والمصانع ،وكانت الأثواب اليمانية المزركشة المبرقشة المصورة مما يحمل إلى الحجاز وسائر أرجاء الجزيرة وما إليها منذ عهد الجاهلية ، وأول ما عرف التصوير في الشام على عهد المسلمين كان في زمن الوليد باني الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى في القدس وغيرهما ، وما نظن أن جميع من صوروا له ما أراد من الحيوانوالنبات والشجر والمدن والأصقاع كانوا من أصول عربية بل كان فيهم الفرس والروم الذين دخلوا في خدمة الدولة العربية ، ومنهم من بعثت به مملكة بيزنطية ليساعدوا الخليفة على عمله النافع ، وقد وجد الأثري موسيل التشكي في قصير عمرة على سبعين كيلو متراً من قصر المشتى في البلقاء كتابات ونقوشاً تشير إلى فتحالأندلس في أيام الوليد وفيه من النقوش الزاهية والتصاوير العجيبة ما يأخذ بالأبصار . قال صاحبنا شيخو : وفي هذه القصور من الآثار الهندسية ومن التصاوير ومن تمثيل أحوال البادية كالصيد والغزوات والمآدب والمصانع ما أذهل العلماء لوجوده في البراري . ويقول ريسون : إن العرب قد نهجوا في الفنون الجميلة نهج البيزنطيين ، ولم يخالفوهم إلا بعدم تجسيم الحيوان ، ولكنهم استعاضوا عنه بالنقش النباتي من تشبك أوراق وأقواس باهرة وفصفصة زاهرة وآكام ومعاهد ساحرة .

وفي التاريخ العام أن الإسلام حظر تمثيل الصور الآدمية ولكن هذا الحظر لم يمنع الخلفاء من أن يكون في قصورهم صور وتماثيل . ومع هذا لم يخلف العرب في النقش ولا في الرسم آثاراً خارقة للعادة ،وما بقي من آثارهموعادياتهم الحجرية وأنواطهم المنقوشة ، وعاجهم ومجوهراتهم ، يشهد باستعدادهم الفني ، فإنهم نقلوا عن غيرهم في هذا الشأن أولاً ثم أخذوا يمرنون أنفسهم على حسن

الهندسة بالنقل عما عثروا عليه بادئ بدء ولا سيما عن الآثار البيزنطية ، فكانوا يخشون أول أمرهم ثم أخذوا يجرأون فيعدلون ما يريدون احتذاءه بل يخترعون ويبدعون ، فظهر لهم علم جديد مستقل على غير مثال ، قال: ولا نعلم هل كان للعرب قبل الإسلام طرز من البناء الخاص بهم ، لأنه لم يبق من الزمن السابق للإسلام سوى خرائب مبعثرة ، ومن الهجرة إلى القرن العاشر كان عهد الطرز اليوناني العربي ، وعلى مثاله جاء بناء المسجد الأقصى في القدس ، والجامع الأموي في دمشق ، والجامع الأعظم في قرطبة ، والتأثيرات اليونانية ظاهرة فيها اهـ .

وبعد أن ترجم العرب كتب الفنون والصناعات عن الروم والفرس والقبط والسريان والهند ، منذ أول النصف الثاني من القرن الأول ، أخذوا يزينون كتبهم ببعض الصور ، يصورونها لتمثيل المسائل العلمية للأبصار . ولا سيما كتب النبات والبيطرة والحيوان والجراحة والهندسة والفلك والجغرافيا وبعض كتب الأدب والمحاضرات والمقامات ، فاستعملوها بحسب الحاجة وأجادوا بالنسبة لعصورهم ، على ما ثبت ذلك بشهادة المحفوظ من مخطوطات العرب في متاحف الشرق والغرب ، وأكثر من أثر عنهم التصوير والإجادة فيه وصنع التماثيل ووضعها في قصورهم خلفاء بني أمية في الأندلس ، ومن جاء بعدهم من الملوك ، والصور ـ كما قال ابن أبي أصيبعة ـ إنما جعلت لارتياح القلوب إليها واشتياق النظر إلى رؤيتها ، والصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التي فيها ، وكذلك نقشت اليهود هياكلها ، وصورت النصارى كنائسها وبيعها ، وزوق المسلمون مساجدهم .

نعم زوّق المسلمون مساجدهم ، وكانوا أوائل الإسلام يكتفون بالصلاة في مساجد أشبه بالأرض القفراء ، ويفضلون السجود على الحصا ويعدون فرشها بالبواري بدعة ، وذلك لئلا تشتغل العين بشيء يبعد النفس من الخشوع لبارئها ، ثم أخذوا يتأنقون في مساجدهم ، ويفرشونها بالطنافس والزرابيّ ، ويصورون حيطانها ، وينقشون فيها آيات ثم مشجرات وأماكن جميلة ، ومعظم ما انتهى إلينا أو بلغنا خبره في العصور العشرة الأخيرة في الشام تصوير المسائل العلمية ، والأمصار والأشجار ، والسفن تمخر في البحار ، ثم تصوير الحيوان والإنسان ولكن على قلة .

لا جرم أن التصوير في هذه الديار كان ضعيفاً بعض الشيء لأن مسألته كان فيها نظر عند بعض الفقهاء الذين جمدوا على ما فهموه من الشريعة ، والتصوير عارض على الملة غير مغروس في فطرتها ، ولكن المسلمين تطوروا بطور الأمصار التي نزلوها . ولم يتوقف ملوكهم وأمراؤهم على فتاوى الفقهاء لإقامة المعالم واقتباس الحضارة ، فقد ذكر ابن بطريق أن بطريق الروم في قنسرين طلب إلى أبي عبيدة ابن الجراح الموادعة على نفسه سنةً حتى يلحق الناس بهرقل الملك ، ومن أقام فيها فهو في ذمة وصلح ، فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك ، فسأله البطريق وضع عمود بين الروم والمسلمين ، وصوّر الروم في ذلك العمود صورة هرقل جالساً في ملكه فرضي أبو عبيدة ، ومرّ بالصورة أحد العرب ، ووضع زج رمحه في عين تلك الصورة ففقأ عين التمثال عن غير قصد ، فأقبل البطريق وقال لأبي عبيدة : غدرتمونا يا معشر المسلمين ، ونقضتم الصلح ، وقطعتم الهدنة فقال أبو عبيدة : فمن نقضه؟ فقال البطريق : الذي فقأ عين ملكنا. فقال أبو عبيدة : فما تريدون ؟ فقال : لا نرضى حتى نفقأ عين ملككم . فقال أبو عبيدة : صوروا بدل صورتكم هذه صورتي ثم اصنعوا بي ما أحببتم وما بدا لكم ، فقال : لا نرضى إلا بصورة ملككم الأكبر فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب في عمود ، وأقبل رجل منهم ففقأ عين الصورة برمحه فقال البطريق : قد أنصفتمونا.

وذكر المقريزي أن خمارويه بن أحمد بن طولون أمير مصر والشام المتوفى سنة (٢٨٢هـ) عمل في داره في القاهرة مجلساً برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجال باللازورد ، المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمولة على صورته وصورة حظاياه ، والمغنيات اللاتي يغنينه بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين والكراذن[١] المرصعة بأصناف الجواهر ، وفي آذانها الأخراص[٢] الثقال الوزن ، المحكمة الصنعة ، وهي مسمّرة في الحيطان ولُونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة . فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا .

(١) قلنسوة من الديباج مرصعة .

(٢) جمع خرص : الحلقة من الذهب والفضة أو حلقة القرط .

كانت هذه القاعة المصورة في القرن الثالث. وظهر في عصر الأيوبيين والمماليك مصورون شاميون أبدعوا في التصوير على الجدران وعلى الكتب ، ومنها ما كان إلى القرن السابع في دير باعنتل قرب حمص ، كان فيه على رواية ياقوت عجائب منها آزج (بيت مستطيل) أبواب فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة فيها ، وصورة مريم في حائط منتصبة ، كلما ملت إلى ناحية كانت عينها إليك . ومنها ما كان في هيكل دير مران في سفح قاسيون بدمشق من صورة عجيبة دقيقة المعاني . وذكر ابن جبير أنه كان في كنيسة مريم بدمشق في القرن السادس من التصاوير أمر عجيب ، وكان مثل ذلك في كنيسة القيامة وغيرها من كنائس فلسطين .

كان اليازوري من وزراء الفاطميين يفضل كثيراً على المصورين الشرقيين وكانوا من المسلمين . وقد جعل الظاهر بيبرس رنكه أي شعاره الأسد ، وجعل دراهمه على صورته ، وجعل أقوش الأفرم رنكه في غاية الظرف وهو دائرة بيضاء يشقها شطب أخضر كأنه مسنٌ عليه سيف أحمر يمر من البياض الفوقاني إلى البياض التحتاني وقال فيه نجم الدين هاشم البعلبكي :

سيوف سقاها من دماء عداته وأقسم عن ورد الرّدى لا يردها
وأبرزها في أبيض مثل كفه على أخضر مثل المسنّ يحدها

قالوا : وقد كان الحواطئ ينقشن رنكه على معاصمهن وفي أماكن مستورة من أجسامهن .

ومن أجمل ما أبقت الأيام وإن لم يتم لها إلى الآن قرنان ، الصورة الباقية في دار أسعد باشا العظم في حماة من أبدع ما حوت من النقوش العجيبة وغيرها ، وهي صورة رسمت على قطعتين من الخشب جعلتا في حائط القاعة الكبرى ونقشت عليهما صورة حماة في ذلك العهد بجوامعها ومدارسها ، ونواعيرها وقصورها ، ظهر منها أن حماة كانت أعمر مما هي عليه الآن عرفنا ذلك بفضل التصوير .

أخذت العرب نقوش الفسيفساء عن الروم وبالغت فيها ولا يزال إلى اليوم قطع في الدور وغيرها ، وأهمها ما لا يزال في كنيسة مادبا في البلقاء من مصوّر فلسطين ونهر الأردن يشقها من وسطها والأسماك تعوم فيه ، والمدن التي كانت

عامرة لعهد واضعها ، ولا يزال القسم الأعظم منها بحاله لم يصب بأذى الأيام . وآثار الفسيفساء كثيرة مبعثرة في دور مادبا لم تزل على بريقها ، وفي دار سليم الصناع في مادبا بركة ماء معمولة بالفسيفساء الملونة أيضاً تخال ما فيها ماء حقيقياً وعلى جوانبها الثلاثة الباقية رسوم بالفسيفساء تمثل الحيوانات والطيور البرية والداجنة ، تسرح في جنينة زاهرة والطيور المائية واقفة في وسط الماء على آنية تشبه الزهرية ، وفي كل زاوية من زواياها صورة إنسان تخالف الأخرى . وفي هذه البليدة عدة قاعات فرشت أرضها بالفسيفساء يطلق الماء عليها لتغسل كما يُغسل بلاط القاعات وأفنية الدور .

قال في مسالك الأمصار : والفسيفساء مصنوع من زجاج يذهب ثم يطبق عليه زجاج رقيق ومن هذا النوع المسحور (المسجور) وأما الملون فمعجون وقد عمل منه في هذا الزمان (٧٤٠-٧٥٠) شيء كثير برسم الجامع الأموي وحُصل منه عدة صناديق وفسدت في الحريق الواقع سنة أربعين وسبعمائة وعمل منه قِبَلٌ للجامع التنكزي ما على جهة المحراب ،غير أنه لا يجيء تماماً مثل المعمول القديم في صفاء اللون وبهجة المنظر ، والفرق بين الجديد والقديم أن القديم قطعه متناسقة على مقدار واحد والجديد قطعه مختلفة وبهذا يعرف الجديد والقديم اه .

ووصفُ ابن فضل الله هذا يمكن أن يستنتج منه أن الفسيفساء كانت تعمل في الشام، وأن هذه الصناعة اللطيفة وإن اختصت بها القسطنطينية قد نقلت إلى الشام وجوّد عملها . وكان الوليد بن عبد الملك يحمل الفسيفساء على البريد من القسطنطينية إلى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع ومكة والمدينة .

وكانت الفسيفساء في الجامع الأموي قبل حريقه الأول في القرن الرابع ملونة مذهبة تحوي صور أشجار وأمصار وكتابات ، على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة ، وقلّ شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الحيطان قاله المقدسي وقال غيره : إنه مثلث في صور الجامع صفات البلاد والقرى وما فيهما من العجائب وأن الكعبة المشرفة صوّرت فوق المحراب كما قال فيه بعض المحدثين :

إذا تفكرت في الفصوص وما فيها تيقنت حذق واضعها
أشجارها لا تزال مثمرة لا ترهب الريح في مدافعها
كأنها من زمردٍ غرست في أرض تبرٍ يُغشى بفاقعها

فيها ثمار تخالها ينعت وليس يخشى فساد يانعها
تقطف باللحظ لا بجارحة الا أيدي ولا تجتنى لبائعها
وتحتها من رخامه قطع لا قطع الله كف قاطعها
أحكم ترخيمها المرخم قد بان عليها إحكام صانعها

قال صديقنا أحمد تيمور في رسالته التصوير عند العرب بعد كلامه على محاسن الجامع الأموي وما فيه من التصاوير : «ولا نعلم إن كانت هذه الصور من عمل العرب فتدخل فيما قصدناه ، أو من عمل صناع الروم الذين استعان بهم الوليد بن عبد الملك عند بناء المسجد» وقد علل المقدسي زخرف الجامع الأموي فقال : قلت يوماً لعمي : يا عم لَمْ يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون ، لكان أصوب وأفضل ، قال : لاتغفل بُنيّ ، إن الوليد وفق وكشف له عن أمر جليل ، وذلك أنه رأى الشام بلاد نصارى ، ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد افتن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعة لدّ والرّها فاتخذ للمسلمين مسجداً شغلهم به عنهن ، وجعله أحد عجائب الدنيا ، ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القمامة وهيأتها خشي أن تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى اه . ولذلك حرص المسلمون في كل دور على السير على قدم الوليد في الاحتفاظ بنقوش الجامع وتحاسينه وتزاويقه ، ومما أبقته الأيام من نقوش الفسيفساء أو الفصوص حيطان قبة الظاهر بيبرس في دمشق ، فإنها الأثر الباقي من هذه الصناعة في هذا الصقع ، بعد أن دثرت فسيفساء الجامع بما تعاقب عليه من الحريق في أدوار كثيرة ولم يبق منها إلا ما كشف مؤخراً في الحائط الغربي من صور الأشجار وغيرها . ومن القصور المصورة الجدران دار الملك رضوان بحلب وفيها يقول الرشيد النابلسي من قصيدة يمدحه بها سنة ٥٨٩ ويذكر ما على جدران الدار من الصور :

دارٌ حكت دارينَ في طيب ولا عطرٌ بساحتها ولا عطار
رفعت سماء عمادها فكأنها قطبٌ على فلك السعود يدار
وزهت رياض نقوشها فبنفسج غضٌ ووردٌ يانعٌ وبهار

نَوْر من الأصباغ مبتهج ولا نـورٌ وأزهارٌ ولا أزهار

ومنها :

صور ترى ليث العرين تجاهه فيهـا ولا يخشى سطاه صوار
وفوارساً شبت لظى حرب وما دعيت نزَال ولم يُشَنّ مغار
وموسدين على أسرّة ملكهم سكراً ولا خمرٌ ولا خمار
هذا يعانـق عوده طربـاً وذا أبداً يقبّل ثغـره المزمار

ثم لما تزوّج بضيفة خاتون ابنة عمه العادل وأسكنها في هذه الدار وقعت نار عقب العرس فاحترقت واحترق جميع مافيها ، فجددها وسماها دار الشخوص لكثرة ما كان من زخارفها .

ومن القصور المصورة القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس في مرجة دمشق أوائل النصف الثاني من القرن السابع ، وعلى أنقاضه بنيت التكية السليمانية ، وكان على واجهته مائة أسد منزّلة صورها بأسود في أبيض ، وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها بأبيض في أسود ، وهذه الصور أجمل من صور الأسود والنمورة وغيرها من الحيوانات التي كانت في قلعة حلب ، ومن الحمامات المصورة حمام سيف الدين بدمشق عثر أحمد تيمور على قصيدة في ديوان عمر ابن مسعود الحلبي الشهير بالمحّار في وصف هذا الحمام جاء فيها :

وخطّ فيها كل شخص إذا لاحظته تحسبه ينطـق
ومثّل الأشجار في لونها ولينها لو أنهـا تـورق
أطيارها من فوق أغصانها بودها تنطق أو تزعـق
وهيئـة الملك وسلطانه وجيشه من حوله يحـدق
هـذا بسيف ولـه عبسة وذا بقوس وبـه يعلـق

ومن التصوير على النسيج على ما ذكره البدري من تصوير «الأبيض القطني المصوّر لأحياء القصور وأموات القبور » وكان يصنع في دمشق . ومن التصوير في الكتب ما ذكره أبو الفداء في حوادث سنة(٦٤٢) في ترجمة المظفر صاحب حماة قال : استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف وكان مهندساً

فاضلاً في العلوم الرياضية فعمل له كرة من الخشب مدهونة ، رسم فيها جميع الكواكب المرصودة.وذكر ابن قاضي شهبة أن علي بن محمد بن صالح الرسام عالم صفد المتوفى سنة(٧٤٩هـ) كان في أول أمره يرسم القماش وقال: إن عنده كتاباً في علم الفلك صورت فيه جميع الأبراج والنجوم بليقتي الكتاب أي بالأحمر والأسود تحت كل صورة أرجوزة بتعريفها . قال القاضي جمال الدين ابن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضع دقيقة منها . وقد اطلع مؤلف كتاب نهر الذهب على مخطوط فيه وصف شجرة الإفادة التي كانت في الجامع الأموي بحلب وتعد من الذخائر النفيسة العلمية قال : إنها كانت عظيمة الرواء مصنوعة من حجر ونحاس وحديد ذات خطوط وجداول في أصول العلوم الرياضية شبيهة بشجرة ذات جذع وأغصان وأوراق عظيمة في كل ورقة منها أصل من أصول تلك العلوم . وكان الطلبة يقدمون حلب من القاصية للاشتغال بالعلوم الرياضيةالمرسومة في هذه الشجرة . واسم غارس شجرة الإفادة خليل بن أحمد غرس الدين على ما في در الحبب .

ويدخل في باب النقش والصنائع الغريبة ما رواه المقدسي في حوادث سنة (٩٩٠) يوم عُمل ختان ابن درويش باشا والي دمشق،فانهم صنعوا شيئاً يسمى النقل بجامع المصلى وبجامع ايلخان خارج محلة القراونة وبجامع التوبة ، وهو يشتمل على أربع عشرة قلعة من الورق المحشو بالبارود وأربع عشرة فرساً وأربعة عشر عفريتاً كذلك،وعلى صور طيور ووحوش وكلاب وغير ذلك،وعلى قصر عظيم من الشمع الملون المشتمل على صورة أنواع الفواكه والبقول والأزهار والأطيار وغيرها كل ذلك من الشموع المصبغة والتذهيب والتفضيض ، وكان ارتفاعه على علو الجملون الذي بجامع المصلى بحيث لم يتأت نقله منه وإخراجه إلا بعد فك الجملون المذكور ، وهدم قوس أحد أبواب الجامع المذكور وهدم مواضع متعددة في طريقه إلى دار السعادة ، وهدم الحائط الشرقي من باب دار السعادة أيضاً حتى أُدخل ، وكان لهذا النقل يوم مشهود خرج للفرجة عليه جميع أهل دمشق رجالاً ونساء لم يتخلف أحد . ثم في اليوم الثاني منه نقل النقل الذي صنع بجامع محلة القراونة وبجامع التوبة وهو يشتمل على قصرين عظيمين من

الشمع أيضاً أحدهما أطول من القصر المقدم بنحو أربع أذرع والآخر دونه مشتملين على ما تقدم وعلى صور أنواع الحيوانات من السكر من الخيل والجمال والفيلة والسباع والطيور وغيرها ، كل ذلك من السكر المعقود وعلى النقول والملبسات بالسكر أيضاً .

وكان رشيد الدين بن الصوري يستصحب مصوراً ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ويُريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها . ثم إنه سلك في تصوير النبات مسلكاً مفيداً ، وذلك أنه كان يُري النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره ، ثم يريه إياه أيضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه إياه أيضاً في وقت ذوائه ويبسه فيصوره ، ومن ذلك نستدل أنه كان في القطر أكثر من مصور في ذاك العصر ، وأن ذلك التصوير بالأصباغ كان مألوفاً ،وقد بلغ من خذق المصورين أن يصوروا النبات على أنحاء شتى ، أما عنايتهم بالنبات نفسه فمسألة ينظر فيها علماء النبات يستخرجون منها ما يريدون ، وهذا كان في الثلث الأول من القرن السابع للهجرة أي في القرن الثالث عشر للميلاد .

ولا شك أن كل هذه البدائع كانت من صنع صُنُع الأيدي من الشاميين ، فمن المصورين على الخزف ومن المصورين على الخشب ومن المصورين على النسيج ومن المصورين على النحاس والحديد ، فمن المصورين على الخزف « الغيبي » قال تيمور : إن له قطعاً بدار الآثار العربية بمصر ، عثروا عليها بأطلال الفسطاط وقد كتب عليها اسمه فكتب على بعضها « الغيبي » فقط وعلى بعضها « الغيبي الشامي »وإن في دار الآثار العربية أيضاً لوحاً من القاشاني « لمحمد الدمشقي » عليه صورة مكة المكرمة والكعبة المعظمة صورها سنة (١١٣٩هـ) وكتب عليها اسمه.

وبعد فهذا القليل الذي قرأناه واستأنسنا به يدل على ذوق وإبداع ، وإن مشاركة الأمة في هذا الفن كانت على حصة موفورة ، وفي هذا العصر نبغ في الشام مصورون لا بأس بهم أخذوا عن إيطاليا وفرنسا وغيرهما وكادوا يجارون

مصوري الغرب بإبداعهم ، ومنهم من يصور بالأصباغ ، ومنها بدونها أي بالسواد ، ومنهم من يصور التماثيل من المرمر والرخام والصفر ، ومنهم من ينقش فيبدع على الخشب والنحاس ، ومن المصورين باليد توفيق طارق ، علي رضا معين ، نديم بخاش ، مصطفى الحمصاني ، مصطفى فروخ ، عبد الحميد عبد ربه ، عبد الوهاب أبو السعود ، بشارة السمرة ، داود القريم ، حبيب سرور خليل صليبي ، سليم عورا ، جبران خليل جبران ، خليل الغريب ، نقولا الصائغ .

النقش :

ويصح أن يعد في باب التصوير نقش البيوت والتماثيل فإن المعروف أنه كان للشام حظ منه ، ولم نر للنقش على الحجر براعة وإبداعاً عند الأمم القديمة بقدر ما رأينا عند اليونان والرومان ، فإن النقوش التي عثر عليها في شمالي الشام من أصل حثي مثل الأسود التي كانوا يرسمونها على أبواب مصانعهم وجدرانها وأبي الهول المجنح برأس إنسان أو ثور وهو من نقوش الأشوريين ، والنقوش التي عثر عليها في الجنوب من أصل سامي كالكنعانيين والإسرائيليين وما عثر عليه في الساحل من نقوش الفينيقيين وأربابهم ومعظمها منقولة عن المصريين الفراعنة — كل هذه النقوش ليست من جمال الوضع وحسن الذوق بحيث يرتاح إليها النظر مثل نقوش الرومان واليونان ، ومثال منها الناووس الذي عثر عليه في صيدا من القرن الرابع للميلاد وجعل في دار الآثار في الإستانة وهو يمثل نساء باكيات تمثيلاً كأنك تراهن .

أين جمال نقوش بعلبك من نقوش جبيل ، أين نقش الناووس البديع المنسوب للإسكندر المقدوني أو لأحد قواده ، وهو مما كان عثر عليه في صيدا أيضاً وحفظ في دار الآثار بالإستانة ، من نقوش قبر أحيرام الذي عثر عليه في جبيل وجعل في دار الآثار في بيروت ، أو قبر حيرام الذي عثر عليه قرب صور ونقل إلى متحف اللوفر في باريز سنة ١٨٦٠ م .

آثار تدمر وتماثيلها تنم عن ذوق وفضل صناعة أكثر من أرباب الفينيقيين والحثيين ، والغالب أن تماثيل الشبه كانت تعمل في قبرس والروم وتحمل إلى تدمر لتزين بها رحباتها وساحاتها ، وصناعات جرش ومادبا أجمل من نقوش

السهول في حوران والصفا . كأن للإقليم وللعنصر الذي ينزله دخلاً كبيراً في إجادة النقش والتصوير . ومعظم العناصر التي نزلت الشام منذ عهد التاريخ من العناصر السامية، والساميون كما قال بعض علماء الإفرنج ما زالوا ينفرون من الرسم والنقش والتصوير . ولا غضاضة إذا قلنا إن الآريين أفرطوا في الاشتغال بالرسم والنقش إفراطاً شوهدت آثاره في أمم أوربا التي خلفتهم ، فكل شيء إذا لم يرسم الآن عندهم لا يفهم ولا يدرك ، فأضعفوا بذلك قوة التخيل وقووا الباصرة .

ومما يستدل به على أن التماثيل قبل الإسلام كانت تعمل وتنقش في الشام وأن العرب نقلوا عنها في جزيرتهم ما رواه ابن الكلبي من أنه كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم في مشارف الشام يقال له الأقيصر كانوا يحجونه ويحلقون رؤوسهم عنده . وقال ربيعة بن صبُغ الفزاري :

وإنني والذي نغم الأنام له   حول الأقيصر تسبيح وتهليل

قال : ووجد عمرو بن لحي أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال : ما هذه؟ فقالوا نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . ولا شك أن هذه الأصنام تعد من الصناعات الشامية .

ولم يخل عصر في الشام من نقاشين أبدعوا النقش على الحجر والنقش بالأصباغ على الجدران وعلى الخشب يتناقلون ذلك خلفاً عن سلف ، والنقش بالجبس على الجدران ، ومنها مقرنصات جميلة ذات تعاريش وكتابات حفظت في مدفن أحد الوزراء من القرون الوسطى في صالحية دمشق أمام دار الحديث الأشرفية البرانية وبينهما الطريق وتسمى هذه المدرسة التكريتية . وفي بعض الدور القديمة الباقية من القرن العاشر وبعده في حلب ودمشق كثير من القاعات تدل على ذوق . وفي در الحبب أن أبا بكر بن أحمد النقاش الجلومي الحلبي خدم أساتذة النقاشين من الأعاجم واستفاد منهم ومهر في نقوش البيوت وكتابات الطرازات على طريقة القاطع والمقطوع ، وفي نقوشه ما كان لكفال حلب وغيرهم من الرماح والسروج بالمذهب واللازورد مع معرفة طريقة حله وصنعة التركاش وضعاً ونقشاً وصنعة اللوح الذي يكتب فيه وصنائع أخرى تتم عشرين صنعة . ولا يعقل أن يعمل

ذلك مثل هذا المفنن ولا يكون حواليه عشرات من المتعلمين والعاملين .

ومن النقوش الكثيرة التي بقيت محفوظة على بعض مصانع الشهباء نقوش باب أنطاكية وباب النصر وعلى هذا قطعة من إفريز تمثل كرمة معرشة يركض إلى جانبها أرنب . ومن أجمل آثار قلعتها المحراب المنقوش على الخشب من عمل نور الدين زنكي والجزء الثاني الذي أنشأه الظاهر غازي يدل على صورة الهندسة المألوفة في عصر الأمويين : مثلث قائم الزوايا تعلوه قبة بين حنايا واسعة.

ومن المنابر العجيبة الصنع ما عمله نور الدين محمود بن زنكي في حلب برسم المسجد الأقصى عمله حميد بن ظافر الحلبي وسليمان بن معالي من خشب مرصع بالعاج والآبنوس وعليه تاريخ سنة (٥٦٤هـ)وقد وضعه صلاح الدين في محله عند فتح القدس وقد عمل في حلب أيضاً محراب الجامع الكبير بحماة صنعه ذاك الفنان الحلبي . ومن أجمل المنابر منبر الحرم في الخليل من صناعة الفاطميين ومنبر جامع الحنابلة بدمشق من الخشب . ومن المحاريب محراب جامع الحلاوية بحلب من الخشب ومحراب الأقصى من الرخام . ومن المحاريب الجميلة محراب جامع الفردوس بحلب الذي أنشأته ضيفة خاتون وهو من عمل حسان بن عنان . وجامع الظاهر غازي في قلعة حلب الذي بناه سنة (٦١٠)فيه أجمل ضروب الهندسة من النقوش المعروفة في المصانع الجميلة . ومن أهم الآثار العربية تابوت من الخشب وضع على قبر السيدة سكينة بنت الحسين في مقبرة باب الصغير بدمشق عمله أحمد بن محمد بن عبد الله سنة(٥٦٠هـ)وقد نقش بخطوط كوفية وجعل داخل الحروف نقوش وحروف صغيرة أخرى بالكوفية أيضاً . وتابوت ومحراب ومنبر جامع خالد بن الوليد بحمص من أجمل الآثار العربية . وكذلك تابوت مدفن أبي الفداء صاحب حماة . ومن الآثار العربية ما نقش بالحروف الكوفية على تابوت من الحجر دفنت تحته السيدة فاطمة الصغرى بنت الحسين من القرن الرابع . ومن التوابيت المهمة تابوت سيدي صهيب في حي الميدان بدمشق (من القرن السادس) ومنها تابوت بخت خاتون المعروفة عند العوام بالسيدة حفيظة في طريق عين الكرش المؤدي إلى حي الأكراد بدمشق .

وذكر القزويني سوق المزوقين في حلب وقال: إن فيه آلات عجيبة مزوقة ، وذكر ابن جبير أن أكثر حوانيت حلب خزائن من الخشب البديع الصنعة قد

اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش. وقد عُرف الحلبيون من القديم بحسن الذوق في هذه الصناعة كما عُرفوا بحسن الذوق في الخطوط العربية المنوعة الأشكال ، وكلها نقوش معرشة تأخذ بمجامع الأبصار ، وتعد في باب النقش ، وقد كان عدد الخطاطين الذين أنبغتهم حلب على اختلاف العصور أكثر من غيرها من مدن الشام .

ذكر الغزي أن النقاشين في حلب أصناف منهم من ينقش على الحجر وهم نوابغ البنائين وفي المباني القديمة كثير من النقوش الحجرية تشهد ببراعة البنائين الحلبيين في القرون الماضية وتدل دلالة واضحة على نبوغهم بصنعة النقش ، من ذلك صورتا وجهي أسدين في حجرين مرصوفين في جانبي أحد أبواب قلعة حلب لا يفرق الناظر إليهما في أول وهلة بين ملامحهما ، فإذا أمعن النظر فيهما تبين له أن وجه أحدهما يضحك ووجه الآخر يبكي مما دل على براعة النقاش .

وقال : إن من النقاشين من يعاني النقش على المعادن كالذهب والفضة والنحاس ، ومنهم من ينقشون المنازل ويعرفون بالمدهنين ينقشون صور أشخاص وأزهار وطيور وأشجار ، وإن هذه الصنعة انحطت في حلب أواخر القرن الماضي حتّى سافر جماعة من أهلها إلى أميركا وتلقوا هذه الحرفة من أربابها وعادوا فنشروها بين الناس . ومن أشهر النقاشين يوسف سعد الله الحويّك . ومن الحفارين والنقاشين يوسف الزغبي وبشارة عيسى الزغبي وهذا حفر صورة آل رومانوف في قطعة صدف من أنفس التحف .

واشتهر في دمشق وحلب وبيروت خطاطون كثيرون في العهد الأخير ومنهم أمين زهدي . مصطفى السباعي . مراد الشطي . مصطفى القباني. محمد علي الحكيم نجيب هواويني . حسين البغجاتي . ممدوح الشريف . سليم الحنفي. محمد علي الخطيب . زكي المولوي . حنا علاّم . يوسف علاّم . نسيب مكارم . مشكين قلم . محمد يحيى . صادق الطرزي . موسى الشلبي .

وكان فن الخط إلى عهد بعيد صناعة يتنافس بها ، وكثير من البارعين فيها كانت مدار معاشهم ينسخون الكتب وغيرها فلما جاءت الطباعة ثم الآلات الطابعة بطل التنافس بالخط العربي الجميل وقلّ الراغبون فيه .

البناء :

قالوا : إن علم المباني فن من الفنون الجميلة بل هو أحسنها،إذا قارنا بينه وبين الموسيقى نجد أن كليهما مطرب للإنسان ، فالأول مكوّن من نغمات غير متنافرة منتظمة الأوقات ، والثاني مكوّن من تراكيب وأوضاع غير متنافرة الأجزاء ، يظهر الأول مذبذبات العدد والأوتار يحملها الهواء إلى الآذان فيطرب بها الإنسان . ويظهر الثاني الظلّ والضوء والألوان فتراها العين في أتم ما يكون موضوعة بنسب محفوظة ما بين مزخرف وبسيط تظهر عليها المتانة والراحة فتشتاق إليها النفس ، فكلا الفنين جميل غير أن الأول تذهب محاسنه في الهواء وبعد ذهابها لا يشعر بها ، وتبقى محاسن الثاني ما دام لها ظل .

مواد البناء الحجر والتراب والخشب والحديد قد توجد كلها في قطر ولا يوجد إلا بعضها في آخر ، فمصانع بابل تداعت لأن معوّل البانين كان على الآجر لا الحجر . ومصانع الشام بقيت لأن الحجر فيه كثير مبذول ، وإن كان أقدم ما عُرف من آثارنا يُرد إلى زهاء ألفي سنة ، وأقدم ما عُرف في بابل وأشور ونينوى من الآجر المكتوب يرجع إلى أربعة آلاف سنة . وما عمل عندنا من الخشب والتراب دثر بعد مدة ليست بطويلة من عهد بانيه .

ولقد ظهر أن الشام في القديم لم يكن له طراز خاص في البناء . وكان بناؤه بحسب روح الدولة التي تحكم فيه والأمة التي تتغلب عليه : مصرياً أيام الفراعنة، أشورياً على عهد الأشوريين . بابلياً في أيام بابل . فارسياً في دور الفرس ، رومياً في دولة الروم . رومانياً في عهد الرومان . ولم يكن للحثيين والإسرائيليين هندسة خاصة، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الأشوريين أصول بنائهم ، وليس مما اكتشف منه حتى الآن ما هو خارق للعادة في أشكاله ووضعه بل هو محرف عن الطراز الأشوري تحريفاً كثيراً ، وما اكتشف من الصور النصفية وغيرها من عهد الحثيين لا ينم عن ذوق وإبداع على الأكثر . ومصانع الحثيين في الجملة مقتبسة من مصانع الأشوريين والبابليين اقتباساً رديئاً لا يخلو من جفاء وسذاجة على ما قال الباحثون . وسار الإسرائيليون في صنع مصانعهم على تقليد الأشوريين والمصريين وقلدوا المصريين في الأكثر لقرب فلسطين من مصر ، ولاستيلاء المصريين زمناً على فلسطين . وكذلك فعل الفينيقيون والكنعانيون .

وعلى عهد الإسكندر دخل الشام طرز جديد في البناء أي أصول الهندسة اليونانية.

غصت جبال الشام بالمغاور الطبيعية والصناعية، ومنها ما كان لسكنى أهلها قبل أن عرف التاريخ ، ومنها ما جعلوه قبوراً لموتاهم في الأمم التي عرف بعضها التاريخ ، وقد ثبت بهذه المغاور أن الشاميين استعملوا منذ الزمن الأطول آلات من المعادن لقطع الحجر ونحته . ولا يمكن تحديد العصر الحجري في الشام ، ويمكن أن يردّ العصر المعدني إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . وفي غربي الأردن آثار كثيرة من ذلك ، وكلها ذات صلة بعبادات الأقدمين . واحترام الأحجار المقدسة كان قديماً منتشراً في جميع أرجاء الشام . ومن المغاور مغاور عدلون بين صيدا وصور ومغاور نهر إبراهيم في لبنان، ومغاور بيروت وجبيل وأنطلياس ، ومن مصانع فلسطين الصهاريج ومعاصر الزيت والخمر . وبناء الفينيقيين من هذا النوع أجمل من بناء العبرانيين .

وقد اقتبس العبرانيون في أصول مبانيهم مباني الفينيقيين . وهؤلاء أخذوا على ما يظهر من المصريين ، وقد قيل: إن بنائين فينيقيين هندسوا معبدي داود وسليمان . ويقول سنيوبوس: إن القدس كانت بالنسبة لبابل وثيبة عاصمة أقاليم فقيرة ، وما كان العبرانيون يتعاطون البناء ويميلون إلى العمران ، بل كانت ديانتهم تحظر عليهم إقامة المعابد ، ولم يكن في القدس إلا قصر سليمان وهو أول معبد عبراني .

وأخذت الشام أصول الهندسة اليونانية وتناغت بها قبل أن يفتحها الإسكندر. ولم يبق من الآثار اليونانية على كثرتها في الشام بقدر ما بقي من الآثار الرومانية. فإن الرومان أنشأوا مدناً برمتها خططوها على أصولهم . وكان من هذه المدن ما بني على نفقة أباطرة رومية . ومعلوم أن الرومان تفننوا في البناء وخلفوا في كل مكان امتد سلطانهم عليه آثار الهندسة من طرق وقنوات وأسوار ومسارح وملاعب وحمامات، مما شهد لهم باتساع الفكر ومعرفة الهندسة والمتانة في العمل وجمال الأسلوب . لا جرم أن علاقة الشام بإيطاليا أقدم من الإسلام ، علاقتها بأرضنا مذ كنا ولاية رومانية تحكمنا رومية عاصمة تلك الأمة العظيمة .

وأخذ النصارى في بناء كنائسهم عن فارس والشرق ، ثم اقتبس منهم الرومان أصولهم في البيع ، وما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية أن اختلطت

ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية . وأجمل هذه الصناعات على ما قال هوار الجوامع والقصور . والتقليد محسوس ولكنه تقليد غير أعمى ، لأن تأثيرات الأساتذة الأقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث ، كما أن مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحولان دون التفنن والطافة الإبداع والاختراع . قال : وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق إحدى مراكزها .

وقال جلابرت : ومن المصانع المنوعة في الهندسة الشامية شيئان يلفتان النظر خاصة وهما البيع والأبنية ذات السطوح . وكان المهندسون الشاميون فيها عالة على الشرق يسترشدون بآراء مهندسي فارس . وقد أثرت الهندسة الشامية إذ ذاك في هندسة كثير من الأمم ولاسيما في بيزنطية ، وأخذت بيزنطية عن الشام أو من طريق مصر عن الشام ، أصول كثير من الأبنية . وقال لامنس : إن الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة أخذت تسير في طريق مستقلة عن النموذجات اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة ، وأنشأ المهندس الشامي يرفض استعمال الملاط بين الأحجار ويكتفي بحسن وضعها على صورة متوازية تقوى بها بدون لحمة بين أجزائها ، واستعاض عن الآجر المألوف على عهد الرومان واليونان بالحجر النحيت ، وبنى الكنائس ذات القباب فكثرت البيع البديعة التي يعجب الأثريون بخرائبها العظيمة اليوم وعنها أخذ بناة الكنائس الرومانية اهـ .

كان أساتذة العرب في البناء لأول أمرهم أناساً من الروم ، فكان بين أبنيتهم الأولى وأبنية النصارى وجه شبه ، فقد بني المسجد الأقصى على مثال كنيسة القبر المقدس ، ونقل استعمال القباب من الشرق إلى الغرب ، ولم تكن معروفة إلا في هذا الشرق ، وقد أفرط العرب كالروم في استخدام الفسيفساء في الجدران والقباب ، وزادوا في هذه الفصوص ما ابتدعوه من عندهم ، وكان محبباً إلى نفوسهم ، جميلاً في عيونهم . ويقول بعض العارفين : إن الشام لا يحوي كثيراً من المصانع الخارقة للعادة من صنع العرب ، لأنهم اكتفوا بما وجدوه في القطر من المباني القديمة ، فاستعملوها على ما يشاءون . ولطالما بنوا بمواد أخذوها من أبنية قديمة .

أما هندسة الصليبيين فأكثرها حصون وقلاع ، ولا يعرف إذا كانت في

الأصل من بناء العرب أو الإفرنج ، المرجح أن هؤلاء طبعوها بطابعهم ، وقالوا لم يخترع العرب أبنية خاصة بهم ، بل تجلى في هندستهم حبهم للزخرف واللطف واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين، وكان تفننهم في هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار ، مما جعل لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها ، ودلت كل الدلالة على إيغالهم في حب النقوش والزينة ، كأن أبنيتهم ومصانعهم ثوب من ثياب الشرق تفنن حائكه في رقشه ونقشه .

نعم إن العرب لم يخترعوا ولكنهم اقتبسوا بادئ بدء ، فإن ابن الزبير لما عمر الكعبة دعا إليها بنائين من الفرس والروم، والوليد لما بنى أمويّ دمشق وأقصى القدس دعا إليهما بنائين من الفرس والروم والهند . ولا جرم فقد برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الأبنية وهي ما يتعرف منه أحوال أوضاع الأبنية وكيفية شق الأنهار وتقنية القنيّ وسد البثوق وتنضيد المساكن . ولو لم يبرعوا في كيفية إيجاد الآلات الثقيلة الرافعة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والأسوار والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي يبهرنا اليوم أثره .

ومالت الهندسة الشامية إلى السذاجة لأول انتشار النصرانية ، فكانوا يجتنبون كل زينة زائدة لتوثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الضخمة ، وجمال الحجم وترتيب الأجسام . ونشأت بين القرن الرابع والسادس للميلاد هندسة متينة تختلف عن الهندسات الأخرى ، منها بعض أمثلة في الشام العليا وحوران . ويقول جلابرت : إنه كان لأهالي الشام الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذي أشاعه الرومان في الشام ، وهو بناء قديم يدعى بالطراز الشامي لا أثر فيه للطرق الرومانية والشرقية المحضة في البناء ، وعلاقته ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في أنطاكية، وقد نشأ عنه طرز مركب شاع في القرون الأخيرة، وطرق البناء في حوران تختلف عن الهندسة الشمالية فتألف طرز وطني مباين للطرز اليوناني الذي أدخله السلوقيون .

ومن أهم أبنية القرون الوسطى وتدل على ذوق جميل في البناء ، المدارس الكبرى في حلب ودمشق والقدس وغيرها من البلدان ، و القليل الباقي منها إلى الآن شاهد على وجه الأيام بما صار للمهندس الشامي من حسن الذوق ، ومنها

في دمشق مدخل المدرستين العادلية الكبرى والظاهرية والمستشفى القيمري ، وفي حلب مستشفى أرغون شاه ومدرسة الفردوس إلى غيرها من الأبنية الكثيرة في القرون المتأخرة .

ومن أهم أبنية القرون الإسلامية بدمشق المأذنة الغربية في الجامع الأموي المعروفة بمأذنة قايتباي وهي من أهم المآذن العربية من حيث الهندسة والنقش والأصول المعمارية قامت على قصبتين من الأرض (٤٨ متراً مربعاً) بارتفاع ٦٦ متراً هندسها معمار عربي اسمه سلوان بن علي وقد تمت عمارتها سنة (٨٨٥هـ) وبانيها السلطان الملك الأشرف قايتباي كتب اسمه في جهاتها الأربع . وقد أجرى ترميمها وإرجاعها إلى أصلها وإكمال نواقصها المهندس الرسام توفيق طارق سنة (١٣٤٢ هـ) وكان على رفرف شرفتها الأولى آية ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً ﴾ الآية وكتبها موسى شلبي وبقي قسم من الحروف القديمة .

وقد دخلت إلى الساحل منذ عهد الحروب الصليبية أصول الهندسة الطليانية في الدور والقصور ، وما برحت ترسخ مع الزمن ، ولا سيما في طرابلس وبيروت بحيث أن جميع ما نراه في مدن الساحل من الدور هو مما أُنشئ في القرن الأخير وفي هذا القرن هو طلياني الصبغة ، وهندسته عارضة على هذه الديار . هذا في الساحل أما هندسة البيوت في الداخل فإنها قديمة لا يعرف زمن الاصطلاح عليها ، فقد نقل الرومان هندسة بيوت دمشق القديمة إلى شمالي إفريقية ، ثم نقلها العرب بعد قرون إلى الأندلس ، ولا تزال هناك إلى اليوم يفاخر بطرازها ويُطرّس على آثارها ، كأن تكون الدار ذات مدخل أو دهليز يؤدي إلى فناء واسع فيه حوض ماء وإيوان ، وعلى جوانبه أماكن لتربية بعض الأشجار والزهور ، والدار ذات طبقتين فقط : السفلى للصيف والعليا للشتاء . وقد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس أن البيوت في طرابلس كانت ذات أربع وخمس وأحياناً ست طبقات . وكثرة الطبقات في الدور لم تعهد إلا في الغرب ، وما نظن الشام زادت طبقات بيوتها على ثلاث في معظم أدوار التاريخ .

الشعر والفصاحة :

ظهر كثير من الشعراء والبلغاء في هذه الديار ولا سيما من السريان واللاتين

والروم ، اشتهروا في العالم وخلدوا آثار نبوغهم ، ولطالما أخرجت مدرسة نصيبين والرّها ومدرسة الفقه في بيروت ومدرسة أنطاكية خطباء هزوا النفوس وعلموها بخطبهم وأشعارهم ومجادلاتهم . وقد كثر سواد هذه الفئة في عهد الدول العربية الإسلامية أيضاً . والشعر والخطابة مما امتازت به العرب في الجاهلية والإسلام وغالت في الولوع بهما ، ولقد أثر القرآن في هداية العرب ببلاغته وفصاحته ، تأثيره بحكمه وهدايته . ولطالما كان شعراء العرب يصفون الشام ويتغزلون بها منذ أول يوم عرفوها ، حتى إذا كان الإسلام وتبسطوا في أرجائها ، أوحت إلى قرائحهم من أساليب الشعر ما يتألف من مجموعه أعظم ديوان بل خزانة عظيمة في الأدب تدل على فضل قرائح ، ونبوغ في فنون القول ، وتوسع في مجال الخيال ، وما هم إلا مبدعون وضعوا ما وضعوه من بنات أفكارهم على غير مثال .

لا جرم أن الشام كانت أول الأقطار التي أخذت الفصاحة عن العرب في جزيرتهم ، وبقيت فيها على اختلاف العصور وتعاقب الدول محفوظة في الجملة ، فما انقطع منها من ينظمون ويجدون حواليهم من يطرب لنغماتهم ويصفق لنبراتهم وإن لم يعرفوا صحاحها من زيوفها . كان الشعر مبدأ دخول العرب في الحضارة ، والأدب مقدمة النهوض في العلوم ، ولذلك رأيناهم لم يحرصوا على شيء حرصهم على روايته ودرايته . وأكثر ما يجيد الشعراء في أرض صح إقليمها ، واعتدل نسيمها ، وطابت تربتها وأديمها ، وصفت أمواهها ، وساغ نميرها ، وكثرت ظلالها بأشجارها ، وغردت أطيارها في أسحارها ، وفغم أريج نوارها وأزهارها ، وهذا على حصة موفورة في القطر الذي يتاخم جزيرة العرب من شمالها . وقد أنعم عليه الخالق بضروب البدائع والروائع ، فكان شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام كما قال الثعالبي . وما زالت بعض قصائد شعراء ذاك الدور مضرب الأمثال في البلاغة ، وما برح عرب المدن يتغنون بشعرهم ويعجبون به ويترنمون ، ويتوفرون على حل ما استعجم عليهم من ألفاظه ومعانيه . قال : والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق

بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم ... انبعثت قرائحهم في الإجادة ، فقادوا محاسن الكلام ، بألين زمام ، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا ، وكان أبو بكر الخوارزمي قد دوّخ الشام في صباه ولطالما قال وهو أحد أمراء النظم والنثر : ما فتق قلبي ، وشحذ فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف حدّ لساني ، وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية ، التي علقت بحفظي ، وامتزجت بأجزاء نفسي .

حكى المازني المتوفى سنة ٢٤٩ قال : دخلت دير بصرى فرأيت في رهبانه فصاحة وهم متنصرة من بني الصارد وهم أفصح من رأيت فقلت : ما لي لا أرى فيكم شاعراً مع فصاحتكم ؟ فقالوا : والله ما فينا أحد ينطق بالشعر إلا أمَة لنا كبيرة السن فقلت: جيئوني بها فجاءت فاستنشدتها فأنشدتني لنفسها :

أيا رفقةً من دير بُصرى تحملت ... تؤم الحمى لُقيت من رفقة رشدا
إذا ما بلغتم سالمين فبلغوا ... تحية من قد ظن أن لا يرى نجدا
وقولوا تركنا الصارديّ مكبلاً ... بكل هوى من حبكم مضمراً وجدا
فيا ليت شعري هل أرى جانب الحمى ... وقد أنبتت أجراعه بقلاً جعدا
وهل أردن الدهر يوماً وقيعة ... كأن الصبا يسدي على متنه بردا

وما برحت الديارات في الشام تقدر الفصاحة كما تقام فيها للموسيقى أسواق.

وظهر الضعف في الشعر خلال القرون الأخيرة ، ونسلت عليه القرون إلى أن خلع في أوائل هذا القرن الثوب البالي القديم ولبس ثوباً جديداً فيه من جلال الحديث وعز القديم ما جمع فيه الجسم والروح . بدأ هذا من لبنان وبيروت ثم تناول عامة مدن الشام . أما القرى والبوادي فقد اكتفت بالأزجال ، والزجل نوع من الشعر محدث يصفون فيه أيامهم ومفاخرهم وهو أشبه بالرجز الذي كانت العرب تترنم به في عملها وسوقها وتحدو به في بواديها . وكان للزجالين في القرن الماضي وفي هذا القرن منزلة عند أهل الزرع والضرع ، يدعون الزجال إلى الأفراح ليحمل البهجة إليها ، وإلى الأتراح ليسري عن النفوس ما نزل بها ، ولهم ضروب من المواليا يسمونها العتابى والإبراهيمي يطربون بها ولا تخلو من معان شعرية قال صديقنا الشيخ إبراهيم الحوراني وكان شاعراً مجيداً بالفصحى والعامية : والنصارى واليهود يعتقدون أن بعض الشعر إلهام إلهي ووحي حق كشعر أيوب

وداود وسليمان وأشعيا وعدة من كتبة الأسفار الإلهية والشعر بقسميه الفصيح والعامي المعروف عند العامة بالمعنّى يعمل على ثلاثة أبحر الرجز والوافر والسريع ، أما أغانيهم التي يسمونها بالقراديات وهو اسم خشن سميت مؤخراً بالعديّات وبالقويلات كما يقولون لمن يعانيها (القوّال) فبعضها لا ينطبق على وزن من أوزان الشعر المعروف ، ووزن بعضها المتدارك مع تغييرات أيضاً . وجاءت أغانيهم المعروفة بالموالات البغدادية والمصرية والزلاغيط على بحر البسيط اه .

ولا يزال إلى اليوم لكل قبيلة في الشام شاعرها ينشدهم من حفظه أو نظمه من شعر شعراء البادية على نغمات الرباب قصائد يسليهم بها ، ولشعر البادية عندهم أوزان خاصة ، وإذا قيس على علات لفظه على أبحر الشعر يرى بعضه موزوناً وفي بعضه عيوب بسيطة ، ومن أشعر شعراء البادية نمر بن عدوان في عبر الأردن كانت له امرأة اسمها وضحاء تتيم بها كما تتيم قيس بليلاه فرثاها بعد موتها بعشرات من القصائد ومنها ما فيه معانٍ جميلة — قاله أديب وهبة .

وإذا انتشرت المدارس في المدن والقرى على حد سوى ، وجعل التعليم في كل درجاته باللغة الفصحى يتأصل الغرام في الناس أكثر مما نراه بالفصاحة والشعر فلا تلبث الشام أن تحسدها جاراتها كما كانت في القديم على اختصاصها بذلك ، وكما تحسد هي مصر اليوم على تفنن شعرائها وخطبائها وسريان الفصاحة إلى ألسن من ليسوا من الأدب العربي في العير ولا في النفير .

الرقص :

ربما ينفر بعضهم من سماع هذا اللفظ ونحن لم نتعرض له هنا إلا مجاراة للفرنج في إدماجهم له في الفنون الجميلة . عدّ « طاشكبري » الرقص من أنواع العلوم فقال : إنه علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهده ، وهذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه والأغنياء والأمراء ومن يجري مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي اه . وذكروا أن الرقص قديم كقدم العالم وأن أقدم شعوب الأرض كان لها رقص على أوزان معلومة . فالرقص مرتبط بالموسيقى والإيقاع ، وكثيراً ما كانوا يتبعون الرقص بالتصدية والضرب بالأيدي ، ثم عرفوا الشبابة حتى جاءت المزاهر

والمعازف،وكان الرقص على نوعين : رقص مقدسمن توابع الحفلات الدينية، ورقص عالمي لتسلية العامة ، أي أن الرقص رقصان رقص ديني أو رقص المآتم ورقص الحبور والابتهاج . وفي التوراة أن الرقص كان شائعاً عند العبرانيين ، وقد رقص داود أمام تابوت العهد، ولما خرج بنو إسرائيل من مصر كان لهم نوعان من الرقص ، الرقص المقدس المنظم ورقص سريّ له اتصال بالتعبد على نحو ما كانوا يرقصون في التيه حول عجل الذهب . وكان للعبرانيين نوع من الرقص الشريف يرقصه العذارى في الحفلات العامة احتفاءً بذكرى حوادث سعيدة من مثل انتصار على عدو أو تكريم مجد أبطال الوطن . وهكذا كانالرقص شائعاً عند المصريين، ثم شاع عند اليونان وهم المشهورون بتفننهم فبلغ عندهم أقصى درجات رقيه وانتقل إلى الرومان ، وإذ كانوا شعباً قاسياً غليظاً فَقَد عندهم بهاءه ورواءه وما يقصد منه . ولكل شعب رقصه الخاص به، عليه صبغة أخلاقه القومية الثابتة.ولجميع شعوب الغرب والشرق رقصهم الخاص أو رقصات عرفت بهم وأثرت عنهم . والإنكليز أكثر الأمم انحطاطاً في الرقص لم يبرزوا فيه تبريزهم في معظم مظاهر الحياة القويمة .

وكان الرقص عند العرب كالغناء من الفنون الطبيعية استعملوه في كل دور عرف من أدوارهم . والرقص أو الزفن كان عند العرب على ما يظهر علىالطراز الذي هو عليه اليوم عند العرب سكان القرى والعرب الرحالة ومنه ما يعرف بالدبكة ، فإن وفد الحبشة لما قدم إلى الحجاز جعلوا يزفنون أي يرقصون . وفي حديث فاطمة أنها كانت تزفن للحسن أي ترقص له وفي رواية ترقصه . ومن غريب تفنن العرب في مسائل الظرف والذوق أنهم عرفوا علماً سموه « علم الغنج » عده صاحب الموضوعات من فروع علم الموسيقى وقال : هو علم باحث عن كيفية صدور الأفعال التي تصدر عن العذارى والنسوان الفائقات الجمال والمتصفات بالظرف والكمال إلى آخر ما نقله صاحب كشف الظنون .

والغالب أن رقص الشام اقتبس مع الزمن من أوضاع كثيرة،والأمم تقتبس عن غيرها ما يتلاءم مع مزاجها . وكذلك تقبس غيرها بعض ما ألفته في هذا الشأن . من ذلك أن الرقص الاسباني إلى اليوم لم يبر بعد خمسة قرون من مغادرة العرب أرض الأندلس على الطراز العربي وكذلك موسيقاهم إلا قليلاً . وقد

أصبح الرقص في الغرب علماً بذاته ولكن العرب لم يقصروا فيه ، ولا سيما في عصور البذخ والرفاهية . وبعض المحققين من علماء المشرقيات من الأسبان والبرتغال (مجلة الزهراء) يبرهنون الآن على أن موسيقى الأوربيين وشعرهم انتقلا من فارس إلى أوربا بواسطة العرب ، ومنهم من ينشر منذ سنين قطعاً قديمة ويبين ما فيها من آثار الروح الشرقي ، وكان لنا في الشام نوع من الرقص يسمونه بالسماح (ولعله السماع) يرقصه عدة أشخاص على نغمات متساوقة من الأوتار وترديد جميل من الموشحات فقط ، وهو أشبه بالأوبرا أو الأوبريت Opéra, Opérette عند الإفرنج أي القصائد الملحنة التي تمثل على نغمات الموسيقى فقط ، ويزيد رقص السماح على الأوبرا كونه ترفع فيه الأصوات بأنغام مألوفة .

وفي كتاب مفرح النفس : واعلم أن من الرياضيات البدنية التي تختص بالنفس اختصاصاً كثيراً إلى الغاية الرقص ، وهو عبارة عن حركة متناسبة من اليدين والرجلين بضرب من الضروب المعروفة في الموسيقى بإرادة النفس وشوقاً إلى محل طلبها الأصلي ، قال : إن الرقص مندوب إليه في ترويح الأرواح ونفي كدورة النفس وحصول الإشراق لها ، ويجب أن يكون مع سكون وتجمع من الذهن والعقل فتحصل اللذة والبهجة ، فالرقص له في إحداث راحة النفس وسرورها قوة عظيمة يعجز اللسان عن وصفها والذهن والعقل عن تصورها اهـ.

التمثيل :

ويدخل في باب الرقص أو في باب الموسيقى (فن التمثيل) وهو وإن كان مشهوراً في الشام على عهد الرومان واليونان ، بدليل ما نراه من الملاعب الخاصة به وبعرض الحيوانات والصراع في البتراء وعمان وبعلبك وأفامية ولدّ وقيسارية وغيرها من المدن القديمة . إلا أنه لم يعهد على الصورة المعروفة حديثاً ، اللهم إلا على الندرة عند عرب الأندلس ، وهذا في بعض الروايات . ولقد قالوا : إن أنطاكية أيام عزها ارتقى فن التمثيل فيها حتى كانت تجلب الممثلين من صور وبيروت والمغنين من بعلبك . وقال بعضهم : إن السبب في عدم العناية بالتمثيل في الإسلام حجاب النساء . والتمثيل لا يتم بدون مشاركة الجنس اللطيف . ولما لم يعهد التمثيل عند الجنس السامي لم تخرج العرب عن هدي جنسها . والتمثيل

ما عرف إلا عند الجنس الآري فقط . ومن ذلك الفرس وهم آريون خلفوا للعرب كتاب ألف ليلة وليلة وهو اختراع آري فيه شيء من التمثيل .

وكان العرب في الجاهلية والإسلام يرون من سقوط المروءة أن يمثل مجلس الأمير أو الوزير ، وإن كان لا يخلو تمثيله من حكمة ، فكيف بمجلس صبابة . ومعظم التمثيل يدور عليها ، لا جرم أنهم قصروا في التمثيل ، وتقاعسوا عن اقتباسه عن الأمم الآرية ، وإن عرف من حالهم أنهم لم يأخذوا عن الأمم الأخرى إلا ما اشتدت حاجتهم إليه من أنواع العلوم ، أدمجوه في حضاراتهم ومزجوه بأجزاء نفوسهم . وإذ كان التمثيل لا ينطبق مع عادات العرب ولا عُرف به مجتمعهم أعرضوا عنه ، وجاء الإسلام موافقاً لمصطلحهم وعاداتهم وأخلاقهم في بعض الأحوال .

بيد أن العصر الأخير لم يضنّ على الشام بتجلي الآداب الرفيعة فيه ، فقام فيها سنة (١٢٨٢هـ) في دمشق أيضاً رجل من أبنائها هو السيد أحمد «أبو خليل» القباني من المبرزين في الموسيقى المشهود لهم بالإجادة فأنشأ داراً للتمثيل ، وبدأ يضع روايات تمثيلية وطنية ، من تأليفه ونظمه وتلحينه ، ويمثلها فتجيء دهشة الأسماع والأبصار ، لا تقل في الإجادة من حيث موضوعها وأزياؤها ونغماتها ومناظرها عن التمثيل الجميل في الغرب . واعتاض لأول مرة عن النساء بالمرد ، ولما انتقل إلى مصر لنشر فن التمثيل العربي هناك ، عاد إلى الطبيعة واستخدم في كل دور من يصلح له من الجنسين ، ووجه الفخر في أبي خليل أنه لم ينقل فن التمثيل عن لغة أجنبية ، ولم يذهب إلى الغرب لغرض اقتباسه ، بل قيل له : إن في الغرب فناً هذه صورته فقلده ، وقيل : إنه شهد رواية واحدة مثلت أمامه في إحدى المدارس الأجنبية ، ولما كانت عنده أهم أدوات التمثيل وهو الشعر والموسيقى والغناء ورأى أنه لا ينقصه إلا المظاهر والقوالب ، أوجدها وأجاد في إيجادها ، ولذلك كان أبو خليل مؤسس التمثيل العربي ، ونابغة العرب في الموسيقى والتمثيل ، وروايته التي ألفها ما زالت منذ زهاء ستين سنة وإلى يوم الناس هذا ، موضع إعجاب الأمة ، تمثل في دور التمثيل وتلذ الجمهور مثل رواية أنيس الجليس وغيرها .

هذا وإن سبق لمارون النقاش في بيروت فعرب في سنة (١٨٤٨م) من إحدى

اللغات الأوربية بعض الروايات التمثيلية ومثّلها بالفعل . والإبداع في التأليف والوضع . لا في النقل والاحتذاء ، وإن عدّ الناقل صاحب فضل أيضاً .

ولما كان التمثيل كما قلنا عارضاً على مدنيتنا رجع القهقرى بعد أبي خايل . وظل إلى يومنا هذا يمشي مشياً ضعيفاً ، فلم تقم إلى الآن جوقة تمثيل وطنية تبث في الأمة روح الفضائل والآداب . وتأخذ من الناس بعض أوقاتهم تصرفه فيما يفيدهم فيلهون بما يجلب السرور إلى قلوبهم . والنور إلى عقولهم ، وتتهذب في مدرسة التمثيل اليومية عقول الكبار ، كما تتهذب في الكتاتيب عقول الصغار . فقد قال فولتير : إن المرء يتعلم بالتمثيل أحسن مما يعلمه إياه كتاب ضخم .

ولعل أبناء الشام إذا قويت فيهم أساليب الثقافة الحديثة ، ترتقي فيهم سائر الفنون التي انحطت ولا تزال منحطة ، فتكون من العوامل في نهوضها إلى المستوى اللائق بها في سلم الحضارة والهناء . والتمثيل الراقي أنفع لمجتمعنا من ذاك التمثيل الساذج الذي ما زال في أكثر مدن الشام مألوفاً للعامة ، ونعني به خيال الظل أو الخيال الراقص المعروف أهله بالمخايلية وعرف هذا الضرب من التمثيل عند الترك . وإن لم يكن من اختراعهم باسم (قره كوز) . والتمثيل أجدى على أبنائنا وبناتنا من القصاصين أي الحكوية (الحكواتية) الذين يلهون العامة بغرائب الوقائع في المقاهي ويبثون فيهم سخائف وخرافات .

ومن غريب شأن هذه الأمة أننا رأينا كثيراً من نجباء أبنائها برعوا في التمثيل ، ومنهم من يعرف الأدب وما ينبغي له . قد زهدوا في فنهم ، وكتموا نبوغهم فيه . شأن كثير من أرباب الصوت الرخيم والغرام بالموسيقى ، والضرب على آلات الطرب المتعارفة ، يخافون أن يعرفوا بها ويعمدون إلى التقية كأن من العار التلبس بهذه الفنون الجميلة .

وممن عرفنا منهم نور الدين حقي . حكمة المرادي . صالح الحيلاني . أحمد عبيد . سليم عطاء الله . أمين عطاء الله المعروف بكش كش بلك . واشتهر أيضاً حمزة الأصيل . صالح شهبندر . حسن الساعاتي . إبراهيم المنجد . إبراهيم نفش . راغب السمسمية . جرجي نفش . درويش البغجاتي . أبو الخير الغلاييني . يوسف مردم بلك . خالد السمسمية .

متى ترتقي الفنون الجميلة :

لا جرم أن ارتقاء الشام في هذه الفنون على اختلاف فروعها ، موقوف على ظهور نوابغ من أبنائنا يرحلون إلى الغرب لنقلها والتشبع بآدابها ، ثم يعودون فيلوبون على إحياء ما اندثر أو كاد من هذه الصناعات النفيسة في القطر ، وينشرونها على النظام الغربي الحديث على صورة مقبولة ، وإذا نشأت بعد ذلك مدرسة واحدة راقية في كل فن من هذه الفنون لا يأتي جيل ثان بعد جيلنا هذا حتى يكون عند أهل القطر العدد الذي يحتاجون إليه من الأعيان الذين لا غنية للمجتمع الشامي عنهم في إنهاضه . ويشترط في من يريدون الإخصاء في هذه الفنون أن يكونوا ممن يحبون أن يُعرفوا بما اختصوا به ، أو يسعوا طاقتهم لنشره ، ومن لا يحب صنعته ولا يفاخر بها لا يبرز فيها ، وعندئذ نعدّ شيئاً مذكوراً بين أمم الحضارة في باب هذه الفنون كما كان أجدادنا .

يقول الجاحظ : إن الضحك في موضعه كالبكاء في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه ، وإنما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجدّوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزوا ، وكدوا ليستريحوا ، وقد قسم الله الخير على المعدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة ، وعلى الإعلان والتقية ، فأمر بالمداراة كما أمر بالمباداة ، وجوّز المعاريض ، كما أمر بالإفصاح ، وسوغ المباح ، كما شدد في المفروض ، وجعل المباح جِماماً للقلوب ، وراحة للأبدان ، وعوناً على معاودة الأعمال اه .

الزراعة الشامية

العامر والغامر :

حياة الشام بزراعته ثم بصناعته وتجارته ، والقرى والبوادي أوسع بقعة وأوفر سكاناً من المدن والحواضر ، ولا نعلم مقدار سكان الشام في القرون التي سبقت الإسلام ولا في القرون التالية، وقال بعضهم: إن سكان الشام عند دخول العرب كانوا ستة ملايين على وجه التخمين ، ولكن الظاهر من مصانع أهلها وطرقهم القديمة التي كانت تربط أجزاء القطر كالشبكة وآثار عمرانهم مثل حنايا بعض الجسور الكبرى،وخرائب القصور الفخمة،والدمن التي تشاهد الآن في أواسط الفلوات الخالية ، والعاديّات والآثار الجمة، يدل على ارتقاء زراعتهم وكثرة ثروتهم ونفوسهم . فقد كانت حوران أنبار الشام على عهد الرومان لوفرة حبوبها ولا تزال هي والبلقاء على كثرة ما تعاقب عليهما من الأيدي الظالمة في الأكثر ، معروفة بهذه الصفة وجودة حنطتهما التي لا مثيل لها ، وما يقال عنهما يقال عن جميع الأصقاع الشامية . ولا سيما ما كان بقرب المياه والأودية فإنه عامر بطبيعته لا يحتاج إلا لأمن ونظام حتى يفيض لبناً وعسلاً .

ومغل حوران كسيل دافق   يأتم من أرجاء جلق موجلا

ومما أقامه الرومان لحفظ زراعة البلقاء وحوران وما كان على سيف البادية من مرج الغوطة وأداني جبل قلمون وتدمر فحلب فما وراءها ، مخافر مجهزة أحسن جهاز لمنع البادية من التسلل إلى المعمور ، لأن داء الغارات على الزروع والعيث في العامر من الأدواء القديمة . واعتداء الرحالة من أهل الظعن ، على المقيمين من أهل الدساكر والمزارع ، النازلين في الدور والمساكن ، داء قديم

عـُقام على ما يظهر . وما اتخذ الروم من الغسانيين في الجنوب ، والتنوخيين في الشمال عمالاً لهم إلا ليقوموا بإنفاذ هذا الغرض، ويأمنوا بسلطانهم عيث البادية على أرض الشام الجميلة .

وليست البادية التي تحد أكثر هذاالقطر من الشرق كما قال الدكتور پوست، باديةً حقيقية لأنه يقع فيها بعض المطر في فصل الشتاء ، وينبت فيها عشب ترعاه المواشي ، وتسكنها قبائل شتى من العرب ، وتتدرج هذه البادية إلى جهة شمالي الشام ، في السهل المتسع الممتد من نواحي حلب إلى ما بين النهرين ، وكان هذا السهل مسكوناً في قديم الزمان ، ولم تزل فيه آثار عظيمة تدل على كثرة الذين سكنوه ووفرةثروتهم ،إلا أنه أمسى الآن قليل السكانتجول فيه العرب والأكراد. وقد أكد موسيل أن البلاد الواقعة في شرقي الأردن كانت قبل مئة وعشرين سنة عامرة بالسكان وهي اليوم تكاد تكون خالية لعيث البادية .

وأهل الوبر الذينيشتون منذ القديم بمواشيهم فيما وراء بادية الشام من الفلوات تشتد حاجتهم في الربيع إلى أن يدخلوا المعمور ، فإذا حصدت الزروع يضطرون إلى رعي أنعامهم وأغنامهم في أرض الحصيد ، ومراعي دير الزور والجولان طلباً للماء ، والتماساً لبيع حاصلاتهم واستبضاع ما يلزمهم . وإذ كانت أرض السقي أقلّ من أرض العذي بالشام ، ومعظم الأنهار لا يستفاد من سقياها اليوم كما كانت الحال عند الأقدمين ، زاد اعتداء البادية على مهاجمة البلدان الخصبة.

قلة العناية بالأنهار :

نقول هذا وأهم أنهارنا الفرات وهو نهر يتاخمنا من الشرق ، ولا نستفيد منه الاستفادة المطلوبة لأنه منحط عن مستوى أرضنا ، ولم يكن كذلك في الدهر السالف بما كان يعهد به من السدود والسكور التي كانت سبب غنى العراق ، وبالطبع غنى الأقاليم المتاخمة له من أرض الشام . ولا يستفاد من الأنهار التي تشق قلب القطر الفائدة المطلوبة في الريّ . فالأردن مثلاً يشق بعض أرجاءفلسطين والعاصي الذي يجري من سفوح لبنان ماراً بحمص فحماة فأنطاكية حتىالسويدية لا ينتفع بهما على ما كان الحال قديماً . فقد انتهى إلينا من عمل القدماء سد قـَدَس بالقرب من قرية قطينة بجوار أرض حمص ، وكان أعلى مما هو الآن بحيث يتأتى

أن يسقي العاصي بواسطته وما اخترع له من النواعير ، جميع الأرض العالية في وادي نهر المقلوب كما كانت العرب تسمي العاصي . ولا تزال إلى الآن آثار السدود والقني في غور الفارعة بادية للعيان، تدل على أن القدماء كانوا ينتفعون من مياه نهر الأردن أكثر منا اليوم . ويقول صديقنا الأمير شكيب أرسلان : إن الأراضي التي لها حظ من الشرب في هذه الغيران (جمع غور) إنما تسقى من أودية جارية من الجبال مثل سيل الزرقاء ، والسائل من جهة عجلون إلى الغرب ، ومثل مياه بَيسان المنحدرة من صوب مرج بني عامر إلى الشرق ، ومثل ماء الفارعة النازل من الغرب إلى الشرق ، ومثل عين السلطان التي تسقي جنان أريحا ، ومثل غور نمرين المنحدر من وادي شعيب أسفل الصلت إلى الغرب وماء حسبان وغيرها من المياه ، وهذه الجداول كلها لو اجتمعت ما ساوت معشار الأردن الذي أصبح عاطلاً من كل عمل اه .

وحالة الإرواء في أكثر الأنحاء البعيدة ما زالت على الفطرة القديمة . فالقريب من الماء يروي أرضه أو بستانه بالقربة أو المدار كأهل الزور وجزيرة ابن عمر في أقصى الشام ، فإن هذه الأنحاء في وسط المياه كالفرات والخابور وغيرهما من كبار الأنهار وقلما تستفيد منه ، وقد خربت السدود القديمة ولم يعمل غيرها ، ذلك لأن الأنهار الكبيرة ولا سيما الفرات قد تتحول عن مجراها في معظم السنين لأنها خالية من الجوانب المتينة المحددة ، وهي في أرض رخوة خبار ، فإذا فاضت طغت على الأرض اللينة .

وكان نهر بردى ونهر الأعوج يستفاد منهما أكثر من جميع الأنهار التي تعطش الأرض التي حَفافيها ، وهي من مجراه على قيد أشبار ، أو يترك للبحر يصب فيه على هينته وهواه ، كنهر عفرين والأسود وقاديشا والأولي والأزرق والعوجا وإبراهيم والمقطع والقاسمية وغيرها . وكم في هذه الديار من آثار قنوات عجيبة مثل قناة بسيمة في سَنير ، وربما كان ماء عين الفيجة يسيل منها إلى بلد بعيد كما هو المأثور ، ومثل قناة مَنين التي جرها المأمون إلى معسكره في أعلى قاسيون بدمشق . وكم من قناة طمت بتهاون الفلاح فهلك مع أرضه عطشاً ، لأن الحكومات قلما التفتت في الأدوار الأخيرة إلى العناية بأمرها ، والأعمال

المشتركة قلما تجد لها نصيراً في هذه الأرض ، ولو كانت مياه الشفة فكيف بمياه الري ري الأرض .

خراب الزراعة والمزارع :

ويمكن أن يقال إنالقطر خرب بنزول الفاتحين المخربين والعاهات الطبيعية ثم من فساد النظام في الدولتين الجركسية والتركية في القرون الوسطى إلى هذا العهد ، وقد كان مسرح ظلم ، وميدان حروب وغارات ، يهلك الفلاح فيه كما يهلك النمل تحت الأقدام ، وقبل أن يهلك ابن المدن الذي له من اجتماعه بأخيه ، واعتصامه وراء حصنه وسوره بعض الوقاية ، وكانت القرى التي على جوانب الطرق تخرب قبل غيرها ، وعلى نسبة قرب القرية من المدينة أو من الطرق الموصلة أو طرق الغزاة والفاتحين ، كان الخراب إليها أسرع من الماء إلى الحدور . وكان من دلائل القوة في تلك الأعصر أن تخرب القرى وتلقى النار فيها إذا غضب الملك أو الأمير أو المقدم أو صاحب الإقطاع على ذاك الإقليم أو تلك القرية . وكان قطع الأشجار من أبلغ أنواع النكاية في الخصم ولذلك أمثلة كثيرة في القديم والحديث إلى زمن كتابة هذا الفصل . وما أصيبت به الأشجار في غوطة دمشق خلال الثورة الشامية الأخيرة مثال مما تعمله الحكومات حتى باسم الحضارة . فكأن طبائع الحكومات واحد يوم تغضب من شعب أو تريد أن تكره التناء على النزول على إرادتها .

وأهم ما أثر في حالة الفلاح نظام الحكومات ، لأن أصول الإدارة لم توسس في هذه المملكة على ما يجب ، وكانت المظالم الأرضية و المفاسد البشرية أشد تأثيراً في أهل الفلح والكرث والقائمين على تربية الماشية والضرع ، من الآفات السماوية ، كالزلازل والأوبئة والقحط من قلة أمطار أو فيضان أو انتشار جراد أو ديدان وجرذ وفيران .

هذه العوامل هي جماع الخراب الذي أصاب العامر فدمر القرى والأقاليم ، ومنها ما لا تزال دمنه ومياهه شاهدة على ماضيه الزاهر ، فقد ذكر الظاهري من أهل المئة التاسعة للهجرة أنه كان على عهده نيف وألف قرية ومدن صغار في حوران ، وأنه كان في إقليم غوطة دمشق نيف وثلاثمائة قرية وبه مدن صغار وبلدان تشابه المدن ، وأنه كان في وادي التيم وما إليه ثلاثمائة وستون قرية ، وإذا

أحصيتَ قرى هذه الأقاليم الثلاثة اليوم لا تجدها في حوران تزيد على أربعمائة قريةومنها الخِرَب ، وفي الغوطة على ثنتين وأربعين ، وفيوادي التيم على ثلاثين إلى أربعين . وهكذا سائر الشام . فإن حلب كان فيها قبل العثمانيين ٣٢٠٠ قرية فأصبحت ٤٠٠ في القرن الحادي عشر ، ومنها ما ظل خراباً إلى النصف الأخير من القرن الماضي لأن معظم عهد العثمانيين انقضى في مظالم ومغارم ، وكان من جندها ولا سيما الإنكشارية في آخر عهدهم أدوات تخريب لم يشهد الناس أفظع منها ، لذلك خربت حتى الضواحي والأرباض من المدن الحافلة أمثال حلب ودمشق وحماة وحمص وما شاكلها . وكانت رجل الإنكشاري بل الجندي التركي على الإطلاق حيث دبت يدب الدمار والبوار . ولذلك لا نكاد نرى عمراناً إلا على طول الطرق العامة الكبرى وما إليها من اليمين والشمال ، ونشاهد المدينتين العظيمتين حلب ودمشق مثلاً ينقطع في الحال أو على ساعات قليلة عمرانهما الذي كان وارف الظلال إلى القاصية. وكان هذا بفعل البادية وفعل الجيوش المدمرة .

عوامل الخراب :

ولولا ذلك الظلم المتسلسل قروناً في أعقاب الفلاحين المساكين ، وأسواط النقمة التي انهالت على رقابهم الجيل بعد الجيل ، لما تيسر اليوم لأحد أن يملك المزرعة والمزرعتين بل ربما العشر والعشرين قرية ، وبعض الأسر الحديثة تملك الخمسين والثمانين ، والإنسان قد تكفيه المئة دونم أو جريب إذا أحسن تعهدها ، فكيف له أن يعمر ألوفاً من الأفدنة ، ويتسع وقته وماله لحمايتها وترقيتها ؟

نقول حمايتها لأن كثيراً من القرى تنازل عنها مُلاكها لأرباب النفوذ ليحموهم من ظلم الحكام والمرابين ، وأخذوا ثمنها بضع عباءات وغلايين ، أو قفة من البن أو رطلاً من الدخان أو أُقة من الحلوى المعروفة بالبقلاوة ، ومن الأراضي ما توسل أهلها إلى أرباب المكانة أن يسجلوها في دائرة التمليك بأسمائهم لما شرعت الدولة العثمانية ١٨٨٢م بتسجيل الأملاك على أصحابها ، وذلك فراراً من ظلم عمال تلك الحكومة ومن وضع الرسم المعتاد ، ومنهم من تخلوا للأعيان عن أراضٍ عانوا مع آبائهم زراعتها زمناً طويلاً ، تخلصاً من تسجيل نفوسهم

لما حررت النفوس ، ومن أهل القرى من خرجوا عن ملك أراضيهم لأنه وجد فيها قتيل ، وكانت العادة ولا تزال إلى اليوم أن يلزم أهل الأرض بدية من يقتل فيها أو تفرض غرامة ثقيلة عليهم ، فمنهم من تركوا أرضهم مخافة أن يُلزموا بمال لا قِبَل لهم بأدائه . ومن القرى ما خرج عن ملك أهله كما وقع لأهل مرج ابن عامر في القرن الماضي لما عجزوا عن دفع الأموال الأميرية فباعته الحكومة التركية بالثمن البخس صفقة واحدة لرجل واحد مقابل رشوة قبضها الوالي .

ومن المرابين من اقتنوا قرى كثيرة في الديار الشامية لأنهم كانوا لا يشفقون على الفلاح باشتطاطهم عليه بأخذ الربا الفاحش . وما زلنا في كل دور نرى الفلاح في أكثر الأقاليم يقترض المئة بمئة وخمسين من الخريف إلى البيدر وأحياناً ترتفع الفائدة إلى أكثر من هذا القدر ، فإذا أُضيف إلى ذلك ظلم الأعشار (١) وتعدد الضرائب على الفلاح حتى كاد يهلك بسببها ، لا نستعظم إذا رأينا خراباً ، بل نقول : لماذا نرى هذه الرشاشة من العمران قرب المدن والثغور ، وعلى شواطىء الأنهار والبحيرات .

ولقد كانت الأوقاف من جملة ما أخر الزراعة ، ذلك لأن الأراضي الموقوفة تجمد على حالة واحدة في أشجارها وغلاتها ومجاريها وسكورها وزرائبها ، وكل جسم لا ينمو يصيبه الفناء . وعلى كثرة ما وقف المسلمون على أعمال البر وغيرها لا يمضي القرن والقرنان حتى يعود الوقف ملكاً صرفاً ، ولولا ذلك لكثر الخراب أكثر مما هو الآن في القرى والحدائق . ولو دام حكم إبراهيم باشا المصري إلى اليوم لأصبحت أرضنا عامرة كمصر لأنه نشط الزراعة وأمر بنشر دود الحرير ودود القز وعلم الأهالي كيفية قطف الزيتون بالأيدي حتى صار شجره يعطي ثمراً في كل سنة فاستعادت بعمله أكثر القرى عمرانها القديم .

كتب قنصل بريطانيا في دمشق سنة ١٨٥٩م بمناسبة زيادة الضرائب على الأهلين وتوكيل الجنود بجبايتها بالعنف : إن الحكومة تأخذ مال الشعب ظلماً وعنفاً ، ولا تحميهم من البدو الذين يزدادون جرأة واعتداءً ، وعملها قائم

---

(١) جربت الحكومة في الشام في سنة ١٩٢٥م طريقة التربيع فجمعت مقدار أعشار سنتين قبل الحرب وسنتين بعدها وأخذت ربعها وأنشأت تتقاضى مالا مقطوعاً . وألغت بذلك الأعشار فألغت بإلغائه نظاماً سيئاً من نظم القرون الوسطى .

بابتزاز أموال الفلاحين التعساء لما فيه مصلحتها ، على حين لا تأتي بدليل على إدراكها وجوب حماية الذين يجب عليهم أن يدفعوا الأموال اللازمة لتحسين حال الولاية ، وسد حاجات الحكومة المركزية ، وإنما تهمل الاحتياط للأمر . وقال أيضاً : « إن جو الشام‌صاف وهواءها جيد وأرضها خصبة حسنة الري ، ففي مكنتها أن تصبر على هذه الحالة أكثر من غيرها من الولايات الأقل خصباً ، ولكن لا بد في آخر الأمر من أن تفرغ هذه الموارد » .

آفة الهجرة على الزراعة :

ومما أصيبت به الزراعة من الآفات آفة دونها الآفات كلها ، بدأت تدب في جسمها أواخر القرن الماضي بركوب الفلاحين غوارب الاغتراب عن الوطن في التماس الرزق وطرق الغنى . وذلك منذ دهش الناس لأرباح المهاجرة الأوّل من الشاميين إلى أميركا . أرباح لم يكن لابن هذه الأرض عهد بها وكان ثلاثة وعشرون قيراطاً من أربعة وعشرين قيراطاً منهم يعيش ، ولا سيما في الأرض القاحلة ، عيش القلة الشديدة . فلم يلبث الناس في الجبال أن حذوا حذو أولئك المهاجرين ، فأخذ الناس ينزحون إلى أميركا الجنوبية والشمالية وإلى اوستراليا وجنوبي إفريقية وغيرها من البلاد المفتتحة حديثاً ، حيث يسهل جَني المال ، وتزيد أجرة العامل على نفقته كثيراً .

وهاجر ألوف أيضاً إلى مصر والسودان عقبي الاحتلال الإنكليزي سنة (١٨٨٢م) فحرمت الشام في أربعين‌سنة نحو سبعمائة ألف يد عاملة ، كان ثلثهم يستوطن في‌الأصقاع التي نزلها ، تمسك بتلابيبه لكثرة علائقه‌وطيب العيش فيها ، والثلث الثاني يهلك ، والثلث الثالث يرجع . ولم تلبث الهجرة أن عمت جميع السكان ، اقتصرت على أبناء الجبال أولاً ، ثم تناولت ابن السهول ، وانتقل الغرام بها من ابن القرية إلى ابن المدينة . ومن جملة ما زاد في عدد المهاجرين‌سهولة السفر وتأليف شركات للتسفير تسلف المهاجر أجرة طريقه ونفقاته الأولى ريثما يجد عملاً حيث ينزل .

وهذه الهجرة من أعظم ما أخر حال الزراعة في هذا القطر ، فأصيبت بضربة مهمة أهمها ارتفاع أجور العملة فيها لأن من عاد منهم يحمل مالاً ولو

قليلاً استنكف عن العمل في الزراعة كما كان هو وأبوه ، ومنهم من بنوا القصور الغناء والدور القوراء في مزارعهم ، وأخذوا ينعمون بطيب العيش ، ويبحثون أوقات فراغهم في أمور ما كانت لهم ولا كانوا لها ، ويلهون ويلعبون على الطرق التي اقتبسوها في مهاجرهم . وقد كانت جبال لبنان وعامل والعلويين وقلمون والخليل والسامرة من أشد الأصقاع التي تأذت بالهجرة فتأخرت زراعتها فوق تأخرها . ولقلة اليد العاملة رأينا بعضهم في البقاع يقرن امرأته إلى ثوره تعمل مع فدانه ، ورأينا الحوارنة يستكثرون من الأزواج يتخذونهن أجيرات في أعمال الحقل وعلف الدواب واستخراج الدرّ وعمل السمن واللبن . ولئن دخلت القطر أموال طائلة بسبب الهجرة فثروة أمة لا تعد بكثرة نقدها بل بكثرة ما يعمل أبناؤها في أساليب الرزق المختلفة ، وقلّ أن أنفق مال يذكر على تحسين الزراعة وإقامة الشركات النافعة ، ونحن لم نبرح ننشد مع حافظ إبراهيم :

أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على أرض من الذهب

خصب الأراضي ومعالجتها وما يزرع فيها :

يضرب المثل بزكاء منابت الشام واعتدال أهويتها ، وجودة مناخها ، وكثرة مياهها ، على كثرة حزونها وجبالها ، وإن أرضاً تعطي حبتها في بعض الجهات مئة حبة ، كأرض الرحبة بالقرب من جبال الصفا ، لتعد من أخصب بقاع الأرض ، وذلك لأن أرضها مستريحة منذ العصور المتطاولة . فإذا كان بنو إسرائيل قد جعلوا عادة لهم أن يريحوا أرضهم مرة كل سبع سنين ، فإننا قد أرحناها منذ قرون ، ولذلك لا تضن علينا بخيرات سطحها كلما حرثناها وزرعناها .

وما زالت زراعتنا كما عرفها الأجداد بل كما عرفها الإنسان منذ آلاف من السنين ، ليس فيها شيء من العلم إلا التجارب ، ولا من التغيير إلا ما تضطر إليه الأحوال وتهدي إليه الفطرة ، ولذلك يعوزها كثير مما يجود في غيرها من النباتات والأشجار . قال الرحالة فولني في كلامه على مناخ الشام : إن الأرز يجود زرعه على شواطىء بحيرة الحولة ، والنيلة تنبت بلا عمل على ضفاف نهر الأردن في بَيْسان وهي لا تحتاج إلا إلى قليل من العناية حتى تستوفي الشروط المطلوبة . وبعد أن أفاض القول على مدن الشام قال : إن دمشق تفاخر وحق

لها الفخر بأن فيها كل الثمار التي تحصل في ولايات فرنسا . ثم ذكر أن البن الذي يزرع في تهامة اليمن تلائم زراعته أرض الشام ، ومناخها يلائم طبائع الثمار كلها فينبت النخل كما ينبت الصنوبر والسرو .

وقال « هوار » : لئن كان القطن زرع في أوربا فإن ضواحي هاتين المدينتين (دمشق وحلب) كانت خاصة بزراعة شجيرة القطن ، وهذه الحقول البديعة توجب حيرة السياح ، والقطن الصغير الطول ينبت في ضواحي دمشق، وكانت عكا واللاذقية وقبرس تعطي صنفاً ثالثاً من القطن ، وكانت أرجاء نابلس إلى عهد قريب تصدر من القطن ما قيمته مئات الألوف من الدنانير .

وقال « پوست » : تقسم فلسطين باعتبار الفلاحة إلى أربعة أقسام: السواحل كساحل غزة ويافا وشارون وهي صالحة لنمو مزروعات المنطقة تحت الحارة، ووادي الأردن (العَرَبة) وهي تناسب مزروعات المنطقة الحارة والجبال وفيها أودية كثيرة مخصبة كمرج ابن عامر «يزرعيل»، والأودية المجاورة كالناصرة ونابلس والخليل « حبرون » وهي تناسب مزروعات المنطقة المعتدلة ، والسهول الداخلية وهي تناسب في الأكثر الحنطة والشعير والسمسم . قال : ولا شك بأن هذه البلاد كانت ذات أشجار برية وبستانية أكثر مما هي الآن . وكان التراب على جوانب الجبال أكثر مما هو اليوم ، وكذلك العيون فإنها كانت أكثر عدداً وماءً فضلاً عن أن مياه الشتاء كانت تجمع في مساقي وصهاريج. وقال «ورن»: إن فلسطين « شرقي الأردن وغربيه » كافية لسكنى خمسة عشر مليوناً من الجنس البشري إذا اعتني بها الاعتناء الواجب. قلنا: إذا كانت الشام على هذه الصفة من الخصب والسعة فكيف لا تسع العشرين مليوناً من الناس وكل إقليم من أقاليمها كالبلقاء أو الجولان مثلاً يعد الصالح من تربته أكثر من مملكة من الممالك الصغرى في أوربا ، ولكن السر بالسكان لا بالمكان .

تقسيم السهول والجبال :

قسم صاحب كتاب الزراعة العملية الحديثة أقاليم الشام الزراعية إلى خمسة أقاليم يتركب كل منها من عدة مناطق تكاد تكون واحدة في درجة الارتفاع عن سطح البحر وهي :

(١ً) أقليم الغور أي شواطىء الأردن وهو يمتد من بحيرة الحولة شمالاً إلى بحيرة لوط جنوباً ، أي أراضي جنوب بحيرة الحولة وأراضي البطيحة والغوير وسمخ والقسم الشرقي من بحيرة طبرية وأرض جسر المجامع وبَيسان وجنوب بَيسان وغور الصلت ومنطقة أريحا وشواطىء بحيرة لوط . ومن جملة نباتات هذا الأقليم البَردي والأسَل والقصب الفارسي والأكاسيا الشوكي والسوسن وزنبق الماء على شواطىء بحيرة الحولة والسدر الكثير في الأراضي المجاورة لبحيرة طبرية كأرض الغوير والمجدل والبطيحة وغيرها والغار والطرفاء والقصب وأنواع النخيل وسفط السيال والرتم والبان والصلة والغرقد والعوسج والعشر وغيرها على شواطىء الأردن في منطقة بَيسان وشرق الشريعة والصلت وأريحا .

(٢ً) إقليم السواحل التي تمتد من شبه جزيرة العقبة إلى خليج الإسكندرونه ويشتمل على السهول الساحلية من غزة ويافا وحيفا وعكا وصور وبيروت وطرابلس واللاذقية والإسكندرونة ويدخل فيه مرج ابن عامر وأراضي جنين وشمال بحيرة الحولة ويجود فيه الليمون والبرتقال والموز والرمان . ومن جملة نباتات هذا الإقليم الطبيعية البلان والصنوبر البحري والقندول والوزال والطرفاء وأنواع البرسيم والشقائق والدّفْلى والأقحوان والقصب الفارسي وأنواع مختلفة من البلوط

(٣ً) أقليم السهول وتدخل فيه سهول الكرك والبلقاء وحوران وسفوح حرمون والبقاع والجولان والغوطة والمرج والسهول المرتفعة في فلسطين وحمص وحماة وحلب وما شاكلها من السهول المتقاربة في إقليمها، وتجود في هذا الأقليم الأشجار المثمرة والخضر والتوت واللوز في الأرض البعلية والحور والصفصاف والدلب في شواطىء الأنهار .

(٤ً) إقليم الجبال ويدخل فيه جبال الكرك والصلت وعجلون وقلمون وجبل الشيخ ولبنان ولبنان الشرقي والنصيرية والأقرع ، ويجود فيه الزيتون والكرم والتين واللوز والصنوبر والسرو والفستق البري والميس والحبوب وكثير من الأشجار المثمرة ، وفيه من النباتات الطبيعية البطم والقَيْقَب والجنستا والخرنوب والزعرور والعليق والشذاب والدردار والزيتون والسنديان والدلب والصنوبر والديشار والآس والسَرْخس، وفي أقسام الجبال المرتفعة بعض أنواع البلوط ثم الأرز والدفران.

(٥ً) إقليم الصحراء وتتناول ما نسميه بادية الشام أي الأصقاع الواقعة شرق المعمور من دمشق تنبت فيه بعض النباتات والأعشاب منها ما يزول في الربيع ومنها ما يبقى في الصيف . وليس في هذا الإقليم سكان إلا البدو الضاربون في أرجائه .

من الذين أدخلوا الطرق الجديدة :

أدخل ثلاثة أصناف من الناس في الشام روحاً جديداً في زراعتها، ومنهم مهاجرو قافقاسيا وغيرهم ممن سكنوا قرى كثيرة في عمل حلب ودمشق وعمّان، فإن هؤلاء أدخلوا أصول الزراعة على طريقتهم وهي أرقى من طريقة من نزلوا عليهم في حمص والبلقاء والجولان مثلاً . ثم إن الألمان الذين أقاموا لهم مستعمرات في حيفا ويافا منذ (١٨٦٨م) قد كانوا مثال الفلاح النشيط، وكان على فلاحنا المجاور لهم أن يتعلم منهم ويعتبر بما يأخذه الفلاح الجرماني من وافر الغلات ، ويتعلم منه تنظيم داره وإصطبله وحديقته ومزرعته وتعليم أولاده وغير ذلك مما يعود عليه بالنفع والراحة . وأهم من أدخلوا التجدد في الزراعة في ربوع الشام الصهيونيون من مهاجرة ألمانيا ورومانيا وروسيا وبولونيا وغيرهم ، فإنهم والحق يقال قد أنشأوا بأموال روتشلد وبركم وفيرو وفيتيفيوري وغيرهم من أغنياء الإسرائيليين الذين ابتاعوا الأراضي في فلسطين لأبناء نحلتهم ، وأمدوهم بالمال ليتوفروا على استثمارها ، مزارع حرية بأن تكون نموذجات الحقول ، وقد قامت الجمعيات الصهيونية مثل الجمعيات الصهيونية اليهودية وجمعيات ايكا وفاعوليم والأليانس وغيرها بأعمال مهمة لنشل أبناء دينهم من سقطتهم، وأنشأوا لهم قرى كسارونا وزمارين والخضيرة وملبس والجاعونة والشجرة وغيرها هي كالقرى الأوربية بإتقان أعمالها الزراعية . وممن ساعد على إنجاح الزراعة بعض مهاجري اللبنانين الشرقي والغربي فإن منهم من وضع مما اقتصد من المال أمواله في الزراعة وأدخل طريقة الأميركان في أرضه .

درس الزراعة :

وكان من أثر مدرسة الزراعة العملية في نيتر قرب يافا التي أُسست منذ نحو خمسين سنة ، وكان يتخرج فيها في السنة على الأقل عشرون تلميذاً يستطيع

تطبيق علمه الزراعي على العمل – أن نشرت أصول الزراعة الحديثة بين أبناء إسرائيل ، وغدا فيهم الكفاة للقيام على الحرث والتسميد والبذر و الغرس والتعهد والتقليم والتطعيم ، وأصبحت مستعمراتهم تخرج أصنافاً جيدة من الخمور واللوز وغيرها لا تخرجها القرى المجاورة لها .

ومن مدارس الزراعة التي نفعت بعض أبناء سورية وفلسطين مدرسة اللاطرون بين يافا والقدس أنشأها الآباء البيض . ومدرسة تعنايل بين بيروت ودمشق أنشأها الآباء اليسوعيون. وقد أنشأت الحكومة السابقة مدرسة زراعية في سَلَـمْية لكنها ضعيفة في تلقين العمليات والنظريات ، وقد ألغتها مؤخراً بحجة أن تلاميذها لم يعملوا في الصناعة التي اختصوا بها ، وآثروا التوظيف في أعمال الحكومة ، وذلك على شرط أن تؤسس مدارس عملية أخرى ومشاتل في كل قصبة فلم يتم شيء من ذلك .

ومن الغريب أن الزراعة وهي تكاد تكون في هذا القطر المحبوب مورد عيشه الأول ، لم يدرسها إلى اليوم سوى أفراد قلائل ، ولا أذكر سوى بضعة شبان ممن يملك آباؤهم مزارع واسعة تعلموا فن الزراعة على الأصول في مدارس فرنسا وإنكلترا وتونس ومصر والإستانة ، وجاءوا فعنوا بتطبيق ما تعلموه ، وكان الواجب أن يكون لكل بضع قرى مهندس زراعي ، يعلمها من علمه ويمدها بتجاربه ويدير شؤونها كما يدير أهل البصر في الغرب مزارعهم .

نقص كبير :

إلى اليوم لم تدخل على ما يجب أرضنا الأدوات الزراعية الحديثة التي تقلل عمل الأيدي وتزيد النماء كآلة الحرث والبذر والدرس والتذرية دع غيرها ، وما أبقاه لنا بعض علماء العرب من الكتب الزراعية التي طبع بعضها بلغتنا في أوربا دليل كبير على ترقي هذا الفن أيام لم يكن في الأرض من يحسنه . سبق العرب الغرب في كل شيء ، وسبقهم هو اليوم ويا للاسف في كل شيء ، والدهر دول يوم لك ويوم عليك .

سبق الأجداد في كل شيء ، وتأخر الأحفاد في كل شيء ، والفلاحة التي هي أشرف الأعمال وضيعة في نظر كثيرين حتى إن بعضهم قال وقد رأى

السكة في دار : ما دخلت هذه السكة دار قوم إلا ذلوا ، ولو قال : ما خلت هذه السكة من دار قوم إلا ذلوا لكان أقرب إلى الصواب . شعار الغرب اليوم «الأرض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » وإذا كانت الفلاحة عندنا ينظر إليها نظر احتقار فمن باب أولى أن ينظر إلى الفلاح كذلك وهو خادم الوطن الحقيقي . وإذا كان الفلاح كالسلطان في مزرعته عند الأمم الممدنة ، فهو هنا عبد رقّ لصاحب الأرض وللحكومة وللمرابي .

وبينا نرى أرباب المزارع في الممالك الراقية ، ومصر منها ، يُعنون براحة فلاحيهم وتعليم أبنائهم وبناتهم ، وتوفير قسطهم من الصحة والهناء ، ويجعل لهم حتى في قراهم مدارس ومعابد ودور تمثيل وصور متحركة للتسلية ، نجد أكثر المزارعين هنا يجدّون في أن يبقوا فلاحيهم جهلاء أغبياء حتى يخضعوا لهم بزعمهم أبد الدهر خضوعاً أعمى ، وقلّ أن سمعت بأن مزارعاً أنشأ لفلاحيه عندنا مدرسة بسيطة أو مسجداً وأتاهم بخطيب يعلمهم أو بطبيب يطبهم ، ولذلك تجد القرى التي يملكها أفراد صفراً من هذه الوجهة ، لأن صاحب القرية لا يهتم إلا لتكثير الدخل السنوي وإرهاق فلاحه ، وابن البادية والقائمون على الزرع والضرع أقل الأمة ويا للأسف حظاً من التفكر بسعادتهم ، كأنهم ليسوا مادة الثروة ، إذا اختل نظامهم تطرق الخلل إلى سائر مذاهب المعاش ، ومقومات الحضارة ومظاهر الرخاء والهناء .

ولا يزال يدور على الألسن في وصف الفلاحين أنهم « غبر الوجوه إذا لم يُظلموا ظَلَموا » ولكن تثقيف أودهم بالتربية قلما يخطر ببال ، وقطع الجرثومة من أساسها لا نراه دواء عاجلاً !

التحسين الأخير :

على أن من الواجب أن يقال أيضاً : إنه استفادت كثير من قرى الغوطة والمرجين ووادي العجم والبقاع وبعلبك والحولة وجبال عامل وعكار والحصن ونابلس وعكا والخليل وغزة وسهول حمص وحماة وحلب وأنطاكية وإسكندرونة والسويدية عمراناً منذ ثمانين سنة بفضل بعض طبقة الأعيان ، لأنهم استطاعوا أن يحموها من عيث البادية وعبث الظلمة من العمال ، وأن يمدوها بالمال وقت

العسرة . فغُرِّموا على تحسينها أموالاً ، وصرفوا قواهم إلى الانتفاع بها ما أمكن . وكان العربان يداهمون حتى القرى القريبة من الحواضر ، ويطلبون منها « الخوة أو الخاوة » وهي مبلغ من المال يتقاضونه من الفلاحين البائسين يؤدونه لصعاليك البدو صاغرين ، وإذا استنكفوا عن أداء ما يطلب منهم ، محتجين بضيق ذات اليد أو رداءة الموسم ، نهبوا دورهم وحرقوا عروضهم وغلاتهم واعتدوا على أرواحهم . وقد كانت معظم الأرياف مأوى الأشقياء وعصابات قطاع الطرق ، فما كان الفلاح يجسر أن ينتقل من قرية إلى أُخرى ، أو يحمل محاصيله إلى المدن ، ولا أن يعمل في حقله البعيد قليلاً عن القرية أو المزرعة .

فلما طبق قانون الولايات سنة (١٢٨١هـ) ثم أُنشئت المحاكم النظامية كان من أثرها القضاء على عصابات من أرباب الدعارة ، وقلّت الشقاوة ، فانصرف الفلاحون كلهم إلى العمل ، لأن الأسعار بدت بالارتفاع ، فبعد أن كان الحوراني ينقل غلاته على الجمال إلى بيروت أو عكا فلا يتحصل منها غير أجرة النقل ، أصبح الفلاح يحمل غلاته إلى المواني البحرية ولا سيما غزة ويافا وحيفا وبيروت وطرابلس واللاذقية والإسكندرونة فتأتيه بأرباح طائلة ، لأن الحبوب كالثمار ، أصبحت تسافر في البحار ، ويدفع في ثمنها النضار .

وانتبه الفلاح لحاله بكثرة اختلاطه بابن المدن فعرف بؤسه ، فلم يكن على ما كان منذ سبعين سنة مملوكاً لجهله الطبيعي . ولظالميه من المرابين وغيرهم من أدوات التخريب . وكان من تأسيس المصارف الزراعية ، وإن كانت قليلة رؤوس الأموال ، ويجب أن يكون فيها التسهيل كثيراً ، أن أنزلت معدل الربا إلى سبعة في المئة ، فخففت من غلواء المرابين والصيارفة . ولو زيد في ترقية المصارف الزراعية وأُنشئت مصارف عقارية تقرض أرباب العقارات أيضاً بفائدة معتدلة لزادت المنافع المطلوبة للزراعة .

وصادف أن قلت آفات الزراعة في العهد الأخير ، فأصبحت الأوبئة في البشر والبقر لا تفعل فعلها الشديد كما كانت في الأدوار السالفة ، وردمت بعض المستنقعات الصغيرة التي كانت بجوار بعض القرى ، وعني ديوان الصحة بفتح مستوصفات في القصبات ومستشفيات في المدن ، فتحسنت الصحة بعض الشيء ، وأصبح الفلاح يدرك فائدة التطبب ، وإن أعوزه الطبيب أحياناً ، وفتحت وزارة

المعارف مدارس ابتدائية في بعض القرى الكبيرة فدخلت المدنية قليلاً وزادت النفوس زيادة محسوسة ، وربما زادت عما كانت عليه منذ سبعين سنة سبعة أضعاف . وهذه الزيادة أفادت الزراعة أيضاً . ولم تصب بعض الأصقاع الزراعية بالضعف إلا مدة الحرب الأخيرة ، وقد كلب عمال الترك فاستلبوا من الفلاح ابنه وبقره وغنمه وخيله وحميره وبذاره وحطبه وقطنه وصوفه وقشره ، ولو طالت الحرب سنة أخرى لحصد الوباء البقري الأبقار من أكثر أنحاء الشام ، لأن ما بقي سالماً منها كانت الحكومة تأخذه للنقل أو للذبح ، فتعطل بعضهم عن الحرث ، ولكن من نجوا من هذه الغوائل ولو قليلاً استفادوا من ارتفاع الأسعار أرباحاً طائلة ، فوفوا ديونهم وخرجوا وقد أغنتهم الحرب ولم تفقرهم .

وما زلت أعتقد أن أصحاب الحوانيت مقصرون جداً في تعليم الفلاح ، وتحسين حالته المعاشية والمنزلية والصحية ، حتى كاد يصبح بطول الزمن شقيق البهائم لا يفرق عنها إلا أنه ناطق ، وهذا النقص يحمل عليهم وعلى الحكومة . فقد تجتاز إلى اليوم القرية والقريتين في الأرجاء البعيدة ولا تجد رجلين أو ثلاثة من أهلها يقرأون ويكتبون على ما يجب ، فكيف لهم أن يعرفوا مالهم وما عليهم من الحقوق والواجبات . ولا يستقيم للزراعة حال فيما أرى إلا إذا علّمت كل أسرة يأتيها رزقها من الزراعة أحد أبنائها هذا الفن الجليل ، ولا تمضي بضع سنين حتى تدخل الشام في طور الأقطار الزراعية الراقية ، وعندها تتضاعف الثروة مرتين أو ثلاثاً ، وينقطع دابر الهجرة ويعمر الغامر كما يزيد عمران العامر . ويعتقد الناس أن العز والغنى معقود بالأرض ، وأن الشرف يستمده المرء من عمله الحر الحلال .

عناية الأقدمين بالزراعة :

إن ما انتهى إلينا من الكلام القليل على الزراعة الشامية لا يشفي غلة الباحثين اليوم ، لأنه مجمل يحتاج إلى تفصيل كثير . وإذا عرضنا له هنا فللاستئناس به في تاريخ الزراعة في الجملة ، فقد علمنا أن الإسرائيليين كانوا يريحون الأرض سبع سنين ثم يزرعونها فتأتي غلاتهم مخصبة نامية . وعلمنا أن النبطيين وهم

العرب الرحل في أرجاء البتراء في الجنوب كان من المحظور عليهم أن يزرعوا الحنطة ويغرسوا الأشجار المثمرة ويبنوا البيوت إذ كانوا يعتبرون أن الاحتفاظ بهذه الخيرات يحتاج إلى أن يفادي المرء بحريته . وعرفنا أن الفينيقيين كانوا لا يُعنون بالزراعة عنايتهم بالتجارة ، فكانوا يجلبون من الداخل ومن السواحل القريبة منهم ما يلزمهم في غذائهم. حتى إذا جاء العرب وأبدوا ما أبدوا من حب التحضر كان قانونهم من أحيا أرضاً مواتاً فهي له واطرد ذلك منذ الفتح . واغتبط العرب بما وجدوه من الخصب في هذه الربوع بعد قحولة الحجاز وبواديه المحرقة فقال زياد بن حنظلة في فتح عمر مدينة إيليا من قصيدة :

وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها   وعيشاً خصيباً ما تعد مآكله

حتى إذا تربعت أُمية في دست الخلافة وأخذ آلهم ورجالهم يقتنون المزارع ، ويبالغون في اتخاذ الغروس والزروع المثمرة المغلة ، جعلوا القرى مستغلات لهم ونزلوها وعُنوا بعمرانها ، وتنافسوا في ذلك . فقد ذكر المنبجي أن هشام بن عبد الملك اتخذ المستغلات الكبيرة في أكثر المدن التي في سلطانه ، والخانات والحوانيت والحجر والضياع والمزارع ، وهو أول من اتخذ الضياع لنفسه من العرب ، واشتق أنهاراً كثيرة غزيرة ، وهو الذي استخرج النهر الذي فوق الرقة ، وغرس غرساً كثيراً بالجزيرة والشامات ، فبلغت غلته أكثر من خراج مملكته .

ولطالما عُني الخلفاء بأن لا تبقى أرض شاغرة لا تستغل ، فقد أنزل معاوية قوماً من الفرس في طرابلس ، وكان الرشيد لما انتشر ذاك الطاعون الجارف في فلسطين على عهده وكان ربما أتى على جميع أهل البيت فتخرب أرضوهم وتعطل، قد وكل بهذه الأرضين من عمرها فكان يتألف الأكرة والمزارعين إليها فصارت ضياعاً للخلافة .

وما زالت العناية بتعهد الأرض متوفرة حتى اغتنى العرب الذين استغلوا هذه الديار بذكائهم وبعد نظرهم. والعرب كما – قال أحد علماء الإفرنج – عمال زراعة ورجال براعة ، برعوا في سقي الجنائن واخترعوا النواعير العجيبة بل ووطنوا النباتات والأشجار الإفريقية والآسياوية في أوربا كالنخل والبرتقال والتوت والقطن وقصب السكر والذرة والأرز والحنطة السوداء والزعفران والهندباء

والحرشوف والسبانخ والباذنجان والطرخون والبصل والياسمين الخ وينسب إليهم اختراع طواحين الهواء ونواعير الماء . وقال ميشو : ما من دار في أوربا إلا وتعرف اليوم البصل Echalote الذي جاء اسمه وأصله من عسقلان . ومعلوم أن الأندلس ابنة الشام فتحها الشاميون ونقلوا إليها مدنيتهم . وهذه الصنوف من الزراعة التي انتشرت في الأندلس ثم في سائر أوربا تكاد تكون خاصة بأرض الشام في تلك القرون .

لا جرم أن الحضارة التي أوجدها العرب كان من أول دعائمها الزراعة فاحتاجت الدولة والأمة إلى الاستكثار من الغروس واستجادة الزروع من وراء الغاية . قيل لإسحاق بن يحيى الختلي من ولاة دمشق(٢٣٥) لِمَ سكنت دمشق وفلحت أرضها ، وأكثرت فيها من الغروس من أصناف الفاكهة ، وأجريت المياه إلى الضياع وغيرها؟ فقال: لا يطيق نزولها إلا الملوك قيل له: وكيف ذلك؟ قال : ما ظنكم ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار !. ولطالما دهش العرب بغوطة دمشق لأنها كانت أول ما يقع عليه نظرهم من عمران الشام فيعجبون للأشجار والزروع المنوعة التي لا يُعرف أكثرها في شبه جزيرة العرب ويدهشون للخصب والمياه الدافقة من كل جهة .

أصناف الزروع والأشجار :

ذكر المهلبي أنه تجلب من كور حلب وضياعها ما يجمع جميع الغلات النفيسة فإن بلدة معرة مصرين وجبل السماق بلد التين والزيتون والزبيب والفستق والسماق والحبة الخضراء . وقال ابن شداد : وفي بعض ضياع حلب ما يجمع عشرين صنفاً من الغلات . وقال ياقوت : ويزرع في أراضيها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح عذياً لا يسقى إلا بماء المطر ، ويجيء مع ذلك رَخصاً غضاً روياً ، يفوق ما يسقى بالمياه والسيح وقال: إن أكثر مستغل ضياع الغور السكر ومنها يحمل إلى الآفاق ، وفي عسقلان نخل كثير وصنوف من التمور والرمان يحمل إلى كل بلد بحسبه ، وإنها معدن الجميز كثيرة المحارس والفواكه . واشتهرت نواز في جبل السماق بتفاحها الكبير المليح . وتل أعرن في حلب بعنبها الأحمر المدور . وقال ابن جبير : في بلاد المعرة وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل

التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين . وقال ابن حوقل : وما حول معرة نسرين من القرى أعذاء ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين ، وكذلك أكثر ما بجميع جند قنسرين أعذاء ومياههم من السماء . وقالوا : اشتهرت الفرزل في البقاع بزبيبها الجوزاني ، وكان يعمل به الملبن المسمى بجلد الفرس وهو من خصائصها ، وأن بعلبك معدن الأعناب والحولة معدن الأقطان والأزهار ، واشتهرت بَيسان بالنخيل الكثير كما اشتهرت بيروت وآبل بقصب السكر ، يطبخ بها السكر الفائق ، وعراق الأمير بسفرجلها ، والناعمة بخرنوبها الفائق . وقال المقدسي : إن عسقلان معدن الجميز وأريحا معدن النيل والنخيل كثيرة الموز والأرطاب والريحان . ومعان معدن الحبوب والأنعام ، ويُبنى معدن التين الفائق الدمشقي . وأن أشجار جبال فلسطين زيتون وتين وجميز وسائر الفواكه أقل من ذلك . وقال : خير العسل ما رعى السعتر بإيليا وجبل عاملة وأجود المري ما عمل بأريحا ، وأن عنب القدس خطير وليس لمعنقتها نظير .

وذكر ابن حوقل أن أهل زُغر يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخل بالطلع الذكر وكما يلقح أهل المغرب تينهم بأذكارهم . وقالوا : إن لبنان كثير الأشجار والثمار المباحة يتعبد فيه أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القش يأكلون من تلك المباحات ، ويرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك .

وقال شيخ الربوة : ولجبل لبنان ولا سيما بقضيبه وأذياله نحو من تسعين عقاراً ونباتاً نافعاً مباحاً بلا ثمن وله قيمة جيدة وثمن يكتفي به الجابي الجامع طول سنته له ولأهله ، ومن ذلك الكثيراء والريباس والبرباريس والقاوينا وهو عود الصليب والقيسه والبقس والقبقب الذي يعملون منه المرامل والملاعق والآلات المموهة بالذهب والفضة ويحمل إلى سائر البلاد والأقاليم ، وليس عملاً ألطف منه ولا أحسن ، ومن النباتات أيضاً شجر المحمودة والاشتوان والزراوند والحماما التي لا توجد إلا في إقليم دمشق وهو معلق في شقيف عالٍ ما يقدرون على جنيه إلا أن يدلوا جانبه بحبال من رأس جبل عالٍ ، كما يدلى الدلو في البئر ، وهي لأجل الترياق الفاروق والراوندان واللوز المر والحلو والأبهل والقراصيا والزيزفون ، وأما الفواكه فكثيرة جداً بلبنان اهـ .

وذكر الثعالبي أن التفاح اللبناني موصوف بحسن اللون وطيب الرائحةولذاذة الطعم يحمل منه في القرابات إلى الآفاق ، وكان يحمل إلى الخلفاء في بغداد منه من خراج أجناد الشام ثلاثون ألف تفاحة . وقال المقدسي في الرملة : إنه ليس أطيب من حوارى الرملة ولا ألذ من فواكهها ، أطعمة نظيفة وأدمات كثيرة وأنها جمعت التين والنخل وأنبتت الزروع على البعل وحوت الخيرات والفضل . وقال : إن ماء فلسطين من الأمطار والطل وأشجارها أعذاء وزروعها كذلك لا تسقى إلا نابلس فإن فيها مياهاً جارية . وقال ياقوت : إن ياسوف من قرى نابلس توصف بكثرة الرمان .

وقال أبو الفدا : إن جبال فلسطين وسهلها زيتون وتين وخرنوب وسائر الفواكه أقل من ذلك . وذكر المقدسي أن على نحو نصف مرحلة من كل جانب من حبرون قرى وكروم وأعناب وتفاح يسمى جيل نضرة لا يرى مثله ولا أحسن من فواكهه عامتها تحمل إلى مصر وتنشر . وقال ابن حوقل في زغر : إن بها بسراً يقال له الانقلاء لم ير بالعراق ولا بمكان أغرب ولا أحسن منظراً منه لونه كالزعفران ولم يغادر منه شيئاً ويكون في أربع منه رطل ، وبها النيل الكثير المقصر عن صباغ نيل كابل ، وفيه لهم تجارة كبيرة واسعة ومقصد كبير. وقال الظاهري : إن غزة كثيرة الفواكه . وقال ابن بطلان في أنطاكية : إن أرضها تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون . وقال ياقوت : وبدمشق فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حرّان وما يقارب ذلك فتعم الكل . ولقد ذكروا في باب خصب أريحا أن الجفنة التي عمرها ٤٢ سنة تكون استدارتها على سطح الأرض مترين وثلاثين سنتيمتراً وتحمل في السنة ١٥٠٠ كيلو من العنب وأنه يضرب المثل بورودها وأزاهيرها ويخرج منها الزقوم والسدر وهو أشبه بالزيتو ن الكبير يستخرجون منه زيتاً للجروح . وكذلك النبق وهو بمقام الصبار والزيزفون في بلاد أخرى يستعمل حيطاناًللحوائط أي للبساتين .

وذكر الثعالبي أن زيت الشام يضرب به المثل في الجودة والنظافة وإنما قيل له الزيت الركابي لأنه كان يحمل على الإبل من الشام وهي أكثر بلاد الله زيتوناً

وفيه ما فيه من البركة والمنفعة . وقال شيخ الربوة في نابلس : وقد خصها الله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة وهي الزيتون ويحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية وإلى الحجاز والبراري مع العربان ويحمل إلى جامع بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي ، ويعمل منه الصابون الرقي يحمل إلى سائر البلاد التي ذكرناها وإلى جزائر البحر الرومي ، وبها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض . والظاهر أن هذه الشجرة المباركة شجرة الزيتون آخذة بالاضمحلال قياساً مع حالها في القديم ، فقد قلّ عدده في فلسطين بعد الحرب العامة واستعيض عن بعضه بما بذلته الحكومة هنا من الجهد لغرس الزيتون والكرمة ، أما في أرباض دمشق فهو آخذ بالقلة منذ اشتهرت الفواكه وهي هينة العمل سريعة الغلة ، وكان في حمص على ما تبين من الحفريات التي أُجريت زيتون كثير بدليل ما وجد من معاصره التي لم يبق لها زيتون تعصر منه ولا تجد الزيتون اليوم في أرجاء حمص إلا في بقعة أو بقعتين . واشتهر في القديم زيتون الطفيلة والشوبك اشتهارهما بمشمشهما وكمثراهما ورمانهما . سألنا أحد شيوخ الصلت عن السبب في إحجام القوم هناك عن غرس شجر الزيتون مع أنه يجود كل الجودة فقال : لا تذكرنا بغباوتنا فقد حملنا سعيد باشا شمدين أحد متصرفي البلقاء على أن نغرس في هذه الأودية التي تراها مئة ألف زيتونة فوقع في أنفسنا أن في الأمر دسيسة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا وتسجيل أراضينا على صورة لا نعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالأمر بالظاهر ، وغرسنا ألوفاً من شجر الزيتون ، ولكن أتدري كيف تخلصنا منه بعد ؟ كان أحدنا يجيء الى الغرسة فيحركها حتى لا يطلع جذعها وهكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون إلا ما تشاهده اليوم في جوار القصبة وقليل ما هو . قلنا : وعجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالأمس كانوا يحملون الناس على زرع الأشجار . ويزينون لهم اقتناء الأراضي للزراعة ، واليوم يطلب الأهلون في هذا العمل وفي غيره الأرض الموات ليحيوها ولا يعطون طلبتهم ! هكذا رأينا أهل الشراة والطفيلة ومعان ، على حين يقضي قانون الأراضي بأن كل من يحيي أرضاً مواتاً تبعد عن القرى والدساكر مقدار ما يسمع الصوت فيها من أقصى العامر فهي له . ولقد رأينا كثيراً من

أهل القرى استأصلت أشجار التين والكرمة وغيرها لأن العشارين كانوا يتقاضون منهم عشرها فاحشاً أثمرت أم لم تثمر ، فعدمت بعض القرى شجرها المثمر بهذا الظلم ! .

وما قيل في كثرة الزيتون يقال في كثرة الأعناب واشتهرت بلدان كثيرة بذلك ، وقد أكثر شعراء العرب من ذكر خمر بيت رأس ولبنان وغزة وجدر وصرخد وأذرعات والأندرين وبنات مَشْيَح وبَيسان ولدّ ومآب والخمر المقَدِّيّة وخمر الأحصّ وقاصرين (في أرجاء حمص وحلب) وكان يقال لجبل بيت المقدس جبل الخمر لكثرة كرومه . واشتهرت حلبون في جبل سنير بخمرها وكثرة كرومها . ويظهر أن الزعفران كان كثيراً ما يجود في الشام لأنه كان يدخل في الأطعمة والأشربة كثيراً ، ومزارع الزعفران التي كان يطلّ عليها من دير مرّان في السفح الغربي من قاسيون جبل دمشق مشهورة ، والغالب أنها كانت في أرض النيرب ، وكان الزعفران يجود في جادية في قرى البلقاء والجادي هو الزعفران . ولم تكن عنايتهم بالنخيل أقل من عنايتهم بالزيتون والكرم مثلاً ولا سيما في جنوب الشام وشرقه .

ولا أثر اليوم لبعض الثمار مثل القراصيا والكستانة والبندق والبيسيم (المشمولة) وكانت كثيرة مبذولة هي والكراز حتى القرن الحادي عشر وكان القطن يجود في ضواحي دمشق وحماة وحلب . ذكر القلقشندي زروع الشام وفواكهه ورياحينه فقال: إن غالب زروعه على المطر قال في مسالك الأبصار : ومنها ما هو على سقي الأنهار وهو قليل وفيه من الحبوب من كل ما يوجد في مصر من البُرّ . الشعير . الذّرة . الأرز . الباقلاء . البِسِلّة . الجلبان . اللوبياء . الحلبة . السمسم . القرطم . ولا يوجد فيه الكتان والبرسيم . وبه من أنواع البطيخ والقثاء ما يستطاب ويستحسن . وكذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس . الملوخيا . الباذنجان . اللفت . الجزر . الهليون . القُنّبيط . الرّجلة . البقلة اليمانية ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة ، وقصب السكر في أغواره إلا أنه لم يبلغ في الكثرة حد مصر .

وأما فواكهه ففيه من كل ما يوجد في مصر كالتين . العنب . الرمان . القراصيا . البرقوق . المشمش . الخوخ — وهو المسمى بالدراقن — والتوت

والفرصاد ، ويكثر بها التفاح والكمثرى والسفرجل مع كونها أكثر أنواعاً وأبهج منظراً ، ويزيد عليه فواكه أخر لا توجد بمصر ، وربما وجد بعضها في مصر على الندور الذي لا يعتدّ به كالجوز . البندق . الإجّاص . العُنّاب . الزعرور ، والزيتون فيه الغاية في الكثرة ، ومنه يعتصر الزيت وينقل إلى أكثر البلدان وغير ذلك . وبأغوارها أنواع المحمضات كالأترج . اللّيمون . الكباد . النارنج . ولكنه لا يبلغ في ذلك حد مصر . وكذلك الموز ولا يوجد البلح والرّطب فيه أصلاً . قال في مسالك الأبصار : وفيه فواكه تأتي في الخريف وتبقى في الربيع كالسفرجل والتفاح والعنب .

وأما رياحينه ففيه كل ما في مصر من الآس والورد والنرجس والبنفسج والياسمين والنسرين ، ويزيد على مصر في ذلك خصوصاً الورد حتى إنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منه إلى سائر البلدان . قال في مسالك الأبصار : وقد نسي به ما كان يذكر من ماء ورد جُور ونصيبين .

وبعد فقد دخلت الشام في العهد الحديث عدة ضروب من الزروع والغراس لم تكن له فيه من قبل مثل الشوح . الأوكالبتس . الأكاسيا . المشمش الهندي . البندورة (الطماطم أو القوطة) والبطاطا فكان منهما فائدة جلى وأصبحت البندورة والبطاطا من أهم أنواع التغذية ، وسرعان ما انتشر الغرام بهما وعمت القاصية والدانية زراعتهما .

الأشجار غير المثمرة :

كانت الشام مشهورة بسروها وصنوبرها وأرزها ، ويقول الشجارون : إنه كان في غوطة دمشق ألوف من أشجار السرو انقرضت ، وأدرك الغزي في حلب من شجر السرو الهرمي والصيواني أشجاراً قليلة ثم فقد عن آخره ، وكان يوجد منها بكثرة ، وأحسن الجبال في الشام التي احتفظت بغاباتها بعض الشيء جبل لبنان ، فإن الصنوبر والأرز فيه كثير . وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام على تاريخ الأرز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ، ولأن من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة

في بيت لحم، وقالوا: إن الأشوريين والبابليين والفرس والمصريين استعملوه في قصورهم وبناء هياكلهم واستعمله الإسكندر المقدوني في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ من مدينة صور وكذلك السلاقسة أدخلوه في بناء دورهم. وكانت أخشابه تحمل إلى طرابلس وصيدا وصور وبيروت وتعمل منها السفن وفيها عمل معاوية أساطيله لغزو الروم. وما برح كثير من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الأرز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من مملكة إلى أخرى. وهو عطر الرائحة إذا وضع في النار ويحسن في المشم إذا مسسته بيدك، ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبث به الأرضة ولا يفعل فيه السوس. والغالب أن الحكومات السالفة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها وهي السرو والعرعر والأرز والصنوبر وتسمح باحتكار غيره وبدأ النقص في هذه الأشجار منذ خمسة قرون وقد احتاج اللبنانيون إلى الاحتطاب للدفء والعمارة، وكانوا يسمون رزق الرجل أشجاره، وإذا غضب الحاكم على أحدهم يقطع شجره فيقولون في أمثالهم الدارجة (الله يقطع رزقه) أي شجره كما يقولون (الله يخرب زوقه) أي بيته، وربما أسرع اللبنانيون في احتطاب شجر الأرز وغيره لئلا تصدعهم الدولة العثمانية كما أن كثيراً من القرى في القاصية كانت أيام الأعشار تقطع التين والكرم وغيره من مثمر الشجر لتخلص من ظلم العشارين الذين يتقاضون العشر من الشجر أثمر أم لم يثمر على ما تقدم.

ولم يبرح شجر الأرز مشاهداً في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الأبهل، وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة النمو، لكثرة الأمطار والثلوج والعواصف في تلك الأرجاء، ومنها ما غرس حديثاً، وثالثة فوق قرية عين زحلتا، وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه، ورابعة بين أفقا والعاقورة في جرد جبيل من جبل كسروان، وخامسة بين قرية تنورين وبشرّي صغيرة الشجر وعدد شجيراتها نحو عشرة آلاف، وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الأرز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى

وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع طولهما خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة . وفي تسريح الأبصار أنه لا أثر اليوم في الشام لشجر الأرز إلا في أعالي سير بالضنية في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر . وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند أهله تنوب Sapin على أن في جبال قرهمورط إحدى شعاب جبل اللكام من عمل أنطاكية غابات من الأرز وغيره من فصيلته. ولو توفرت العناية بأمثال هذه الأشجار وقضت الحكومة على كل فلاح أن يغرس ويتعهد عشر شجرات منها ، إذاً لما مضى خمسون سنة حتى تصبح الشام كسويسرا بأشجارها الغضة الملتفة ، تحسن المناظر والمناخ ويكون منها عموم النفع ، كلما وقع القطع منها في ثلاثين سنة كما تجري فرنسا في غابة فونتينبلو وغيرها من غاباتها البديعة المشهورة . ولا تكون في جمالها أقل من شجر الأرز الذي يكسو نجاد جبال طوروس (الدروب) ووهادها فترى فيها تلعة مستطيلة إلى جانبها تلعة هرمية وأخرى ذات شكل بيضوي وغيرها المحدودب والمربع أو قائم الزوايا ومنفرجها وكلها مزينة بالأشجار .

يقول كاتب چلبي من أهل القرن الحادي عشر : إن غابات الشام كثيرة أشهرها غابة عسقلان وهو حرج كبير يمتد إلى نواحي الرملة . ومن الغابات غابة أرسوف بالقرب من نهر العوجا تمتد إلى عكا وكان يقال له غاب قلنسوة وهذا الحرج يمتد من قاقون إلى عيون التجار ، ومن الحراج حرج القنيطرة ، وفي أطراف حلب عدة غابات وخصوصاً الغاب الكبير ويقال له الزور وأكثر شجره التوت اه . ولقد ثبت أن الغابات كانت في القرون السالفة أكثر من اليوم وأن معظم جبالنا التي نراها اليوم جرداء كانت خضراء وأن التجريد من الغابات وقع في أدوار مختلفة فقد ذكر ابن حوقل أن جبل قلمون وجبل المانع وجبل الشيخ المحيطة بدمشق كانت منذ القرن الرابع مجردة من أشجارها قال : إنك إذا كنت في دمشق ترى بعينك على فرسخ وأقل جبالاً قرعاء من النبات والشجر وأمكنة خالية من العمارة .

وتجريد الشام من غاباته دعا إلى زيادة مساحة عدد البطائح والمستنقعات وتأليف صحار من الرمال فقد قالوا : إن الظلال كانت تمتد شرقي قيسارية على ستة أو

ثمانية كيلو مترات فأصبحت اليوم عبارة عن كثبان من الرمل . وهكذا سواحل فلسطين بل معظم سواحل الشام طمت عليها مياه البحر فأبقت فيها الرمال وألّفت منها بطائح ومغايض وأفسدت الأراضي العامرة . ولهذا النظر قلّ ولا شك مساحة المزروع من أرض الشام سنة عن سنة والمستنقعات معروف ضررها بحياة الفلاح وإن كانت أقلّ من الكثبان والحرار . وضرر المستنقعات يتناول الأنفس لما ينبعث عنها من الحميات التي كثيراً ما رأيناها تقفر قرى برمتها من سكانها . وقد قال الزراعي أرنزون : إن أهم الآفات التي ابتليت بها الغابات ثلاث : الرعي المتبادل وحق المرعى في الأراضي الخالية والحيوانات الصغيرة ولا سيما الماعز وفأس الحطابين . ونسب خراب الغابات في فلسطين – وسائر الشام تتصرف عليها – إلى إصدار الخشب والتبن والسماد إلى الخارج ، وقال : إن الربح من إصدارها لا يوازي خراب الغابات وقلة غذاء الحيوانات وبوار الأراضي بقلة السماد والسباخ .

الأشجار المثمرة وغيرها :

وكانوا يتفننون بتسمية الفواكه والبقول والورود. قال البدري: والعنب في دمشق فقط أصناف : البلدي . خناصري . عاصمي . زيني . بيتموني . قناديلي. إفرنجي . مكاحلي . بيض الحمام . حلواني . بوارشي . جبلي . قصيف . ابزاز الكلبة . قشلميش . كوتاني . عبيدي . شحماني . جوزاني . دراقني . مخ العصفور . عرايشي . رومي . شبيهي . ينطاني . عصيري . رناطي . ورق الطير. سماقي . حرصي . مجزع . شعراوي . دربلي . قاري . علوي . عينوني . مورق. مشعر . مسمط . مرصص . مخضر . مقوس . حمادي . تفاحي . رهباني. زردي مبرد . مخصل . مغاربي . شحمة القرط . وقسم المشمش إلى أحد وعشرين صنفاً وهي : حموي . سندياني . أويسي . عربيلي . خراساني . كافوري . بعلبكي . لقيس . لوزي . دغمشي . وزيري . كلابي . سلطاني . حازمي . أيدمري . سنيني . برديّ . مُلَوّح . قرط البخاتي . جلاجل القلوع . الخ . ووصف العماد الكاتب المشمش الدمشقي فقال : طلعت في أبراج الأطباق كأنها كرات من التبر مصوغة ، وبالورس مصبوغة ، صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية ، حلا

منظراً وذوقاً ، ولو نظم جوهره لكان طوقاً ، كأنما خرط من الصندل ، وخلط بالمندل ، وجمد من الثلج والعسل ، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس ، والتناجي بما في النفوس .

وقال البدري : ومن خصوصيات دمشق « الطرخون » من بقول المائدة وكان يخرج فيها السذاب والرشاد وبقلة الحمقاء والماش والهندباء والكراويا والتوت الأسود والشامي . وكان يكثر فيها الكراز والوشنة وهو فيها سبعة أنواع . وذكر أن الورد جنس تحته ستة أنواع بدمشق ومنه الجوري والنسريني ، والنرجس جنس تحته أنواع منها اليعفوري والبري ، والمضعف وذكر منثورها وزنبقها وآذريونها وآسها وحبه وريحانها ونيلوفرها وبانها وحيلانها وزنزلختها وتمر حنائها وقراصياها وكمثراها (ثلاثة وعشرون صنفاً) وتفاحها ودراقها (ستة عشر صنفاً) وخوخها (ثلاثة عشر صنفاً) إلى غير ذلك مما كان في القرن التاسع .

الصناعات الزراعية القديمة :

وكانت الزهور والورود من أهم فروع الزراعة ، وللطيوب والعطور ومستقطرات الزهور ، شأن وأي شأن منذ الأزمان المتطاولة . وكان للأقدمين على ما يظهر غرام شديد بالملاب العطر المائع والكباد اليابس ، ويستعملون المسك والعنبر والزعفران كثيراً ، ويولعون بالعَرف والأريجة ، وكان لهم طيب يقال له الغالية وهي مسك وعنبر يعجنان بالبان قال ابن سيده : ويقال إن الذي سماها غالية معاوية بن أبي سفيان وذلك أنه شمها من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فاستطابها فسأله عنها فوصفها له فقال : هذه غالية . وقد حفظ لنا شيخ الربوة من أهل القرن الثامن شيئاً من الإشارة إلى كثرة الورد والزهر في دمشق فقال : إن العطر وغيره كان يستخرج في المزة من ضواحي دمشق من زهورها وورودها حتى إن حراقته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ويكون ألذّ من المسك إلى مدة انقضاء الورد . وذكر صفة إخراجه في الكركات والأنابيق ورسم صورها — والقرع والأنبيق آلتان لصنع ماء الورد السفلى هي القرع والعليا على هيئة المحجمة هي الأنبيق — قال : وغير هذه الكركة كركة أخرى يستخرج منها الماورد وغيره من المياه بلا ماء بوقود الحطب وذلك

بعد حشو القرع بالورد وبلسان الثور وبزهر النوفر أو البان أو زهر النارنج والشقيق والهندباء أو بورق القَرنفل المزروع بدمشق .

قال: ويحمل الورد المستخرج بالمزة إلى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك وكذلك يحمل زهر الورد المزي إلى الهند وإلى السند وإلى الصين وإلى ما وراء ذلك ويسمى هناك الزهر . ومما أرخوه إنه كان لقاضي القضاة الحنفية ولأخيه الحريري قطعة بأرض تسمى شُور الزهر طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين ألف درهم وذلك سنة خمس وستين وستمائة وهذا لم يسمع بمثله اه .

وكانت حلب في القديم مختصة بماء الورد النصيبي الذي يستخرج بالباب من أعمالها قال ابن الشحنة: إنه لا يقاربه شيء مما يجلب إلى الديار المصرية من الشام ولا يدانيه مع أن المجلوب من دمشق عند المصريين في غاية العظمة بحيث يصفه أطباؤهم للمرضى فيقولون ماء ورد شامي . وينبت في أرض حلب زهر القرنفل وكان يستقطر ماؤه . واشتهرت في القديم زهور لبنان وما إليه من الجبال كجبل الشيخ فإنها كثيرة مبذولة في الربيع شأنها في مراعي الجولان والعمق والبقاع والبقيعة كما اشتهرت طيوب البلقاء وصموغه وكانت تحمل إلى مصر . وقلّ اليوم من يلتفت إلى هذه الصناعات الزراعية .

ومن صناعاتهم الزراعية في القديم السكّر وكان يعمل في القديم على ضفاف الأردن ولا تزال معامله في جنوبي الغور تدعى إلى اليوم مطاحن السكر ، وكان السكر أكثر مستغل تلك الناحية يحمل إلى الشرق والغرب . وكان يصنع السكر في أنطاكية وطرابلس وعكا ويافا ويحمل منها إلى الآفاق . قال القلقشندي من أهل القرن التاسع : في الشام يعمل السكر الوسط والمكرر . وكانت زيوت الشام كخمورها تصدر إلى القاصية. ويعصر السليط أي دهن السمسم في دياف من حوران وبه اشتهرت . وكان الصابون الحلبي والنابلسي وغيره مما يفيض عن حاجة القطر يباع منه في الأقطار الأخرى . وكان الجبن الكركي مشهوراً يصدر إلى مصر .

وقد قامت الحكومة العثمانية إبان الحرب العامة بعمل بعض المحفوظات والمربيات في دمشق فتعمل الحساء ذروراً ثم يذاب في ماء حار وقت الاستعمال فيأتي كأنه طبخ الساعة واستخرجوا من العظام مرقاً معقماً . وأخذوا يعملون

من الثمار والبقول مجففات ومحضرات على طريقة لا تنقص من تغذيتها وتكون عند الاستعمال كأنها طرية حديثة عهد بالقطف من الشجرة أو المسكبة . وبلغ عدد البقول المربية عشرة أنواع كان يتناولها الجندي في كل وقت كأنه على مقربة من الحدائق والمباقل والمقاثي . واستخرجوا في معامل الفيلق بدمشق أشربة كثيرة من ماء الزهر وماء الورد وشراب قشر الليمون وقشر البرتقال تجعل أرواحها في زجاجات وتكفي القطرة منها كأس ماء لتكون حلوة ذات نكهة تستعمل في أشربة الجيش ولا سيما في مستشفيات البادية . وبالجملة فقد كان لتعقيم السوائل واستخراج الأشربة وتجفيف الثمار والبقول وخبز الأخباز بالآلات الكهربائية الصحية شأن لم يعهد في الشام ثم تنوسي بعدهم .

ومن صناعاتهم العسل وكانوا يغالون بأكله كثيراً واشتهر عسل سنير وجبل الثلج كما اشتهر دبس بعلبك وجبنها وزيتها ولبنها ،قال ياقوت: ليس في الدنيا مثلها يضرب بها المثل . وكانت بيسان توصف بكثرة النخل ، و النخيل مما يجود في الأغوار وكان كثيراً في القديم والشاميون يعنون بتعهده من وراء الغاية .

ويظهر أن العسل والزعفران والدبس والقنود والتمور كانت مما يعول عليه في الأطعمة والحلواء أكثر من اليوم . ولدينا وثيقة في بعض المأكولات ذكرها أبو القاسم الواساني من شعراء اليتيمة الدمشقيين نظمها منذ نحو ألف سنة فيوصف جماعة زاروه في قرية جمرايا على مقربة من الهامة في غربي دمشق ، ومما جاء فيها ما أكلوه من الأطعمة وفيه إشارة إلى كثرة أنواع التمر :

أكلوا لي من الجرادق ألفيـــ ـــن بنّ[(١)] تشتاقه العارضان[(٢)]
أكلوا لي أضعافها غير مشطو ر[(٣)] ومالوا إلى سميذ[(٤)] الفران
أكلوا لي من الجداء ثلاثيـ ـن قُرَيْصاً بالخل والزعفران
أكلوا ضعفها شواءً وضعفيـ ـها طبيخاً من سائر الألوان
أكلوا لي تبالة[(٥)] تبلت عقـ ـلي بعشرٍ من الدجاج السمان

(١) البن: ضرب من الكوامخ وهي المخللات تستعمل لتشهي الطعام .
(٢) العارضان: شقا الفم .
(٣) المشطور: الخبز المطلي بالكامخ .
(٤) السميذ: بإعجام الدال وإهمالها هو الحوارى أي الدقيق الأبيض .
(٥) التبالة: ضرب من أطعمتهم والتابل ج التوابل أبراز الطعام . وتبلت عقلي أسقمته .

أكلوا لي مضيرة[١] ضاعفت ضـ ـري بروس الجداء والعقبان
أكلوا لي كشكية[٢] قرحت قلـ ـبي وهاجت لفقدها أشجاني
أكلوا لي سبعين حوتاً من النهـ ـر طرياً من أعظم الحيتان
أكلوا لي عدلاً من المالح المشـ ـويّ ملقى في الخل والأنجدان[٣]
أكلوا لي من القريشاء[٤] والبر ني والمعقلي والصرفان[٥]
ألف عدل سوى المصقر[٦] والبر دي واللؤلؤي والصيحاني
أكلوا لي من الكوامخ[٧] والجو ز معاً والخلاط[٨] والأجبان
ومن البيض والمخلل ما تعـ ـجز عن جمعه قرى حوران

ومن صناعاتهم الزراعية صناعة الصابون وكانت من أنجح الصناعات القديمة ومصابنه في حلب وكلز وإدلب وأنطاكية ودمشق ونابلس وطرابلس واللاذقية وحيفا ورام الله وبعض قرى لبنان. وخير الصابون وأشهره اليوم الصابون النابلسي فيه على ما يظهر خاصية ليست بغيره أو أن السر في جودته إتقانه بدون غش. ومنذ أفلتت الصناعات من رؤساء لها تشرف على أعمال أهلها انحطت في دمشق صناعة الصابون فقد كانت له أماكن خاصة لتجفيفه وكانوا لا يبيعونه إلا بعد ثلاث سنين من صنعه ويصدر إلى أقطار العالم وثمنه يزيد خمسين في المئة على سائر أنواع الصابون وكنت إذا غسلت به الثياب تجد من رائحتها ما ينعش قلبك

(١) المضيرة: مريقة تطبخ باللبن المضير أي الحامض وهي أشبه باللبنية أو لبن أمه أو الشاكرية اليوم.

(٢) الكشكية: طعام يعمل من الكشك (بفتح الكاف) والعامة تكسر كافه يعمل من جريش الحنطة واللبن الحليب ويترك أياماً حتى يختمر فيكون منه ذرور يعمل كالحساء ويطبخ باللحم أو بالزيت وقالوا فيه:

الكشك شيء خبيث محرك للسواكن
الأصل در وبر نعم الجدود ولكن

(٣) الأنجدان (بإعجام الدال وإهمالها): ورق شجرة الحلتيب.

(٤) الجبن القريش كأمير: أي اليابس الشديد كما في التاج والذي نعرفه أن القريشاء والقريش يعمل من الدر ويختمر ويبقى طرياً كالزبد والقشدة.

(٥) البرني والمعقلي والصرفان والبردي واللؤلؤي والصيحاني: ضروب من التمر.

(٦) المصقر: المدبس.

(٧) الكوامخ: المخللات.

(٨) الخلاط: ضرب من المشهيات والمخلوطة طعام من أنواع شتى.

من الروائح الذكية ، والآن يبيعون الصابون الدمشقي أخضر بدون تجفيف ويزاحمه في عقر داره الصابون الغربي لرخصه وهو مركب من زيوت صناعية على الغالب ليس من الزيت الخالص ، وعسى أن يرسل صناع الصابون في نابلس وطرابلس ودمشق وحلب وعكا وحيفا إلى أوربا من يدرسون المادة التي تدخل الصابون الغربي فتزيد رغوته أخضر كان أو يابساً ، يعيدون إلى الصابون البلدي رونقه السالف ويخلصون من النكهة الخبيثة في الصابون الغريب .

معادن الشام وحماتها :

وخليق بنا وقد انتهى بنا نفس الكلام على ما حوى سطح الأرض من الخيرات الطبيعية إلى هذا الحد ، أن لا نغفل الكلام على ما حوى بطنها من المعادن والأمواه النافعة . فقد أجمع المتقدمون أنه كان فيها معادن حديد في لبنان كان قدماء المصريين يحملونها إلى قطرهم ،وأجمع المحدثون الذين بحثوا عن طبقات الأرض وتركيبها على أن الشام خالية من الفحم الحجري وما وجد منه لا يوازي ثمنه ما يصرف في تعدينه ، وفي لبنان طبقات القضّة Gres فيها فحم خشبي متحجر (لنيت) يمكن استثمارها وفي قرطبا وميروبا والمنيطرة مناجم من هذا الحجر الخشبي وأشهر طبقاتها الفحم الخشبي المتحجر في قرنايل ،وقد صار الاعتناء باستخراجه من سنة(١٨٣٥ إلى ١٨٣٨م) ،ومن مناجم هذا الحجر منجم مارشينا وفالوغا وبزبدين وجزين وزحلتا وعين التغرا وحيطورة ويجوز استخدام هذه المناجم للمعامل الصناعية الصغيرة والحاجات البيتية للوقود .

والفحم الحجري ونظنه من نوع الفحم الخشبي في جبل البشر وأبي فياض شرقي حلب وذكر ياقوت أن في جبل البشر ويمتد إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية أربعة معادن: القار ،والمغرة ،والطين الذي يعمل منه بواتق لسبك الحديد،والرمل الذي يعمل منه في حلب الزجاج وهو رمل أبيض كالاسفيداج .

وللحُمَّر مناجم في عينبل وحُريقة في جبل عامل وفي أرجاء مرجعيون ، وأشهرها منجم حاصبيا ، كان يستخرج منه في اليوم ٨٠ صندوقاً وزن كل واحد منها ١٠٠ كيلو وكان السلطان عبد الحميد الثاني يستثمره لنفسه ، وبعد انحلال دولته أهملته الحكومة لقلة اليد العاملة واضطرت أن تهمل معدن سحمر

في البقاع وغيره من المعادن في الشام . فأضر إهمال الحُمَّر بأرباب الكروم فتصاعدت أثمانه وهو يستعمل كل سنة عند تأبيرها فلحقته الدودة من أجل ذلك وقلت مداخيله . وفي التاس بين حمص وتدمر معدن للحمر يكاد يوازي معدن حاصبيا بصفائه . وفي المقارن بين درعا وسمخ مناجم كلس ممزوج بحمر ، وكذلك في أرباض تدمر وفي الصلت ووادي اليرموك . قال المقدسي : إن في الشام جبال حمر يسمى ترابها الصمغة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض به السقوف ويطين به السطوح . ومعدن الحديد كثير في قضض لبنان وأتربته ، وعلى سطح الجبال وبطون الأودية ، لا سيما في أرجاء البترون وكسروان والمتن وفي قرية دومة وبيت شباب وفي عكار ومشغرة والفرزل ومجاري الأنهار مثل نهر الكلب ونهر إبراهيم . ومن هنا كانت تؤخذ مواد المسابك لمعامل الحديد التي كانت في تلك الأرجاء ، والمانع من استثمارها اليوم قلة الوقود أي الفحم الحجري ، والحطب لا يفي بهذا الغرض على نحو ما كان الحال إلى عهد قريب .

وأهم مناجم الحديد في برمانا وبحملون ووادي النهر الكبير حجر الصفار (الكروم) وفي جبال اللاذقية معادن حديد كثيرة وفيها رصاص ممزوج بالفضة وخشب فحمي ونيكل وكان في القديم في ناحيتي باير وبوجاق معدن حجر الصفار يستخرج منه في السنة ٢٥٠٠ طن ولم يبق له أثر ، ويوجد حجر الصفار على شواطىء بحيرة طبرية ومن نوع البيريت واللنيت في برتي وكفر سلوان ومرجبا وفي راشيا وسفح جبل الشيخ الغربي وجنوبي حاصبيا وفي عين اللبوة وعين عطا وشوايا وعين قني والروج والكفير .

والنحاس في قرية اهمج في كسروان وفي الجنوب الغربي من حلب وكان منه في عين جر فأكدى لكثرة ما استخرج منه ، وكان النحاس الأحمر يحمل من جبل جوشن على قيد غلوة من حلب . وذكر كاتب چلبي أن في بيت حبرون معدن زجاج يستخرج منه فيحمل إلى الأطراف فيباع ويحمل إلى السودان والحبشة من أسورته ويقايض عليها بالتبر .

واستثمر معدن الفحم الحجري في مرجيليا في لبنان أثناء الحرب الكبرى

لوقود السكك الحديدية واستخرج منه(١٩١٦) ما يقارب ١٣٠٠ طن . وذكروا أن الطبقات الفحمية في لبنان وجدت في نيحا ، المراح ، كركبا ، زحلتا ، عبيه ، عرمون ، جمهور ، عين تراز ، بحملون،القرية ، رأس الحرف ، مرجيليا ، بتبيات ، مارحنا ، الكنيسة ، عين موفق ، قرنايل ، جورة أرصون ، بزبدين ، رأس المتن ، ترشيش ، جوار الجوز ، حيطورا ، عين تدجورا ، عين زحلتا ، صيدنايا ، قيتولة ، بكاسين ، جزين ، حمصية ، مشغرة ، قرطبا ، حدث الجبة ، مزرعة بيت ابن صعب ، الديمان ، القنيات . ومنه الرديء الذي لا بال له .

وفي جهات أبو فياض على ٨٠ كيلو متراً من حلب فحم حجري رديء من اللنيت كما أن منه في جهات حوران وفي قرية عرنة من إقليم البلان معدن الفحم الحجري قيل : إنه لم ينضج وفي حضر من إقليم البلان معادن أخرى براقة . وفي جبال الكرك كثير من أنواع المعادن قصدها مؤخراً كثير من معدّني الإنكليز لتحليلها ومعرفة أنواعها . والبترول (زيت الكاز) حول البحر الميت . وفي أرسوس على عشرين كيلو متراً من الإسكندرونة وفي وادي صقلاب من أعمال الكورة في شرقي الأردن وفي المزيريب من عمل حوران وفي أرجاء الإسكندرونة معدن غاز سائل جرى تعدينه فلم يأت بفائدة . وفي أرجاء طرابلس معدن المغرة ونوع من الصبغ الأصفر Ocre jaune .

ويوجد الكبريت بكثرة في جهات الباروك وفي قرية عنجرة من جبل عجلون وفي أرجاء البحر الميت وبالقرب من حمة عفرة في الطفيلة معادن الكبريت والقصدير والبترول والنحاس وفي رأس العين من عمل الزور وفي أماكن جبلية عديدة ولا يصلح للاستعمال لامتزاجه بمواد غريبة فحمية وحديدية . ويوجد الزاج في حارم ، والنيكل ومنه الفاخر في جبل الأقرع ، والفوسفات في جبال السرو بين الصلت وعمان حسبت نفقات استثماره فرأوا أنها لا تفي بها وارداته فترك وشأنه. والفوسفات موجود في شمالي يبرود وبعض جهات فلسطين . والبوتاس حول البحر الميت والاسفلت في جبل الأكراد على ثلاثين كيلو متراً من اللاذقية (في قرى كفرية وقصاب وخربة السولاس) ويقال : إنه أغنى منجم عُرف من نوعه . وكان في مقاطعة جرش في أرض تسمى تلول الذهب معدن ذهب جاء في الكتاب المقدس أن سليمان عليه السلام كان يستخرج الذهب منها . وفي

الجنوب الشرقي من تدمر وفي أرجاء أنطاكية معادن ذهب ولكنها شحيحة . وتكثر الفضة في جبال اللاذقية وشمالي بعلبك ومصياف وعلى ضفاف العاصي فيما يلي أنطاكية معدن ذهب ومعدن رصاص فضي ومعدن إثمد وحجر الكحل ومعدن فحم ومعدن الطفال المعروف بالبيلون في أرجاء كلز وأنطاكية ، وفي جبال قرهموط إحدى نواحي أنطاكية عدة معادن تستعمل للصبغ وفي جبل بارسال من أعمال كلز معدن مرمر أصفر .

وكان في قرية يعفور من عمل دمشق معدن فضة قاله شيخ الربوة ، وبأرض حدث من جبل لبنان جوسية فوق كرك نوح يلتقط حجارة زلطية تكسر مرقشيشا وكل معدن مائل باللونية إلى لون ما هو قسمه ، وعد الخوارزمي المارقشيشا من عقاقيرهم فقال : ومنها مربع ومدور وقطع كبيرة غير محدودة الشكل وهي ضروب فمنها أصفر يسمى الذهبي وأبيض يسمى الفضي وآخر يسمى النحاسي .

ويوجد الملح في مواضع كثيرة ولا سيما في جهات تدمر وجيرود وحماة والخليل وحوالى البحر الميت . وملح جيرود فيه مرارة وأجوده ملح الجبول . وفي حلب عدة ملاحات وأعظمها ما كان في جوار قرية جبول على شكل مخروطي عظيم لا تطاف أطرافها في أقل من ثماني عشرة ساعة يجمد ماؤها في شهر أيار إلى تشرين الثاني فيكون في هذه الفترة ملحاً ، ويسمى هذا النهر نهر الذهب يجري من ناحية باب بزاعا إلى أن ينتهي إلى سبخة الجبول في مساكب يعملها أهل الجبول والقرى المجاورة لها ، وكانوا يقولون إن هذا النهر سمي نهر الذهب لأن أوله بالقبان وآخره بالكيل ، أي أنه تزرع في أوله الحبوب كالحبة السوداء والأنيسون والكراويا وأنواع الفواكه مما يباع بالرطل ، وآخره الملح الذي يباع بالكيل .

ويوجد الزئبق في أرض أنطاكية وغيرها ، قال شيخ الربوة : إن معدن الملح الأندراني كان يستخرج من أرض سدوم عند بحيرة لوط وكيف ما تكسرت حجارته ما تكسرت إلا فصوصاً مربعات الزوايا . ويوجد النحاس في ناحية الصور على نهر الخابور ومعدن السوديوم في البصيرة والصور والشدادي والقصبي ويعرف باسم بارود القصبي . والرصاص في أنطاكية والمغرة في جهات حلب وعمان والجبص (الجبسين) في جهات جيرود وصافيتا وعكار وطرابلس .

والرخام الأصفر في جبل الجرمق من عمل صفد وعلى ساعتين من مادبا جبلان أصفر وأحمر والحجارة الكلسية على كثرة في جميع الأرجاء ، وأهم أنواع الحجارة الكلسية الرملية الحوارى والرخام السماقي والجنس المدعو « شحم بلحم » وأجمل المقالع ما كان في جوار حلب وفي جبل باريشا من عمل حارم وهو رخام أصفر ومن أجملها الحجر المزي وهو يضرب إلى الصفرة يستخرج من مقلع المزة قرب دمشق والحجر المعرباني وهو أحمر يستخرج من مقلع معربا في قلمون كما يستخرج من مقالع تلفتا حجر هش وهو شديد البياض يعتمدون عليه اليوم في البناء بدمشق لسهولة نحته وتكثر مقالع الحجر الرملي في منحدرات لبنان السفلي وعلى الشواطئ البحرية ولونه أصفر . وجميع البنيان من صور إلى طرابلس مبنية بحجره وهو سريع التفتت سهل النحت لدى خروجه من المقلع ويتصلب في الهواء ويصلح للملاط أكثر من الحجارة الكلسية الجميلة . والحجارة الكلسية ذات تقاطيع زجاجية في المواضع المنحوتة حديثاً ولونها أبيض كامد تتحول بمرور الزمان بفعل أشعة الشمس إلى شيء من الصفرة الذهبية ولذلك كانت أبنية حلب وبيروت بهذا الحجر الجميل من أجمل أبنية الشام ، واشتهرت الداروم في القديم برخامها قال الرحالة ناصرخسرو : « والرخام كثير جداً في الرملة وجدران معظم الأبنية والدور مغشاة بصفائح من الرخام مرصعة بإتقان ومغشاة بنقوش ورسوم ويقطع الرخام بمنشار لا أسنان له وبرمل تلك الديار ، وبالمنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السواري والعمد كما تقطع الدفوف من شجره . ولقد رأيت في الرملة رخاماً من كل جنس ومنه المجزع (المبقع) والأخضر والأحمر والأسود والأبيض وبالجملة من مختلف الألوان اهـ » .

هذا أهم ما في بطن الشام من المعادن ومهما كانت حالها فهي وافية بحاجة أهلها ولكنها لا تمون أمماً غيرنا كالمعادن المشهورة في العالم بذهبها وفحمها وغير ذلك ، ومعادننا تجزئنا إذا استثمرناها بعض الشيء .

الحمّات الشامية :

الحمة (بفتح الحاء وتشديد الميم) العين الحارة يستشفي بها الأعلاء والمرضى ،

وفي الحديث : العالم كالحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء ، فبينما هي كذلك إذ غار ماؤها ، وقد انتفع بها قوم وبقي أقوام يتفكنون أي يتندمون . فالحمة هي ما يعرف اليوم بالحمامات المعدنية تكثر في أرض الشام البعيدة عن الساحل ، وأهمها حمامات طبرية على شاطئ البحيرة ، تنفع النساء في الأمراض التناسلية وتشفي الأوجاع الحادة المزمنة وأمراض الرثية والنقرس والبول السكري وأمراض أعضاء التناسل والمرة السوداء والتهاب قصبة الرئة المزمن وبعض الأمراض الجلدية وغيرها.

قال أبو القاسم في وصف حمة طبرية : وفيها عيون ملحة حارة وقد بنيت عليها حمامات فهي لا تحتاج إلى الوقود تجري ليلاً ونهاراً حارة وبقربها حمة يغتمس فيها الجُرب اه . ويجري الماء إلى الحمامات من أربع عيون حارة وأهمها ما بناه إبراهيم باشا المصري وهو في الشمال ويعرف باسمه وهو عبارة عن حوض كبير تحيط به عمد قديمة من الرخام وعليه قبة عظمى ، وهي مثقوبة بثقوب أسطوانية يخرج منها البخار ودرجة حرارة الماء ٦٢ بالميزان المئوي وهو صاف براق في الجملة ملح الطعم مرّ مهوّع وتنبعث منه رائحة شديدة من حامض الكبريت أو رائحة بيض فاسد، وهذه الحمامات ملك الحكومة تؤجرها وموسم الاستحمام فيها من أول كانون الثاني إلى آخر حزيران .

ومنها « الحمة » حمة جَدَر في وادي اليرموك على الخط الحديدي عند الكيلو متر ٩٣ و ٩٥ تنفع في أمراض الجلد وغيرها وهي مياه معدنية حارة تنبجس غزيرة وتجري إلى نهر الشريعة وهي ثلاث حمامات يبعد بعضها عن بعض بضع دقائق يدعى أحدها « المقلى » أو « حمام سليم » درجة حرارته ١١٩ والآخران « حمام الجرب » وحرارته ١٠٨ ، أو « حمام الريح » وحرارته ٨٢ بميزان فارنهيت وعندها آثار الحمامات الرومانية وبقربها ملعب عظيم وهو ملعب جدر المشهورة في الجاهلية والإسلام قال أحد واصفيها : « ولا أُبالغ إذا قلت إن معدل قاصديها في شهر نيسان لا يقل عن عشرين ألفاً يقيمون أياماً تحت حر الشمس وهبوب الريح لا بيت يؤويهم ولا نزل يكنهم ، فإن كان قاصدوها يبلغون هذا العدد وهي قفراء خربة في شهر واحد فكم يكون عددهم لو تهيأت لهم حمامات منتظمة وأبنية وفنادق وما به تستتب لهم الراحة فيه أأُبالغ إذا قلت إنهم يزيدون على المائتي ألف ؟ » .

وحمة زرقا معين في شرقي الأردن تبلغ درجة حرارتها ١٤٢ بميزانفارنهيت والمالح في قرية تياسير في غور الأردن من أرجاء نابلس درجة حرارته ٩٨ ف وحمة أبي ذابلة بجانبفحل وحمة أبي سليم في المهدّ من أرض صنمة ، بقرية سحم الكفارات وحميمة يزور النيص من أرض صنمة أيضاً ودرجة حرارتها فوق١٠٠ ف أما حمامات طبرية فلدرجة حرارتها ١٤٤ ف وماء حمة جَدَر عذب جيد الطعم يشرب سخناً وبارداً بخلاف طبرية .

وحمة أبي رباح من عمل ناحية القريتين في حمص تنفع في الأمراض العصبية وتصلب الأعضاء والتشنج خاصة . وحمة ضمير في جبل قلمون كبريتية ، وحمة أرك في جهات تدمر ، وحمة أنطاكية وهي كبريتية وفيها مغنيزيا أيضاً . وحمة إسكندرونة بين حلب وإسكندرونة على الطريق . وحمة جسر الشغر وحمةزرقا معين في الكرك وهي ثلاثة حمامات يستحم المستحمون ببخارها ويقصدهاالسياح من الفرنج كما يقصدون حمة عفرة من بحيرة لوط . وحمام النبي داود فيوادي الحسا . وذكر ابن الشحنة أن في السخنةمن أعمال قنسرين خمسة حماماتينتفعون بها من البلغم والريح والجرب . وبناحية العمق حمة أخرى . وبكورة الجومة من أعمال قنسرين عيون كبريتية تجري إلى الحمة والحمة قرية يقال لها جندراس يأتيها الناس من الآفاق فيسبحون بها للعلل التي تصيبهم . قال الغزي : إن في أطراف حمام العمق عدة عيون كبريتية حارة لو جمعت إلى حوض لكانت حماماً عظيماً.وفي سنة(١٣٠٠)بنت بلدية حلب على بعض هذه العيون خلوة وصارت تؤجرها .

وذكر شيخ الربوة أن بين حمص وسلمية كهفاً في جبل يخرج منه بخار أشد من الضباب المتراكم فإذا دخل الإنسان ذلك الكهف خُيل إليه أنه فيالحمام لشدة الوهج وكثرة قطر الماء من البخار المتصاعد من البئر الذي في وسط الكهف ويسمع غليان الماء بقعر البئر ولا يمكن النظر فيه لشدة البخار الصاعد من البئر ومن نظر فيه يشيط من الحرارة . ولعله يقصد بذلك حمام أبي رباح . وظهر مؤخراً على كيلو مترين من قرقخان من عمل إسكندرونة نبع ماء معدني درجة حرارته ٤٣ فتهافت الناس على الاستحمام به .

هذه أهم حمّات أو حمامات الشام المعدنية وأكثرها كما رأيت لا ينتفع بها الانتفاع المطلوب ، وحالتها كما عرفت منذ القديم لا نظام فيها ولا أبنية للمستحمين حواليها . وقد عرف من تاريخ الرومان أنهم كانوا يُعنون من وراء الغاية بالحمامات المعدنية ، فكانوا يبنون عليها أبنية بحسب مصطلحهم ، ولكن لم نر أن العرب في هذه الديار عنوا بشيء من هذا القبيل اللهم إلا إذا كان ضاع عنا خبره لقلة التدوين . ولو أنها وقعت العناية اليوم بحماتنا على النحو الذي تنتفع به بعض الأصقاع التي تنبجس فيها مياه معدنية من إقامة المستحمات والمنازل لنزول طلاب الاستحمام وتدبيرها تدبيراً جديداً مرفهاً صحياً لكان منها منافع كثيرة لأبناء الشام ومورد أرباح لها تأتي من ألوف من الغرباء والقرباء يقصدونها للانتفاع بها ويصرفون في جوارها أياماً وشهوراً يجعلون عليها مقاصير للتغميز والتمسيد ، وأخرى للتعريق ، وغيرها للتبريد ، وفنادق فيها شروط المدنية الحديثة ، وحدائق وغابات تغرس بالقرب منها تحسن المناخ وتجمل المناظر الطبيعية

نظرة في الفلاحة الشامية الحديثة [1] .

أقاليم الشام :

أولاً — لا تقل حرارة غور الأردن عن مثلها في بعض الممالك العربية الحارة كالعراق ومصر . ففي إحدى السنين كان معدل الحرارة السنوي في طبرية ٢١/٧٠ درجة وهو لا ينقص عن ٢١/٥ درجة وقد يبلغ أكثر من ٢٢ درجة لا سيما في مناطق الغور الجنوبية . ولما كانوا يحسبون معدل الحرارة السنوي في القاهرة ٢١/٥ درجة وفي بغداد ٢٢/٨ درجة كانت حرارة الغور كافية لنمو كثير من الزروع والأشجار التي أغنت مصر وستغني العراق وأعظمها شأناً القطن . ويفضل إقليم الغور أقاليم مصر والعراق في أن أمطاره قلما ينقص ارتفاعها في السنة عن ٣٠٠ ميليمتر ولهذا يمكن زرع الحبوب الشتوية فيه عذياً ، على حين لا يستطاع ذلك في مصر وفي معظم العراق لقلة الأمطار فيهما .

---

(١) كتب الفصل التالي الأمير مصطفى الشهابي .

ثانياً ــ ليست سواحل الشام أنقص شأناً من الغور من الوجهة المذكورة فمعدل الحرارة في حيفا ويافا وبيروت قلما يقل عن ٢٠,٥٠ درجة ولهذا يجود في الساحل كثير من النباتات التي تتطلب حرارة عظيمة كالقطن مثلاً لكنه لا بد من إسقائه في كلا الإقليمين .

أما السهول ففي بعضها من الحرارة ما يكفي لنجاح القطن وهي التي لا تعلو كثيراً عن سطح البحر مثل مرج ابن عامر وسهل الغاب شمالي حماة وسهل العمق وإدلب ، ويجب الري إلا في إدلب والعمق. أما في السهول المرتفعة كالغوطة وحوران والبقاع فالقطن ينتج محصولاً متوسطاً إلا أنه لا يجد من الحرارة ما يكفي لتفتح كل ثماره . ولهذا قد لا يأتي زرعه فيها بفائدة من الوجهة الاقتصادية والواجب أن لا يحل القطن مكان القنب في الغوطة مطلقاً . هذا ومن العبث البحث في زرع الأقطان في إقليم الجبال كسهل الزبداني وسفوح سنير وغيرها لأن نصف ثماره لا يتفتح هنالك لقلة الحرارة. هذا ومن العبث أيضاً البحث في تعميم زرعه في سهول البلقاء وحوران ووادي العجم وحمص وحماة وحلب الشرقية في البعل من الأرض ، لقلة الأمطار السنوية واختلاف مجموعها بين سنة وأخرى وإن نجحت زراعته بلا ري في بعض قرى حوران كقرية الحراك في وادي الزيدي ضربت مثلاً بها لأنها مجتمع مياه أرضية وحالة كهذه لا تصلح للقياس .

ثالثاً ــ ليست مقادير الأمطار واحدة في مختلف مناطق الشام . فأغزرها في السواحل دائماً . فقد دلتنا قوائم رصد الجو في مرصد الجامعة الأميركية في بيروت على أن ارتفاع الأمطار السنوية فيها لا يقل عن ٧٠٠ ميليمتر في أكثر السنين وأنه يبلغ ٩٠٠ ميليمتر أحياناً وهو رقم كبير . وتثبت أن ارتفاع الأمطار في حيفا ويافا يزيد على ٥٥٠ ميليمتر في أكثر السنين . وهكذا في باقي سواحل الشام ، وفي المناطق القريبة من الساحل . أما السهول الداخلية وهي أعظم المناطق شأناً وأغناها تربة وأوسعها مساحة ، فارتفاع أمطارها يختلف بين ٢٠٠ و ٥٠٠ ميليمتر في السنين العادية . ولما كان ارتفاع المطر الضروري لتكوين محصول متوسط من الحبوب الشتوية لا يقل عن ٢٥٠ ميليمتر اتضح أن منتوجات الحبوب في تلك السهول تختلف اختلافاً كبيراً من سنة إلى أخرى ، تبعاً لمقادير المطر المنهمر ولتواريخ هطله في خلال السنة . وأمطار غوطة دمشق قليلة ، فقد قستها

بنفسي خلال عشر سنين متتابعة فرأيت أنها لا يبلغ ارتفاعها ٢٥٠ ميليمتراً في أكثر هذه السنين، وكان ارتفاعها دون مائتي ميليمتر في ثلاث سنين . فالغوطة إذن كالواحة كادت تكون صحراء لا تصلح للزرع ، لولا بردى والأعوج ومشتقاتهما التي قلبتها جنةً ناضرة .

رابعاً – لا يسقط الثلج في إقليم الغور ولا تهبط الحرارة إلى الصفر . ويندر هبوطها إلى الصفر في السواحل . أما في السهول الداخلية فلا تهبط لأوطأ من عشر درجات تحت الصفر في السنين الاعتيادية ويندر هبوطها إلى هذا الحد . لكن لكل قاعدة شواذّ ففي شتاء سنة(١٩٢٤–١٩٢٥)وكانت سنةَ قرٍّ شديد هبطت الحرارة إلى ١٥ درجة تحت الصفر في دمشق و ٢٠ درجة تحت الصفر في سلمية . ودام الصقيع عدة أيام فأتلف الأسباناخ والملفوف والسلق والمقدونس والبيقية والحلبة والفول وغيرها من البقول كما أتلف براعم التين والرمانوأغصان الليمون والبرتقال وبعض ورق الزيتون . وباد كثير من الأزهار والرياحين وأشجار التزيين كالمنثور والكافور والسنط والفلفل الكاذب والخروع والكزورينا وغيرها . أما الحنطة والشعير والمشمش والتفاح والكمثرى والدراق والخوخ والصنوبر والسرو والازدارخت والصفصاف والزيزفون والورد فقد قاومت فلم يمسها الصقيع بأذاه .

وأضر مما ذكر هبوط درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر بضعة أيام فيأوائل نيسان من سنة ١٩٢٥ فتلف أكثرمن نصف محصول المشمش فيالغوطة،واسودت أفنان الجوز ، وبادت نباتات الخيار والكوسى والبنادورى البكيرة ، فعاد الزراع إلى بذر بذورها ثانيةً . ولقد ذكرتُ هذه الأحداث لأن الطاعنين في السن من أرباب الفلاحة لم يرو شبيهاً لها منذ ثلاثين سنة ونيف .

خامساً – ليس لبناء التربة في الشام كبير تأثير فيإمكان غرس الشجر أو عدمه في إحدى المناطق ، بل العامل الأقوى هو الإقليم وذلك أن الأمطار تهطل في الشام خلال شهور معلومة ثم يعقب المطر يبوسة تدوم بضعة شهور . وتكون الرياح شديدة ، والحرارة زائدة ، في شهور اليبوسة ، ومهما كان ارتفاع المطر السنوي كبيراً حتى في سواحل الشام فكثير من أشجار الفاكهة لا يعيش بهناء عذياً ، بل لا بد من إسقائه كالبرتقال والليمون والتفاح والكمثرىوالمشمش

والخوخ . وليس السبب في ذلك قلة مجموع الأمطار السنوية بل انحباسها منذ أواخر الربيع وطول فصل الصيف وأوائل الخريف . فأمطار باريز مثلاً لا تزيد في السنة على أمطار بيروت أو أمطار طرابلس لكن المطر في باريز يهطل في كل شهور السنة تقريباً فتنمو الأشجار المذكورة دون ري على العكس من حالتها في الشام .

ومن الشجر ما يعيش بلا إسقاء في جميع مناطق الشام الغربية كالزيتون والكرمة واللوز والتين والرمان والفستق والآس والزعرور والعناب . أما مناطقها الشرقية فمنها ما يصلح دون ري للكرمة واللوز والزيتون كشرقي العاصي إلى جبال الشومرية وكالجولان وحوران وجبل حوران وعجلون والبلقاء . ومنها ما أمطاره من القلة بحيث أن الأشجار عموماً لا تنجب فيه بلا ري، كالغوطة والمرج وشرقي سنير (منطقة القريتين) وبادية الشام . وينمو الكرم واللوز بلا ري بعد أن يكبر في القرى الشرقية من منطقة سلمية والحمراء . أي أن المطر في تلك المنطقة وحالة المياه الأرضية هما بحيث لوسقي الكرم سنتين أو ثلاثاً حتى تضرب جذوره في التراب ، لأمكن بعدها أن يعيش بلا ري .

واختلاف الأقاليم في الشام يجعل هذا القطر صالحاً لزرع زروع متنوعة ، وغرس أشجار شتى ، فالغور والساحل للقطن والنخل والموز والقشطة والبرتقال والليمون والزيتون . والسهول للحبوب والزيتون واللوز والمشمش والخوخ والكرمة . والجبال للتفاح والكمثرى والكرز . وتقل الأصقاع التي تحوي كالشام أقاليم عديدة في مساحات ضيقة . وليس في العالم بلد غيرها يستطيع فيه الإنسان أن يصعد إلى ارتفاع ٢٨٠٠ متر فوق سطح البحر بعد أن يكون في أعمق من مائتي متر من هذه السوية وذلك بقطع مسافة لا تزيد على ٦٥ كيلو متر ، هذا شأن الذي يكون في البطيحة أو التابغة على شواطئ بحيرة طبرية مثلاً ويريد الصعود إلى قمة جبل الشيخ فهو يعتلي ثلاثة آلاف متر بقطع تلك المسافة الصغيرة .

أتربة الشام :

كثيراً ما نسمع أن الشام قطر زراعي محض وأن تربتها من أخصب الأتربة

فما معنى ذلك وما هو مبلغه من الصحة ؟ أما كون الشام محض أرض زراعية فلأنها لا كبير منتوج فيها سوى منتوجات الأرض فهي إذا لم تقس بغيرها تعد قطراً زراعياً ذا شأن كبير . أما إذا قسناها ببعض الممالك الأوربية حيث الأرض خضراء دائماً ، والمحاصيل كبيرة بسبب كثرة الأمطار في كل فصول السنة ، أو لو قايسنا بينها وبين بعض الأقطار التي فيها أنهار عظيمة تسقي بمياهها ملايين من الهكتارات كمصر اليوم وعراق الغد ، إذن لوجدنا أن الشام ليس لها شأن عظيم حتى من وجهة الزراعة لأنها ما برحت ولن تبرح أرض حبوب شتوية كالحنطة والشعير تنتج بالقليل من المطر الذي يهطل فيها . أما الأشجار المثمرة والأقطان والخضر فمقامها في الدرجة الثانية لما تتطلبه من الري على حين لا تروي أنهار الشام مساحات واسعة على ما سيجيء ذكره . ونقول لمن جعلوا ديدنهم التنويه بأن الشام من أعظم الأقطار التي تنتج أقطانا أنهم مدفوعون إلى دعايتهم هذه بعوامل سياسية ، لأن القطن في الشام لا يمكن أن يكون له المقام الأول بين الزروع ما دامت معظم سهول هذا القطر لا تروى إلا بما تجود به السماء من المطر القليل الذي يكاد لا يكفي لحياة الحنطة والشعير . ويجب أن لا يتخذ القطن الإدلبي مثلاً لأن صنفه من أردإ الأصناف ، ولأن منطقة إدلب وأشباهها ليست سوى جزء صغير من سهول الشام الواسعة الأرجاء . وقولي هذا لا ينفي كون زرع القطن مفيداً اقتصادياً في كل مكان يستطيع أن ينجب فيه . فمما تعنينا معرفته أن الأمكنة التي يستطيع أن ينجب فيها صغيرة إذا قيست بمجموع أراضي الشام الزراعية :

ولئن لم تجعل الطبيعة للشام حظاً كبيراً من المطر والأنهار التي تستطيع أن تروي مساحات واسعة ، فلقد جادت عليه بتربة من أجود الأتربة . وهاك خلاصة ما تجب معرفته :

أولاً — تراب أهم سهول الشام طيني كلسي (أكثر قرى حوران والغوطة وسهول سلمية وحمص وحماة وبساتين حارم الخ ...) وتراب بعضها طيني رملي (بعض قرى الغور والبقاع الخ) . وتراب بعض آخر رملي طيني (بعض قرى الساحل والسهول الشرقية القريبة من البادية) . ومن المعلوم أن بناء هذه الأنواع الثلاثة يعد جيداً لا سيما الأول منها .

أما من حيث غنى أتربة الشام بالعناصر الغذائية . فقد كشف التحليل عن أن معظمها غني بالحامض الفصفوريك والبوطاس . أما الآزوت (نيتروجين) فمقداره كبير في بعض المناطق كالغور مثلاً ، وكاف في أكثرها ، وقليل في بعض المناطق التي أنهكها الزرع المتتابع دون مدّ الأرض بالسماد .

ويفيد أن أذكر كلمتين في الطبقات والأدوار الجيولوجية التي تنتسب إليها أهم المناطق الزراعية فأقول :

الأرض البركانية : إن أتربة حوران وجبل حوران واللجاة والجولان والبطيحة وجبل المانع والصفا وغربي العاصي بين حمص وحماة الخ هي أرض بركانية (بزالتية) متكوّنة من اندفاعات البراكين .

الأرض الطباشيرية : هي أوسع الأرضين في الشام وإليها تنتسب معظم جبال لبنان وسنير وحرمون وعجلون والكرك والصلت وسهول البلقاء وجبل نابلس وتدمر الخ .

الأراضي المنسوبة للدور الثلاثي : منها معظم جبل العلا الواقع بين حماة وسلمية ، ومنها جنوب البقاع بدءاً من مجدل عنجر وسهل متسع حوالى حلب وسواحل فلسطين وقمة جبل قاسيون في دمشق مع امتداده نحو قرية القطيفة ، وقسم كبير من قلمون وقسم من الجبل الأبيض بالقرب من تدمر ، ومساحة واسعة حول شواطئ الفرات بعد الراسبات الرباعية الخ .

الأراضي المنسوبة للدور الرباعي : في الشام كثير من الطبقات الأساسية سترت براسبات من الدور الرباعي وأكثر ما تكون الرواسب في السهول كالبقاع والغوطة والمرج ومرج ابن عامر وسهل الرملة ولدّ وسهل عكار وعلى طول الفرات الخ .

حراج الشام :

إذا رجع المرء إلى كتب الأقدمين يرى أنه كان للحراج في الشام شأن وأي شأن . وأهم أشجار هذه الحراج ومواقعها ومساحتها لعهدنا هذا ، على وجه التقريب :

أشجار الحراج : أعظمها شأناً أشجار البلوط وهي على قسمين قسم يظل

مكتسياً أوراقه في الشتاء وآخر تسقط أوراقه فيه . فمن الأول السنديان والبلوط الأخضر وهي أشجار صعبة المراس جبارة تعيش في الساحل وتعلو مع مختلف المناطق إلى ألف متر عن سطح البحر . ومن الثاني الملول والبلوط المسمى عفصاً .

ولأشجار الصنوبر شأن لا يفوقه سوى شأن البلوط . وأهمها الصنوبر المثمر وهو يشاهد في الساحل وفي المناطق التي لا يزيد علوها على ألف متر عن سطح البحر . ويغرس في لبنان (حمانا ، برمانا ، بيت مري ، بكفيا الخ) لأن خشبه وثماره مرغوب فيها . ويليه الصنوبر الحلبي وهو الأكثر شيوعاً يعيش في كافة الأقاليم الزراعية حتى في ارتفاع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر . ومنه حراج ملتفة في عكار والضنّية وقزل طاغ ويستخرج منه القطران ويستعمل في الدباغة .

ومن أشجار الفصيلة الصنوبرية التي تشاهد في غابات الشام السرو والتنوب أو الشوح وهو يكثر في الجبال الشامخة حيث يختلط بالأرز ثم العرعر والدفران والأرز وجميعها تعيش في الجبال العالية .

وكثيراً ما يعثر المرء في غابات الشام على أشجار مثمرة برية مثل الكمثرى والزعرور والخوخ والسدر والزيتون والخروب وغيرها . كما يشاهد أشجاراً مختلفة كالبطم في البلعاس والدلب على شواطئ الأنهار واللبنة أو الأبهر في لبنان ووادي التيم والعجرم وهو مبذول والغار في غور الأردن الخ .

مواقع الحراج : إذا سرنا اليوم من شمال الشام إلى جنوبها نرى الغابات الآتية :

(أ) حراج السفح الممتد بين سلسلتي جبال اللكام مساحتها نحو ١٠,٠٠٠ هكتار (الهكتار عشرة آلاف متر مربع) وأهم أشجارها البلوط والصنوبر الحلبي ويليهما الأبهر والأشجار المثمرة البرية . وفي منحدرات الجبال مثل هذه المساحة تقريباً مكسوة بالشجر لكن حالة شجرها سيئة .

(ب) حراج كرد طاغ وتمتد من راجو إلى الحمام ، ومساحة الشجر الملتف فيها ألف هكتار تقريباً وأشجارها السنديان والصنوبر الحلبي . ويلحظ أن فأس المحتطبين لا تكفّ عن العمل بها ، وأن أضعاف هذه المساحة كانت فيما مضى حراجاً جميلة .

(ج) حراج رأس الخنزير (قزل طاغ) . أهم شجرها الصنوبر الحلبي وأنواع البلوط . تبلغ مساحة ما تلتف أشجاره منها نحو ١٥,٠٠٠ هكتار إلا أن

ضعفي هذه المساحة كانت غابات ملتفة فإذا هي اليوم جرداء أو فيها أشجار حقيرة متفرقة . ويصنع القطران من صنوبر هذه الحراج في أرسوس وأنطاكية .

(د) حراج الأردو والباير والبسيط : مساحة القسم المكتسي بالشجراليوم ١٠,٠٠٠ هكتار تقريباً . وأهم شجرها الصنوبر الحلبي وأنواع البلوط ويليها الدلب فيما انخفض من الأرض . ويجب الاحتفاظ بهذه الغابات من عيث الماشية لأن بعض أشجارها بدأت تتلف .

(ﻫ) حراج العمرانية : شجرها السنديان والملول وقليل من الصنوبر الحلبي ومساحتها ٢٠,٠٠٠ هكتار تقريباً، ويلاحظ أن أكثر أشجارها الباسقة قطعت إلا في المواقع الكبيرة الانحدار التي يشق الوصول إليها ، فإن أشجارها لا تزال باسقة . ومن المؤسف أن القطع لا يزال متواصلاً في هذه الحراج لنقل الحطب أو لصنع الفحم ونقله إلى حماة وحمص .

(و) حراج عكار والضنية : هي من أجمل الغابات وأهم شجرها السنديان والملول ويليهما الصنوبر الحلبي والسرو والعرعر والأرز. ومساحتها ١٠,٠٠٠ هكتار على وجه التقريب .

(ز) حراج الهرمل وإهدن وتنورين . تبلغ مساحتها نحو ٥,٠٠٠ هكتار .

(ح) حراج الصنوبر في لبنان : زرع اللبنانيون كثيراً من بزور الصنوبر المثمر وغرسوا كثيراً من غراسه فتكوّن منها حراج جميلة تشاهد في كثير من قرى لبنان. أما حراج الأرز القديمة فقد أتت عليها أيدي الجهل وبعض بقاياها في الباروك.

(ط) حراج البلعاس : يقع جبل البلعاس على نحو خمسين كيلومتراً شرقي سلمية وفيه أشجار قديمة من البطم . لعبت بها أيدي البدو والمحتطبين الذين يأتون بمركباتهم كل يوم من سلمية إلى البلعاس فيقطعون الشجر ويبيعون الحطب في سلمية وحمص وحماة على بعد المسافة . وقد أكد بعضهم من بدو وحضر وبعض الضباط الذين اخترقوا البلعاس مراراً أن مساحته تبلغ ٣٠,٠٠٠ هكتار تقريباً ، وأن الشجر متفرق في أكثر أقسامه لكنه يلتف في بعض المواقع .

(ي) حراج عجلون : هي من أوسع حراج الشام وأجملها . أشجارها السنديان والملول والصنوبر والحلبي وغيرها . وفيها مواضع أشجارها ملتفة وأخرى أنهكها القطع .

هذه هي أهم غابات الشام وثمة غابات ومحتطبات لا كبير شأن لها اليوم لما لحقها من الأذى بسبب انكباب الإنسان على قطعها أو عيث الماشية بها ، مثل غابات بعلبك وسنير وجبل الشيخ والقنيطرة وصفد والناصرة والكرمل والصلت وغزة وغيرها . وكانت الحكومة التركية خلال الحرب الكبرى (١٩١٤ – ١٩١٨) تأمر بقطع الشجر بلا روية لاستعماله بدلاً من الفحم الحجري الذي كان يعوزها .

الري في الشام :

يروى اليوم في الشام (عدا فلسطين وشرقي الأردن) مساحة تقدر بنحو ٧٧,٠٠٠ هكتار على وجه التقريب وأهم المناطق التي تروى هي الغوطة والمرج اللذان يسقيان من بردى والفيجة والأعوج ومشتقاتهما ومن قُني موضعية . وتقدر المساحة التي تروى من هذا السهل الواسع بنحو ٢٥,٠٠٠ هكتار ويسقى في وادي العجم من نهر الأعوج نحو ٥,٠٠٠ هكتار . ويسقى في حمص بمياه القناة التي تشتق من بحيرة حمص بساتين واسعة . وفي الزبداني سهل يبلغ ١٢٠٠ هكتار يروى من أنهار صغيرة وينابيع . ويسقى في القنيطرة والزوية نحو ٢٠٠٠ هكتار لا سيما في البطيحة وشمالي بحيرة الحولة إلى الشرق . وفي حماة نواعير لا يقل عددها اليوم عن ثمانين ناعورة تبدأ بين حمص وحماة وتمتد شمالاً إلى العشارنة وتسقي نحو ١٥٠٠ هكتار . وفي سلمية والقرى التي في تلك المنطقة قنوات عديدة قديمة داثرة أخذ الأكارون منذ بضع سنوات يكرونها ويعيدونها إلى سالف عهدها وفي جيرود والنبك ويبرود وديرعطية والقرى المجاورة لها قنوات وينابيع تسقي ٢٥٠٠ هكتار تقريباً .

وفي لبنان نحو عشرة آلاف هكتار من الأرض التي تروى ، أهمها ١٢٠٠ هكتار تقريباً فيها من شجر الليمون والبرتقال في طرابلس . ويتلوها بساتين واسعة حول بيروت وصيدا وصور ورأس العين والهرمل وبعلبك وبعض قرى البقاع الخ .

ومما يسقى سهل عكار والبقيعة وحول اللاذقية وبعض أرض العمق وأرباض

أنطاكية ومدينة حلب والإسكندرونة . أما في جنوب الشام (فلسطين) فأعظم الأرض شأناً ما يسقى شمالي بحيرة الحولة حيث نهر الحاصباني والبانياسي واللّدان أي أصل الأردن . ثم الغوير ومجدل طبرية ثم بيسان وما حولها مما يسقى من نهر الجالوت ثم سهل عكا ثم ضواحي مدينة يافا حيث يسقى نحو ٢٠٠٠ هكتار من شجر البرتقال والليمون بواسطة آبار ترفع مياهها بالمحركات .

ومما يستطاع إسقاؤه من الأرض في المستقبل إذا وجد رأس المال الكافي للقيام بأعمال عظيمة للري . حتى لتبلغ مساحته ضعفي المساحة التي تسقى اليوم وربما إلى ثلاثة أضعافها ، الأراضي الواقعة حول النهر الأسود عند مصبهوحول نهر عفرين وسهل العمق (نحو ٢٠٠,٠٠٠هكتار) وسهل الغاب الممتد شمالي قلعة شيزر (سيجر) (نحو ٦٠,٠٠٠هكتار) والسهل الواقع شرقي جسر الشُّغُر والسهل الممتد بين صيدا وصور وحول بحيرة الحولة وأرض واسعة في الغور بين بحيرة طبرية وبحيرة لوط الخ .

زروع الشام وأشجارها :

نذكر هنا بإيجاز أهم ما يزرع في الشام من الحبوب والبقول والنباتات الصناعية وما يغرس من الشجر المثمر ، ثم ما ينبت لنفسه من النباتات الطبيعية المفيـدة .

الحبوب : أهمها الحنطة فالشعير فالذرة الصفراء والبيضاء فالأرز فذرة المكانس .

الحنطة : أعظم الزروع شأناً وأغزرها محصولاً وأعمها انتشاراً . يقدر ما نتج منها في(سنة ٩٢٢) بـ ٣٤٥,٨٠٠ طن(الطن أربعة قناطير) في الشام عدا فلسطين وشرقي الأردن وأشهر أصنافها الحورانية والبياضية واليبرودية والبقاعية والحمارية والنورسية وحنطة عين غرة والدوشانية والشلمونية والهيتية.فالحورانية تعرف بساق متوسطة الطول وسنبلة غليظة كثيفة مربعة ذات سفا لونها إلى سمرة وحب سمين قاس إلى حمرة . وهي أجود الأصناف وأعمها . تزرع فيحوران ووادي العجم وفلسطين والبلقاء وحلب ، وبالاختصار في كل أنحاء الشام على درجات متفاوتة . أما موطنها الأصلي فحوران . وللحنطة البياضية سنبلة بيضاء

طويلة وَبِرة نصف فَرِقة ذات سفا ، وحب أبيض سمين مكسره نصف دقيقي وهذا الصنف يزرع في الغوطة والمرج ووادي العجم خاصةً .

وللقمح البيرودي ساق طويلة صلبة ثخينة نصف فارغة ، وسنبلة مستطيلة كثيفة ذات سفا ، وحبات ضاربة إلى بياض مكسرها قرني . وهذا الصنف يزرع في دومة وقلمون . وللحنطة البقاعية سنبلة دكناء إلى سواد ، وحب إلى سمرة وهي تزرع في البقاع . أما القمح الحماري فهو يزرع في حمص وحماة وما جاورهما . وأما النورسي فيزرع في فلسطين وهو يعرف بسنبلة مستطيلة ذات سفا ، وحبات مستطيلة حنطية إلى حمرة .

وقمح عين غرة أشهر الأنواع في الغوطة ، وله ساق طويلة فارغة . وسنبلة سمراء متوسطة الكثافة ذات سفا إلى سواد ، وحب سمين طحيني اللون . أما الدوشاني فله سنبلة فرقة طويلة لا سفا لها ، وحب أبيض ثخين ، وهو يزرع في البقاع وبعلبك وفي الغوطة على الندور . ويزرع السلموني في الأمكنة الجبلية ويعرف بسنبلة مستطيلة فرقة ذات سفا ، وحب مستطيل ذي مكسر دقيقي . والقمح الهيتي من الأصناف التي تزرع في الكرك والبلقاء ، وسنبلته ذات سفا ، وحبه حنطي إلى حمرة . وقد جرب على القمح الطلياني في الغوطة فأتى بأحسن محصول .

الشعير : هو في الشام أشهر الزروع بعد الحنطة وأكثرها منتوجاً ، وقد قدرت غلاته في سنة (١٩٢٢) بنحو ١٨٢,٥٠٠ طن في الشام عدا فلسطين وعبر الأردن . وهو على صنفين العربي والرومي . فالعربي ساقه قصيرة فارغة وسنبلته على صفين وهي مستطيلة ذات سفا طويل . وحباته أقل غلظة من حبات الشعير الرومي . ينضج قبل الرومي وهو أشهر منه ولا يتطلب مثله أرضاً غنية . أما الشعير الرومي فسوقه غليظة فارغة يتخللها عقد ملآنة وسنبلته على ستة صفوف ، وهي متوسطة الطول كثيفة ذات سفا . يكثر هذا الصنف في الغوطة والمرج وهو يتطلب أرضاً غنية مسمدة .

وتزرع الذرة الصفراء في أنحاء الشام في الأرض التي تسقى ، أما الذرة البيضاء فتزرع عذياً في أنحاء فلسطين وفي عجلون لا سيما في مرج ابن عامر . وأما الأرز

فيزرع في الحولة وهو قليل الشأن . ومن حبوب الفصيلة القرنية الشائعة ما تُعلفه الماشية كالبيقية والجلبان والكرسنة والحلبة. ومن الكلإ الفصفصة وهي ذائعة في الأماكن التي تسقى .

البقول: لا تعيش أكثر الخضر والأبازير بلا ري في أقاليم الشام كافةً . ولهذا يستدل من وجودها في أرض على كونها مما يمكن إسقاؤه . وأنواع الخضر التي تزرع كثيرة جداً وكلها تستهلك في القطر .

الزروع الصناعية : أشهرها القنب والقطن والسمسم . أما الكتان والنيلة والحناء والخشخاش والخروع فليست ذات بال في الشام . فالقنب يزرع في الغوطة وفي حلب ، لكنه في الغوطة أعظم شأناً ، إذ تقدر فيها مساحة الأرض التي تزرع قنباً بنحو ألف هكتار في كل سنة، أما في حلب فقلما تزيد على مائتي هكتار . وزراعة القنب رابحة لأسباب شتى أهمها كون هذا النبات لا يتطلب عنايات غير التعطين بعد قلعه ، وكونه في مأمن من الأمراض والحشرات حتى إن الماشية لا تأكل ورقه . وقد ألف إقليم الغوطة الوسطى وصار من زروعها الأساسية التي لا يرجح عليها سوى أشجار الفواكه . ومن الغلط الفاحش أن يقوم بعضهم فيبحث في استبدال القطن به ، لأن للقطن أقاليم غير إقليم الغوطة ، ولأنه تصيبه عاهات لا تصيب القنب . هذا عدا العنايات التي تستلزمها زراعة القطن مما لا لزوم له في زرع القنب .

القطن : يمكن زرع القطن بلا ري في الشمال كمنطقة إدلب ودانة وريحا حيث قدر ما ينتج منه سنة(١٩٢٣)بنحو ١٣,٠٠٠ بالة . وقد علمت أنه نتج هنالك وفي باقي المناطق التي يزرع القطن فيها نحو ١٥,٠٠٠ بالة في سنة(١٩٢٥) . ولكن للقطن الذي ينتج في البعل من أرض منطقة إدلب شعر غليظ مجعد وهو لا يصلح إلا للمنسوجات الغليظة ، ولهذا لا يباع إلا بنحو نصف ثمن القطن المصري عادة . أما الأقطان المصرية فلا تنجب إلا في الأرض التي تسقى .

السمسم : زرع السمسم شائع في فلسطين وعجلون ولا سيما في مرج ابن عامر حيث ينجب في الأرض البعل كالذرة البيضاء . ويزرع منه قليل في الغوطة ووادي العجم وهناك يكون زرعاً مستقياً . والغاية من زرعه استخراج زيت الشيرج المعروف من بزوره وتتكوّن أثناء عصر هذه البزور مادة الطحينة المعلومة .

المنتوجات الطبيعية : تُنبت الطبيعة في بعض الأرجاء نباتات طبيعية لها شأن في اقتصاديات البلاد مثل السوس والكمأة . فالسوس ينبت في سهل العمق وجسر الشغر حيث أجود عروقه ، ثم في أنطاكية والباب ومنبج ودير الزور والسويدية وكلها في الشمال . وينبت أيضاً في الغوطة والمرج . ويقدر ما يقتلع من عروق السوس في الشمال بنحو عشرة آلاف طن كل سنة ، وكلها تنقل إلى إسكندرونة حيث تسحق وتشحن إلى أميركا خاصة . أما في الغوطة والمرج فيقتلع نحو ألف طن سنوياً . وفوائد عرق السوس عظيمة وهو يضاف إلى عدد كبير من الأدوية ويصنعون منه في دمشق شراباً سكرياً لذيذاً يزيد الإدرار .

وليس للكمأة مكانة السوس وهي لا تكثر إلا في السنين الغزيرة الأمطار . وتنبت في قلمون وجيرود وكثير من القرى الشرقية القريبة من البادية . ويختلف مقدار ما يرد منها إلى المدن باختلاف السنين .

الأشجار المثمرة :

أسماها مكانةً الزيتون فالكرم فالبرتقال فالليمون فالمشمش فالتين فالفستق فالجوز . أما باقي الأشجار فتأتي في الدرجة الثانية وأنواعها كثيرة مثل التفاح والكمثرى والخوخ واللوز والرمان والدراق والسفرجل والموز والنخل والآس والصبار والتوت والعناب والخروب الخ .

الزيتون : أفضل الشجر وأعمه في مختلف المناطق . وهو يكثر في جزين والمختارة والشويفات وزغرتة والكورة ، وفي الغوطة والمرج ، وضواحي طرابلس وفي طرطوس وصافيتا وجبلة واللاذقية والباير وفي أرباض أنطاكية ، وفي السويدية والقصير وكردطاغ ، ويقل حول حلب والباب وسلقين وإدلب . وقد اشتهر في الجنوب زيت الرامة كما اشتهر زيتون جبال نابلس والقدس وسهول لدّ والرملة . وينجب الزيتون في البعل من الأرض ولا يسقى إلا في الغوطة والمرج وفي القرى القريبة من البادية . وأصنافه كثار أشهرها في دمشق الدان والأخضر (أو المصعبي) والجلط والتفاحي . وأشهرها في لبنان الصوري والشامي والمصري والشتوي والعيروني وبيض الحمام والبلدي . وأعمها في اللاذقية الخضيري والطمراني وقلب الطير . وفي الإسكندرونة القرماني والخلخالي والرماني والتفاحي الخ .

فالدان أنفع الأصناف بدمشق وأغناها زيتاً (١٨–٢٠ في المئة) يستخرج الزيت منه وقلما يؤكل أخضر أومكبوساً . يبلغ طول ثمرته ٢٠ ميليمتراً وعرضها ١٣ ميليمتراً وهي تسودّ بعد أن تنضج . وشجرة الزيتون الأخضر أو المصعبي كبيرة أحد طرفيها حاد يبلغ طولها ٣٢ ميليمتراً وعرضها ٢٤ ميمليتراً ، وهي تقطف خضراء وتكبس ولا تعصر لاستخراج زيتها . وثمرة الجلط كبيرة مستطيلة سوداء تشبه ثمرة البلح شكلاً طولها ٣٥ ميليمتراً وعرضها ٢٥ ميليمتراً وهذا الصنف أغلى الأصناف وأجودهامكبوساً ويندر عصره لاستخراج زيتهمنه.

الكرم : الكرم شائع كثير في الشام ، وتقدر مساحة الكروم بنحو ستين ألف هكتار (عدا فلسطين وشرقي الأردن) . وأوسع الكروم اليوم في الصلت ودومة وداريا بالقرب من دمشق وفي زحلة وبحمدون وحمص وتلبيسة بالقرب من حمص وفي حلب الخ . ولا تخلو قرية من قرى لبنان ووادي التيم وجبال النصيرية وقلمون من قليل من الكروم . والكرمة تعيش في البعل من الأرض لا يسقى من الكروم إلا ما كان منها في الغوطة والمرج وفي أرجاء سلمية.وتؤكل الأعناب أو تصنع زبيباً أو دبساً أو خلاً أو عرقاً أو نبيذاً . والكرم أصناف عديدة ، أشهرها الزيني والبلدي والأحمر والأحمر الداراني والدربني والحلواني والأسود في دمشق والغوطة ، والفضي والقاصوفي والشقيفي والقمحاني والمريمي والخانقي وبيض الحمام والزحلاوي في وادي التيم والبقاع ، والجحافي والبياضي في سلمية . وعنب الشيخ واصبع الست في الإسكندرونة الخ .

وقضبان الزيني طوال سلامياتها متوسطة وعناقيده ضخمة نصف كثيفة وورقه كبار مشرحة بشقوق عميقة حافاتها مسننة وثمرته مستطيلة قشرتها بيضاء غليظة ولبها مائع . تؤكل ثمار هذا الصنف ولا يصنع منها زبيب أو خمر وهي من أجود الأعناب .

وعناقيد البلدي رَهِلة وثمرته أسطوانية طويلة بيضاء إلى خضرة ، ذات قشرة ملتصقة باللب واللب لحمي قاسٍ لذيذ . وثمار هذا الصنف كالسابق تؤكل ولا يصنع منها شيء . وليس العنب الأحمر من الأعناب اللذيذة ويصنع منه زبيب ودبس وخمر وعرق . أما الأحمر الداراني فثمرته قليلة الحمرة مستديرة مع شيء من الاستطالة لبها نصف لحمي لذيذ وهي تؤكل ويصنع منها زبيب ومسكرات

ويعادل ثمن هذا الصنف ثمن العنب الزيني .

والفضي من أجود أعناب وادي التيم ثمرته مستديرة متوسطة الجرم قشرتها رقيقة صفراء ولبها يكاد يكون مائياً وبزورها متوسطة . أما القاصوفي فثمرته أسطوانية منتفخة قليلاً في وسطها نصف لحمية بيضاء إلى خضرة وهي أصغر قليلا من ثمرة العنب الزيني .

البرتقال والليمون الحامض : ذكر علماء النبات أن موطن هاتين الشجرتين الأصلية في شرق آسيا ، وأن الفضل يعود إلى العرب في نقلهما إلى سواحل بحر الروم . وهما ينجبان في الغور وسواحل الشام ولا بد من إسقائهما . أما في مناطق السهول المرتفعة والجبال كالغوطة وحوران وحلب والزبداني مثلاً فإن هبوط الحرارة في الشتاء إلى بضع درجات تحت الصفر يودي بحياتهما ، ولهذا لا يزرعان في تلك الأرجاء إلا في حدائق البيوت حيث يكونان بين جدران تقيهما تأثير الرياح الباردة فيهما .

وأوسع بساتين البرتقال والليمون اليوم في يافا (نحو ٢٠٠٠ هكتار) ثم في طرابلس (نحو ١٢٠٠ هكتار) ويليهما منطقة الإسكندرونة (درت يول وبياس) وبيروت وصيدا وصور وعكا الخ .

وأجود أصناف البرتقال اليافاوي أو اليافوني (شموطي) ثمرته ضخمة بيضية ذات قشرة غليظة ولب قاسٍ لذيذ ، لكنه قليل العصارة لا سيما بعد تمام نضجه . وهو ينقل بسهولة إلى القاصية مثل إنكلترا حيث يرجح على كثير من الأصناف . ومما يستملح فيه سهولة تقشيره دون تلويث اليدين .

ومن أكثر الأصناف انتشاراً البرتقال البلدي وهو ذو ثمرة كروية أصغر من ثمرة اليافاوي قشرتها رقيقة ولبها كثير العصارة . وهذا الصنف لا يصلح للأسفار مثل اليافاوي . ومن أصناف البرتقال الماوردي وهو يعرف بقشرة رقيقة حمراء ملتصقة باللب ولبٍ أحمر كثير العصارة . وهذا الصنف لا يألف الأسفار الطويلة وتقشيره صعب .

كان يقدر محصول البرتقال في يافا في سنة (١٩١٤) أي في بدء الحرب الكبرى بنحو ١,٨٥٠,٠٠٠ صندوق ، أما بعد الحرب فقد هبط المحصول إلى ١,٤٠٠,٠٠٠ صندوق تقريباً . وقد زاد في العهد محصول البرتقال اليافاوي وبعبارة أصح

الفلسطيني أربعة أو خمسة أضعاف ما كان عليه قبل ربع قرن . وكان محصول طرابلس قبل الحرب ٨٠٠,٠٠٠ صندوق من البرتقال و ٢٤٠,٠٠٠ صندوق من الليمون الحامض على وجه التقريب (يحتوي الصندوق على ١٥٠ برتقالة أو ٣٠٠ ليمونة) . أما بعد الحرب فهبطت هذه المقادير إلى نصفها . ويشحن معظم محصول يافا إلى إنكلترا ومصر ، أما محصول طرابلس فإلى أوديسا وبلغاريا والقسطنطينية ومصر . وكذا محاصيل صيدا والإسكندرونة .

المشمش : يمكن غرس المشمش في جميع أقاليم الشام الزراعية وليس فيها ما لا يصلح له سوى الجبال العالية حيث يخشى على أزهاره وفراخه من تأثير الصقيع فيها في الربيع . وهو لا ينجب في غير الأرض التي يمكن إسقاؤها . وأعظم مغروساته في الغوطة والمرج ووادي العجم ووادي بردى وحول صيدا وبيروت وبعلبك وأنطاكية وأرسوس . ومنه قليل في كثير من البلدان التي يمكن فيها إسقاؤه . وأشهر أصنافه اليوم الحموي والبلدي والسندياني والوزري والعجمي والكلابي في دمشق ثم اللوزي في الساحل .

وللحموي ثمرة متوسطة الحجم صفراء ذهبية لامعة تذوب في الفم وتهضم بسهولة وداخلها بزرة حلوة . وهي أجمل ثمار المشمش منظراً وألذها طعماً وأعطرها رائحة وأغلاها ثمناً تؤكل رخصة ولا يصنع منها قمر الدين . أما ثمار المشمش البلدي فكبيرة ضاربة إلى حمرة ضمنها بزور حلوة وتجيء في اللذة بعد الحموي ، تؤكل رخصة ويصنع منها ألذّ المفلقات (النقوع) . وتبلغ أشجار هذا الصنف عشرين في المئة من مجموع شجر المشمش في الغوطة والمرج . أما الحموي فلا يزيد على خمسة في المئة . ويشبه المشمش السندياني الحموي بشكل ثماره وشتان بين الثمرتين في اللذة لأن السندياني هو تقليد الحموي كما يقول الدمشقيون . ونسبة البلدي إلى الوزري من هذه الوجهة كنسبة السندياني إلى الحموي أما المشمش العجمي فثماره كبيرة جميلة المنظر صفراء إلى خضرة لبها قاسٍ وطعمها سكري لكنه مجرد عن طعم المشمش الخصوصي بل هو يشبه طعم الدراق ، ولهذا لا نستملح هذا الصنف وهو غير شائع . وثمار المشمش الكلابي أصغر الثمار حجماً وأردؤها طعماً وهي صفراء إلى حمرة بزورها مرة ، وهذا الصنف أشهر الأصناف في الغوطتين إذ تبلغ نسبته نحو ٧٠ في المئة من مجموع

شجر المشمش ، ومنه يصنع قمر الدين المشهور . وهو يوالد من بزوره ولا يطعم فهو إذن أقرب الأصناف إلى المشمش البري . وثمرة المشمس اللوزي في الساحل شبيهة بثمرة الحموي بدمشق ولعلهما صنف واحد .

دمشق مركز تجارة المشمش وما يصنع منه ، ومنها يصدر قمر الدين والنقوع وبزر المشمش إلى مصر والأناضول وإلى أميركا الشمالية ويقدر اليوم متوسط حاصلات المشمش في الغوطة والمرج بنحو اثني عشر مليوناً من الكيلو غرامات سنوياً منها نحو ٨٠ في المئة من المشمش الكلابي الذي يصنع منه قمر الدين ، ويظهر أن مستغلاته قبل الحرب الكبرى كانت أعظم منها اليوم .

الفستق : إن غابات البطم في البلعاس وبقية أشجار الفستق الهرمة في قرية عين التينة تحمل على دعوى أن الشام من البلاد التي تعد بلاد الفستق الأصلية . وتكاد زراعة الفستق لا تتجاوز اليوم حلب حيث تأتي أجود ثماره وألذّهاوأغلاها ومن أصنافه في تلك المدينة الأبيض المراوحي والعاشوري والعليمي والباتوري وناب الجمل والعينتابي ، ويقدر ما ينتج من ثماره حوالى حلب بنيف ومائة ألف كيلو في السنة .

الحيوانات الدواجن في الشام :

الخيل — الخيل في الشام ثلاثة أصناف العراب أو الأصيلة ، والبراذين أو ما تعرف اليوم بالكدش ، والمولدة وهي التي تولد من أم عربية وأب أعجمي أو على العكس . ففي الحالة الأولى يسمى المولّد هجيناً ، وفي الثانية مقرفاً .

تجلب الكدش من الأناضول خاصةً وهي بشعة المنظر إذا قيست بالخيل العراب ، لا تركب بل تصلح لحمل الأثقال أو جرها أو درس الحصائد وعددها عظيم يبلغ نحو سبعين في المئة من مجموع خيل الشام . أما الخيل المولّدة فأجمل من البراذين وأقوى وهي تركب أكثر ما تستعمل في جر المركبات في المدن ونسبتها للمجموع نحو ٢٠ في المئة .

وأجمل الخيل في العالم هي العراب وتحليتها علمياً كما يلي : مستقيمة الرأس متوسطة الجثة طول أعضائها متوسط لها رأس مربع وجبهة مسطحة ومقدم مستقيم ووجه متوسط الطول ، وفكان متباعدتان ومنخران جامدان ومرنان معاً ، وأذنان

حساستان وعينان كبيرتان تنمان عن ذكاء ، وعنق رشيق شديد العضل ، وظهر مستقيم وردف أُفقي مكتنز . وعجزان مستديران وصدر واسع وبطن صغير ، وقوائم رشيقة قوية العضل عمودية لا عيب فيها ، وأوتار جلية ومفاصل عريضة وجلد رقيق مرن وشعر لامع قصير وعرف وسيب طويلان ناعمان متموجان . ومجموع الجواد العربي آية في انتظام تكوينه فهو جميل قوي شهم ، ولا ريب أنه أكمل جواد على وجه الأرض .

ويختلف لون الخيل العراب وقد استفاضت شهرة الشُهْبِ والشُقْرِ والكُمْتِ . وأجملها الشهب المدنرة أي التي يخالط الشهبة فيها نكتٌ سودٌ (أبيض مبقج أو أزرق مبقج) .

وزن الجياد العراب بين ٤٠٠ و ٤٥٠ كيلو غراماً ارتفاعها ١,٤٢ إلى١,٥٥ متر ،ودورة صدرها١,٧٢ إلى١,٧٨ متر، وتصلح الخيل العربية للركوب والسباق خاصةً وإن من إسفاد ذكورها على إناث إنكليزية غير كريمة منذ بضعة قرون تولدت الجياد الإنكليزية الصافية السبّاقة الشهيرة التي يقصر اليوم عن إدراكها كل جواد في حلبة السباق .

وأجمل الخيل العراب ما كان في دمشق وحمص وحماة ولدى بعض الأسر والعشائر القديمة كالدنادشة في تل كلخ والموالي في شمال الشام . ولا تزيد نسبتها على عشرة في المائة من مجموع عدد الخيل لدى أهل الحضر من الشاميين .

الحمير — في الشام ثلاثة عروق من الحمير : الآسيوي والمصري والقبرصي أو الأوربي . فالصنف الأسيوي هو الأشهر (تبلغ نسبته ٩٥ في المئة من مجموع حُمر الشام) لونه إلى سواد وارتفاعه متر إلى متر وربع ، وهو حيوان الفقراء ، يصلح للركوب والحمل ولا يوازيه حيوان بصبره وقناعته وفوائده الجمة إذا قيست بالعلف القليل الذي يُعلفه . أما الحمر المصرية فبيضاء اللون ارتفاعها أكبر من ارتفاع الحمر الأسيوية ولا تستخدم إلا للركوب وهي جميلة المنظر سباقة في نوعها وثمن الجيد منها غالٍ لا سيما في المدن . أما الحمر القبرصية فتعرف من كبر قدها إذ يبلغ ارتفاعها ١,٣٠ إلى ١,٤٠ متر وهي تستعمل في سفاد إناث الخيل للحصول على بغالٍ عظيمة القد قوية البنية .

البغال — تحصل من إسفاد الحمر القبرصية على البراذين (كدش) وهي

ذات قَدّ يقرب من قد البراذين فهي إذن صغيرة القد وفائدتها بقناعتها وقوتها وتحملها الأتعاب وقيامها بأعمال تشق على كل حيوان غيرها . فهي تستخدم مثلاً في الحرث بمحاريث حديثة لأن بقر الشام صغير الجثة لا يقوى على إثارة الأرض بها . وتحمّل أثقالاً في المناطق الجبلية الوعرة المسالك كوادي التيم والقرى الجبلية من إقليم البلان وتجر المركبات الضخمة المحملة بضاعات ومؤناً على الطرقات المعبدة في لبنان وبين دمشق وبيروت . ومَن منا لم ير في لبنان وبيروت المركبات الشهيرة التي تسمى (كارات) يجرها أربعة بغال مصفوفة بعضها أمام بعض على سطر واحد . ولقد ترك الجيش الإنكليزي في الشام عقب الحرب الكبرى عدداً عظيماً من البغال الكبيرة القد لا تبرح بقاياها في دمشق إلى يومنا هذا . وهي تتطلب عنايات كثيرة وعلفاً زائداً ولا تتحمل المشاق بقدر البغال الشامية .

البقر — بقر الشام من العرق الآسيوي القصير الرأس ذي الجبهة المستقيمة العريضة وهو على ثلاثة أصناف : البلدي والعكش والجولاني (أو الحميسي) فالبقر البلدي شائع في الغوطة وفي أرجاء العاصي ويسميه الحمصيون البقر الحلبي والحمويون البقر الشامي وهو كبير طويل القامة (متر وربع إلى متر ونصف) صلب العود قصير الرأس والقرون ناعم الجلد تغلب الشقرة على لونه وقد يكون كميتاً أو إلى سواد أحياناً . ووزنه ٣٠٠—٥٠٠ كيلو غرام وهو بالنظر إلى كِبَر قده أقرب الأصناف إلى البقر الأوربية ولذا يصلح للحرث حرثاً عميقاً إذا علفت أنثاه علفاً غزيراً تحلب في الغوطة طول السنة تقريباً . ويُحسب أنها تدر عندئذ ١٢—١٥ كيلو في اليوم خلال ستة أشهر عقب الوضع و ٨—١٠ كيلو في اليوم في الثلاثة الأشهر التي تليها ثم ٤—٥ كيلو في اليوم خلال شهرين آخرين . فيكون الوزن المتوسط لما تدرّه من اللبن في السنة ٢٥٠٠—٢٧٠٠ كيلو .

ولا يألف البقر البلدي أقاليم الشام بأسرها بل يتطلب إقليماً معتدلاً ورطباً ، ولهذا يندر أن تراه في غير البساتين وهو لا يقاوم الحر في السهول التي لا ماء للري فيها كحوران والبلقاء وسهول حمص وحماة وغيرها . وعدده ليس عظيماً ولا يزيد على ١٠ أو ١٢ في المائة من مجموع بقر الشام . ويسمى البقر الجولاني بأسماء مختلفة فيقال له الحميسي في النبك والزبداني والبزري في حماة . ويغلب

على الظن أنه حصل من إسفاد الثور البلدي على البقرة العكش ولذا جاء قده ووزنه وتكوينه وطباعه بين بين . فإن له رأساً قصيراً وجبهة عريضة وقرنين متجهين إلى الأمام وثوباً أسود في الغالب وقد يكون أشقر أحياناً . وطوله نحو ١,١٥ إلى ١,٣٠ متر ووزنه نحو ٢٥٠ كيلو . وهو يعد في العوامل وتعطي أُنثاه قليلاً من اللبن . وليس له رقة البقر البلدي وهو أكثر منه تحملاً للحر والقُر والجوع والتعب . ونسبته للمجموع ١٥ في المئة تقريباً .

وأشهر البقر اليوم هو الذي يدعى البقر العكش في أكثر أنحاء الشام . ويسميه الحمويون القليطي والحمصيون الأناضولي . ولا تختلف تحليته من حيث تكوينه عما ذكر . وله جرم صغير ولا يزيد ارتفاعه على متر وعشرة سنتيمترات إلى متر وربع ووزنه نحو ٢٠٠ كيلو وقد يكون أقل من ذلك فهو إذن لا يصلح للحرث بمحاريث حديثة تغور في التراب كثيراً . ويغلب عليه اللون الأسود وقليلاً ما يكون أبرش أو أشقر . ويحتمل هذا الصنف من البقر الجوع والتعب والحر واليبوسه ولهذا تبلغ نسبته نحو ٧٥ في المئة من مجموع بقر الشام . ودَرّ أنثاه قليل ويسهل علفه وتسمينه بالغذاء .

الضأن — ينتسب للضأن في الشام إلى العرق الشامي أو الآسيوي وهاك تحليته فنياً : رأسه طويل قليلاً وجبهته تكاد تكون مستقيمة ، وقرناه معقوفان متجهان إلى الوراء ، وقد يتفرعان ، ووجهه مستطيل ، وعظام منخره طويلة ، ومنظر رأسه ووجهه ينم عن احديداب قليل ، وذنبه عظيم فيه مقدار كبير من الدهن . ووزنه المتوسط نحو ٤٠ كيلو غراماً وطوله ٦٥—٧٥ سنتيمتراً . وهويسمن بسهولة أما مقدار الدَرّ في النعاج فمتوسط .

وفي الشام أصناف للضأن أشهرها المسمى (عَوَاس) أو ضأن الموصل وهو شائع في حمص وحماة والبقاع ودمشق ولبنان وغيرها . صوفه أبيض يبلغ كيلو غراماً ونصفاً إلى كيلو غرامين وقد يزيد على ذلك . وينقص نحو نصفه إذا غسل ويبلغ وزن إليته ٥ إلى ٦ كيلو غرامات وطول الشعرة من صوفه ١٥—١٨ سنتيمتراً .

وما ذكر من الأرقام هو الحد الأوسط ، وربّ كبش سمن في لبنان بورق التوت والكرمة فبلغ وزنه ضعفي ما ذكر ، وبلغ طول الشعرة من صوفه ٣٠

سنتيمتراً وزاد وزن إليته على ثمانية كيلو غرامات ، ورقّ صوفه ومَرِن .

ويرد إلى الشام أصناف أخرى للضأن كالحمراء والبرازية والشقراء والنجدية ثم ضأن أرزنجان أو المور في حلب وهو ذو صوف أحمر أو إلى سواد . وتدر النعجة لبنها ٤ـ٥ أشهر فتعطي في اليوم نحو ٥٠٠ غرام . وإذا علفت كما تعلف في حمص والبقاع تعطي ٧٥٠ غراماً إلى كيلو غرام من الحليب في كل يوم . ويبدأ جز الصوف في آذار وينتهي في أيار في المناطق الباردة ، وأكثر ما يكون في نيسان .

ويزيد عدد الضأن في الشام على مليوني رأس وتربيته شائعة لدى العشائر البدوية الضاربة في الشرق ومنها الجزيرة . وقد اشتهرت عشيرة الحديديين بحسن تربية الكباش والنعاج الصالحة للسفاد . واشتهر السمن الحديدي نسبة إلى تلك العشيرة التي تقطن منطقة الحمراء ومعرة النعمان في الصيف . وينقل في كل سنة قطعان عظيمة من الغنم من الروم والعراق إلى الشام حيث يستهلك بعضها ويرسل الآخر إلى مصر وجزر يونان وغيرها .

المعز ـ معز الشام من العرق الإفريقي وتحت العرق النوبي (نسبة إلى النوبة) وهي تعرف برأس طويل ووجه قصير على شكل مثلث قاعدته ضيقة ، وجبهته محدبة كثيراً . وهي على صنفين البلدية والجبلية ، فالمعز البلدية يبلغ ارتفاعها ٧٠ـ٧٥ سنتيمتراً ووزنها ٣٠ـ٣٥ كيلو غراماً ، ولها ثوب أحمر أو أحمر ملمع ببياض . وقد تكون شهباء أو سوداء أحياناً وقد تجمع ثلاثة ألوان متفرقة : بياض وحمرة وسواد . وإذا كان لونها أحمر وجبهتها بيضاء سميت صبحاء بدمشق ، أما إذا جمعت البياض والحمرة فتسمى عجمية ، وهي جمّاء في الغالب . وإذا نجمت لها قرون تظل صغيرة وكثيراً ما تقطع ، وينمو لكل منها زَنَمتان طويلتان فتسمى الشاة قرطاء وهي شية حسنة تزيد ثمنها وأذناها طويلتان متدليتان وكثيراً ما ينيف طول واحدتهما على شبر ويقطعهما الأكارون إذا أفرطتا في الطول . والبلدية من أجود المعزى الحلوبة فهي إذا صادفت عناية تدر في اليوم ليترين إلى ثلاثة من الحليب مدة ستة أشهر وتدر نصف هذا المقدار تقريباً خلال شهرين آخرين . وهي ترعى في الغوطة العشب النامي حول القني ومجاري الماء وترعى أيضاً الفصفصة والبيقية الخضراء ، وكثيراً ما تعلف نحو كيلو غرام من حب الجلبان

صباح كل يوم قبل تسريحها وهذا خاص بالحلوبة منها .

والماعز الجبلية تشبه البلدية بصفاتها الفنية لكنها أقصر منها ، ولها ثوب أكثر ما يكون أسود ، وهي ليست دروراً بقدر البلدية . والمعزى الجبلية منتشرة في أنحاء الشام لا تخلو منها قرية وعلى العكس في البلدية التي تكاد لا تخرج عن المدن والمناطق التي يكثر فيها الكلأ في فصول السنة .

الإبل – إبل الشام من ذوات السنام الواحد . أما ذوات السنامين فتوجد في جبال فارس والأناضول وبلاد الكرد وتنقل إليها من آسيا الوسطى . ولما كانت تحتمل البرد والسير في المسالك الوعرة فقد فكر الشاميون في إسفاد فحولها على النوق الشامية فحصلوا على هجن لها سنام واحد كأمهاتها وذات جَلَد على السير في الجبال والأوعار كآبائها . وهذه الهجن شائعة في الجزيرة ولبنان وعجلون وغيرها وهي تعرف بقصر القامة وصغر الرأس .

والركائب من إبل الشام أصناف وأشهرها اليوم إبل الحرة لدى عشيرتي بني صخر والشرارات وغيرهما في البلقاء . وينتقي الجيش ركائبه من هذه الإبل غالباً . ومنها الإبل العُمانيات أصلها من عُمان وهي ذات رأس نحيف وقدّ أهيف ومزاج عصبي . وجيش الهند يبتاع منها ما يلزمه من الإبل ، ومنها الإبل التيهية أصلها من السودان وترد إلى فلسطين والبلقاء مع القوافل الآتية من مصر . وقد كانت إبل الجيش الإنكليزي من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى .

ويطلق الأوربيون كلمة مهري على الإبل السباقة عموماً أو على عرق معلوم منها . ويُظن أن هذا الاسم مشتق من الإبل المَهْرِيّة المنسوبة إلى مَهْرَةَ بن حَيْدانَ وهي مشهورة بالسبق .

والبعير صديق البدوي الحميم ولولاه لزالت البداوة ، فهو يحمل الخيام والماء في المراحل الخالية من الماء ومؤناً تكفي لستة أشهر يقضيها البدوي مع عشيرته في صحراء الشام ، ويحمل البدوي نفسه وعياله وسلاحه وتحلب الناقة بعد الوضع في كل يوم خمسة ليترات إلى عشرة في مدة سنة أو أكثر ، وحليب النوق لذيذ ملين ، وليس لحم الجمل أردأ من لحم البقر الذي يأكله الأوربيون ووبر الجمل ألين من صوف الضأن ومنه تصنع عباءات الوبر العراقية الشهيرة ، وتصنع من جلده قرب عظام منها ما يسع ٢٠٠ ليتر من الماء وتعمل أيضاً نعال

قوية لا تفنى من جلد ركبتيه وغيرهما من أعضائه التي تحتك بالأرض بينما يكون الجمل جالساً .

الصناعات الزراعية في الشام :

ليس في الشام اليوم معامل عظيمة للمصنوعات الزراعية كما في أوربا، لكن لبعض هذه المصنوعات (وإن كانت تصنع على الطرائق القديمة) شأناً كبيراً في الحياة الاقتصادية . وأهم هذه المصنوعات قمر الدين والنَقوع والزبيب والدبس والصابون والزيت والسمن والعرق والخمر والجبن والطحين والنشاء .

قمر الدين — يصنع أشهر قمر الدين في الغوطة والمرج وقليلاً في وادي العجم والزبداني وبعلبك وفي كل مكان فيه مقدار من شجر المشمش ويلزم أربعة أرطال إلى أربعة ونصف من المشمش للحصول على رطل من قمر الدين، وهو يصنع من المشمش الكلابي ويندر صنعه من المشمش البلدي ، واشتهر منه بدمشق ما يرد من قريتي زملكا وعربيل من قرى الغوطة ، وليس صنعه أمراً عسراً فالمشمش يسحق بالأيدي في غربال موضوع فوق بناء يسمى تيغاراً مفروشة أرضه بالاسمنت ثم يغترف العصير بكيلة من خشب ويفرش بمهارة على لوح من خشب بعد أن يطلى اللوح بقليل من الزيت ، وبعدها يوضع اللوح في الشمس يوماً ونصف يوم فيجف العصير ويصير شرائح وزن كل منها رطل تقريباً وهي « لفات » قمر الدين المعلومة .

ومعظم القمر الدين الذي يصنع حوالى دمشق يشحن اليوم إلى مصر وشمال الشام ، ويقدر ما يصنع منه سنوياً بنحو ٤٠,٠٠٠ قنطار دمشقي وهو المقدار المتوسط . (يساوي القنطار الدمشقي ٢٥٦ كيلو غراماً) .

النقوع — هي ثمار المشمش المجففة وتسمى بالعربية المُفَلَّق، تصنع من المشمش البلدي وذلك بأن يوضع المشمش في الشمس على مسطاح من القش مدة أربعة أيام ، ثم تكبس الثمار بين الكفين وتترك يومين آخرين . ثم ترقق أطرافها بالأصابع ثم تترك يومين أو أكثر فتجف . ويلزم خمسة أرطال من المشمش للحصول على رطل من النقوع . ويدل إحصاء المكس في بيروت على أنه صدر منها وحدها سنة،(١٩١١) ٦٨٠,٠٠٠ كيلو غرام من النقوع ومليون ونيف كيلو

غرام من بزور المشمش وهي تصلح لاستخراج زيت منها .

الزبيب والدبس — أجود زبيب في الشام ما يحصل من تزبيب العنب الدربلي في جيرود والرحيبة والريحان ودومة ، ويليه زبيب الصلت . ويصنع الزبيب في كل القرى التي فيها أعناب ، وليس في صنعه صعوبة ، فالعنب يغطس بماء فيه شيء من القلي والزيت ثم يفرش على مسطاح مدة ثمانية أيام فيجف . ويحسب أن كل أربعة أرطال من العنب ينتج منها رطل من الزبيب . وللثمار المجففة شأن كبير إذا صحت العزيمة على الاعتناء بصفها وبقطفها وشحنها إلى الديار الأجنبية كما يفعل الزراع حول مدينة أزمير بزبيبهم وتينهم المجّفف .

ويصنع الدبس من الزبيب أو العنب ، ففي الحالة الأولى يدرس الزبيب في المعصرة بمدرس من حجر حتى يصير كتلة لزجة ، ثم يوضع في قدور كبيرة ويغمر بالماء مدة ٢٤ ساعة ، ثم يؤخذ ماء الزبيب (جلاب أوصليبة) ويوضع في مرجل وتضرم النار تحته حتى يتحصل الدبس . ويلزم مائة رطل من الزبيب للحصول على ٦٠ إلى ٨٠ رطلاً من الدبس . واشتهر دباسو قرى معربا ودومة وعربيل بصنع دبس لذيذ يعطرونه بعطر الورد أحياناً .

الصابون — أشهر مصابن الشام في طرابلس ونابلس ودمشق وحلب وكلز ، ويبلغ المقدار المتوسط للصابون الذي يصنع سوياً في الشام نحو ١٣,٠٠٠ طن . وصناعته على الأصول القديمة .

الزيت — أشهر الزيوت ما يصنع في معاصر لبنان وفلسطين وأشهرها جميعاً زيت الرامة ، واعتاد أرباب الزيتون في دمشق أن يتركوه مدة طويلة في المعصرة ، فيختمر ويتعفن ويحصل له طعم كريه ، حتى إنه ليشق تصريفه خارج الشام . والداعي إلى ذلك قلة المعاصر بدمشق وخصوصاً اعتقاد الزراع بأنه بقدر ما تطول المدة بين قطف الزيتون وعصره تزداد نسبة الزيت المتحصل بالعصر . واعتقادهم هذا صحيح إلا أن زيادة نسبة الزيت لا توازي هبوط سعره المنبعث عن رداءة طعمه .

ويتوقف استخراج الزيت على الأعمال الآتية : (أولاً) سحق الزيتون بأسطوانة من حجر يديرها بغل داخل وعاء مستدير من حجر . (ثانياً) كبس الزيتون المسحوق لتفريق الزيت عن الثفل وذلك بمكبس عادي أو مكبس مائي .

(ثالثاً) تفريق الزيت عن الماء والعناصر الأجنبية المختلطة به وذلك بترك العصير يروق فيفترق الزيت الصافي لأنه يطفو على وجه العصير . أما الثفل فهو يسحق ويكبس فيخرج منه زيت أسود يسميه الدمشقيرن زيت الجفت يستعمل في صنع الصابون .

وفي الشام اليوم أكثر من ٤٠٠ مكبس منها نحو ٢٠٠ مكبس مائي ، ويستدل من عدد المكابس على عدد المعاصر ، وإذا استثنينا فلسطين وشرقي الأردن فإن متوسط ما يستخرج من الزيت في باقي أنحاء الشام يقدر بنحو ١٠,٥٠٠ طن نصفها اليوم في لبنان .

السمن — هو المادة التي يطبخ بها الشاميون أكثر أغذيتهم على العكس من الفرنج فهم يطبخونها بالزبدة ولا يعرفون السمن ، ويصنع السمن بمخض اللبن في مماخض من جلد الغنم ، تعلق بحبلين يُشدان إلى دعائم ويدوم المخض نحو ساعتين ونصف فيلتصق السمن بداخل الممخضة ويقشط بعد تفريغ اللبن . ويقدر أنه يحصل أربعة أرطال من السمن من مائة رطل من اللبن . والسمن من صناعات البدو ، وأجود السمون ما يصنعه عشيرة الحديديين بلبن الضأن .

العرق والخمر — العرق ألذّ المسكرات وأرجحها لدى الشاميين ، ويصنع منه ما لا يقل عن ١٥,٠٠٠ هيكتوليتر في كل سنة في دمشق والنبك وحمص وزحلة وكثير من قرى فلسطين ولبنان ووادي التيم . يوضع عصير العنب في دنان عظيمة حتى إذا اختمر يضاف إليه الأنيسون بحيث يكون حظ كل مائة كيلو غرام من العصير ثلاثمائة غرام من الأنيسون ، وبعدها يقطر العرق بالانبيق فيكون مقداره ربع العصير تقريباً ، وإذا أريد الحصول على عرق نسبة الكحول فيه أكبر (عرق مثلث) يعمد إلى العرق الأول فيضاف إليه مقدار من الأنيسون ويقطر منه عرق ثقيل .

وليس شرب الخمر شائعاً في الشام شيوعه في أوربا حيث يقوم مقام الماء أثناء الطعام . وأكبر المعامل لصنع الخمرة هو معمل ريشون في عيون قارة في فلسطين وهو معدود من أكبر معامل العالم ويشحن نبيذه إلى مصر والعراق وإلى أوربا ولا يستهلك من نبيذه في الشام إلا مقدار قليل ، ويليه معمل كسارة ومعمل شتورة في البقاع .

النشاء — يصنع في الشام لا سيما في دمشق وحلب مقدار من النشاء لاستهلاكه وقاعات النشاء في دمشق معروفة ، وهو يستخرج فيها من الحنطة على طريقة قديمة بسيطة لا شأن للآلات الحديثة فيها . تنقع الحنطة في الماء نحو عشرة أيام ثم تسحق بحجر الرحى وتمرس بضع مرات بالماء حتى يخالط النشاء الماء وبعدها يترك المائع فيرسب النشاء في قعر الوعاء ، ويحسب أن القنطار من الحنطة يعطي ٦٥—٧٠ رطلاً من النشاء بهذه الطريقة ، أما الثفل فتعلفه الجمال .

المطاحن — كانت مطاحن الشام إلى عهد قريب عبارة عن أحجار رحى يديرها الماء بقوة انحداره ، أما اليوم فيشاهد المرء عشرات من المطاحن البخارية في الأماكن التي لا ماء فيها عدا بضع مطاحن على آخر طراز من الفن أي إن أرحيتها أسطوانات تدار بالكهرباء وهي في دمشق وحيفا ويافا .

الجبن والقشطة — تعزل القشطة عن الحليب فتؤكل وحدها وتضاف إلى بعض الحلواء ، وتصنع جبنة لا لذة لها بالحليب الذي فرزت قشطته ، وأشهر أنواع الجبن المصنوع في الشام الأبيض والحالوم الحلبي ، وقد أخذ الشاميون يصنعون جبن البلقان المسمى قشقوان ولم يتوصلوا إلى تخميره كما في مواطنه الأصلية وجميع أنواع الجبن المذكورة بعيدة عن أن تساوي أنواع الجبن الأوربية بلذتها وتعدد أنواعها .

زراعة الشام من الوجهتين المالية والاقتصادية :

نذكر في هذا البحث أقسام الأرض والضرائب الزراعية وطرائق استثمار الأرض وإقراض الزراع .

أقسام الأرض — تقسم الأرض في الشام من الوجهة القانونية إلى خمسة أقسام وهي الأرض المملوكة والأميرية والموقوفة والمتروكة والموات ، ولكل قسم من هذه الأقسام نظام خاص في دفع الضرائب الزراعية . فالأرض المملوكة هي التي يملكها صاحبها ملكاً صحيحاً تاماً بحيث يستطيع وقفها وعدم زرعها مدة طويلة ، ومثالها الحدائق المتصلة بالبيوت وما يسمى الأرض العشرية والخراجية (بعض بساتين محيطة بمدينة دمشق الخ) . والأرض الأميرية هي التي يعود تملكها (رقبتها) لبيت المال ، وهو يخول الأهلين استثمارها أي حق التصرف بها بصك يسمى

« سند التصرف » . ومعظم الأرض في الشام من هذا القسم . وليس من فرق كبير في الأمور الجوهرية بين المتصرف بالأرض الأميرية وبين مالك الأرض المملوكة ، لأن الأول وإن لم يملك الأرض قانونياً فإن له سلطة كافية في استثمارها والنزول عنها حسب إرادته ، وهي تنتقل لورثته بعد وفاته ، إلا أنه لا يستطيع وقفها إلا بإذن وهو إن لم يستثمرها ثلاث سنين بلا عذر مقبول يضطر إلى دفع قيمتها على شكل معلوم ، حتى إذا استنكف من الدفع عدت الأرض محلولة ووجب بيعها بالمزاد العلني . وثمة فرق بين الأرض المملوكة والأرض الأميرية ، وهو أن للورثاء من الدرجة الواحدة حصصاً يتساوى فيها الذكر والأنثى في الأرض الأميرية ، أما في الأرض المملوكة فللذكر مثل حظ الأنثيين . ولا يسمح للمتصرف بالأرض الأميرية أن يوصي بها بعد مماته وعلى العكس في رب الأرض المملوكة . والأرض الموقوفة هي التي حبست في سبيل البر وليس من شأننا البحث فيها ، والأرض المتروكة هي التي تركت للنفع العام كالطرق والساحات والبيادر والمحتطبات ومراعي القرى . وهي لا يملكها أحد ورقبتها لبيت المال والتصرف بها للجماعة . والأرض الموات هي الأرض البعيدة عن العمران التي لا يتصرف بها أحد . والحكومة تعطي رخصاً بإحياء الأرض الموات فبالتصرف بها على شروط موضحة في قانون الأرض .

الضرائب الزراعية :

على الأرض الأميرية في يومنا هذا نوعان من الضرائب ، ضريبة تابعة لقانون ٧ رمضان سنة (١٢٧٤هـ) وقدرها ٤ في الألف من ثمن الأرض ، وضريبة أعظم شأناً وأكبر تأثيراً في الزراعة وهي العشر أي استيفاء عشرة في المائة من محاصيل الأرض غير الصافية يضاف إليها اثنان ونصف باسم المعارف والمصرف الزراعي أما الأرض المملوكة (وهي كما قلنا قليلة في الشام إلا في لبنان الصغير حيث كل الأرض تعد مملوكة) فصاحبها لا يدفع العشر من غلاتها بل يدفع عشرة في الألف من ثمنها في كل سنة .

والعشر من المصائب المزمنة في هذا القطر لأن ١٢,٥٠ في المئة من المنتوجات

غير الصافية هي نسبة كبيرة في ذاتها ، ولأنه يصعب جداً تخمين الغلات على وجه الضبط لأخذ هذا المقدار منها . فقد حارت حكومات الشام في طريقةاستيفاء العشر أو ثمنه ولا تزال حائرة ، لأنها إذا خمنت الغلات تخميناً فقد يضل المخمنون أو يتعمدون الخطأ أحياناً فيُظلم الفلاحُ إذا جاء التخمين زائداً عن الحقيقة ، وإلا فيخسر بيت المال . وإذا باعت العشر بالمزاودة العلنية من ملتزمين فهم لا يُقدمون على سوى قرى الفلاحين فيظلمونهم بطرق شتّى دون أن يجسروا على المزاودة في عُشْر قرى الوجهاء ، فيكون الضرر مزدوجاً على الفلاح وعلى بيت المال معاً . وقد رأت الحكومة أخيراً أن تعمد إلى معدل عُشر أربع سنين ماضية فتقره وتستوفي ضريبة محدودة مساوية له سواء زرع الفلاحون الأرض أو لم يزرعوها . وهذه الطريقة في استيفاء العشر وإن كانت أصلح من الطريقتين السالفتين إلا أنها ليست عادلة إذا قلّ المطر في إحدى المناطق بعض السنين هذا عدا أن أساسها فاسد ، لأن متوسط عُشر سنين أربع في قرى الفلاحين يكون قريباً من العشر الحقيقي غالباً . أما في قرى الوجهاء فيكون أنقص لأن الأعيان لا يدعون الحكومة تصل إلى حقها .

والخلاصة أن مسألة العشر في الشام من أعقد المسائل وكثيراً ما اقترح أرباب الفلاحة على الحكومة أن تمسح الأرض كما في بلاد الفرنج وتضع على الأرض وما تنتجه ضريبة واحدة لا تتبدل تخلصاً من العشر كما يجري العمل به في أرض مصر . وإن هذا الاقتراح في غير محله أو هو مما يتعذر اتباعه في كل أنحاء الشام على السواء ، لأن الأمطار في الشام متفاوتة التهطال . فقد يهطل في سنة ثلاثة أضعاف ما يهطل في السنة التالية ، لا سيما في سهول الشام الشرقية ، ولهذايختلف محصول الأرض اختلافاً عظيماً كل سنة . وقد تمحل منطقة واسعة في إحدى السنين ولذلك لا يجوز أن يستوفى منها في تلك السنة ضريبة كالتي تستوفى في سني الخصب . أما إذا كانت الأرض تسقى بماء نهر أو قناة فعندها يمكن وضع ضريبة ثابتة عليها كما في الغوطة مثلاً .

طرائق استثمار الأرض :

إذا قلنا إن أكثر من ستين في المائة من سكان الشام يعملون في الفلاحة رأساً

أو بالواسطة فلا نكون مغالين في قولنا لأن سكان المدن الكبيرة والمتوسطة وإن كان عددهم يقرب من نصف مجموع السكان في الشام فكثير منهم لا عمل له غير الفلاحة . ويتصرف الشاميون اليوم بالأرض على نسبة غير عادلة ، ومعنى هذا أن أرباب الوجاهة والثروة على قلتهم يتصرفون بمساحات واسعة جداً في كثير من المناطق ، بينا الفلاح يعمل في الأرض دون أن يكون له في تملكها نصيب ففي أطراف حماة مثلاً ١٢٤ قرية منها ثمانون في المائة لأرباب الوجاهة من عيال لا تتجاوز عدد الأصابع ، والباقي وهو عشرون في المائة يتصرف به الفلاحون ورجال الطبقة المتوسطة من الشعب . وفي أرجاء حمص ١٧٦ قرية منها ثمانون في المائة للوجهاء دون غيرهم وعشرون في المائة مشاع بين هؤلاء الوجهاء والفلاحين إلا بضع قرى لم تمتد إليها أيدي المتغلبين فلبثت للفلاحين وحدهم . وهكذا قل عن كثير من مناطق الشام كقرى معرة النعمان وغيرها في حلب . وليست الحالة كذلك في حوران حيث ترى ٩٥ في المائة من الأرض موزعة بين سكانه على نسبة عادلة ، وكلهم أرباب فلاحة وكذا في جبل حوران وعجلون والبلقاء والكرك ووادي التيم وإقليم البلان ، وما من بيت من بيوت دمشق الكبيرة إلا ويملك مساحات واسعة في الغوطة بل نصف الأرض فيها بيد متوسطي الزراع والربع بيد صغارهم والربع الأخير يخص أرباب الوجاهة بدمشق .

وبعد، فقد كان السلطان عبد الحميد العثماني من أقدر السلاطين على تملك الأرضين وجمع الثروة ، فقد تملك لشخصه شرقي حمص وسلمية نحو مليون هكتار من الأرض تشتمل على جبل البلعاس والشومرية وتمتد إلى مقربة من تدمر ، وعمّر فيها نحو مائة وعشرين قرية ومزرعة تستثمر نحو مائة ألف هكتار . وتملّك في أنحاء حلب نحو ٥٠٠,٠٠٠ هكتار فيها اليوم ٥٦٧ قرية ومزرعة عامرة حوالى منبج والباب وعلى الشاطىء الغربي من الفرات من مصب الساجور إلى مسكنة ويشمل معظم جبل الحاص ومساحات واسعة جنوبي حلب عند مصب نهر قويق واقتنى أيضاً سبع قرى في حوران منها قرية المسمية كما اقتنى بيسان وبضع قرى بالقرب منها . وكان يوطد الأمن في هذه المملكة الخاصة الواسعة ويعفي الزراع المستأجرين من الجندية ويحميهم من تعدي أرباب الوجاهة ويسلفهم المال بلا ربا

حتى عمرت تلك الأنحاء بعد أن كانت منازل للعربان يعيثون فيها فساداً . ولما حصل الانقلاب العثماني سنة(١٩٠٨) اضطر السلطان المشار إليه إلى التنازل عن هذه المعمورات إلى بيت المال ، فأصبحت ملكاً له وأصبح فلاحوها مستأجرين لدى المالك الجديد ، وهو بيت المال أو الحكومة . ويدفع الفلاحون إلى الحكومة عشرين في المائة من المستغلات في بعض الأماكن و ٢٢,٥٠ في المائة في أماكن أخرى (عشر وأجرة أرض معاً) . وهم وإن كانوا مستأجرين لا يملكون الأرض رسمياً فهم يتوارثونها كأنهم مالكون لها والحكومة لا تُخرِج فلاحاً من قريته إلا إذا أتى عملاً منكراً من إحداث فتنة أو التمادي على الإضرار بالناس . ولما كانت الحكومة تسلف هؤلاء الفلاحين أموالاً بلا ربا وكانت تستوفي من غلات الأرض نسبة أقل منها في قرى الوجهاء ، رجحت حالة الفلاح في أملاك الدولة من كل وجه على حالة الفلاح المسكين الذي يستعبده المتغلبون في قراهم. ومع هذا اقتُرح على الحكومة منذ نحو سنتين أن تبيع هذه الأملاك من الفلاحين أنفسهم دون سواهم على أن يدفعوا الثمن أقساطاً خلال خمس عشرة سنة ، وعلى أن يضمن عدم مد المتغلبة أيديهم لهذه الأرضين ، فأقرت الحكومة البيع مبدئياً . وقد أثبتتْ لنا الأيام أنه لا يستطيع أن يزيد في غلات الأرض سوى الذين يملكون فيها مساحات متوسطة أو صغيرة .

ولنرجع إلى طريق استثمار الأرض المتبعة اليوم في الشام فنقول : إذا استثنينا الغوطة والمرج وبعض ما يسقى وما حوالي المدن من المزارع ، حيث يستغل بعض أرباب الزراعة أرضهم مباشرةً ويدفعون إلى الفلاحين المشتغلين بها أجوراً مقطوعة سنوية أو شهرية ، فإن الأرض في سائر الأنحاء تستغل على طريق المزارعة بشرائط مختلفة (بالقسم) . ففي حمص وحماة يأخذ صاحب الأرض ربع المحصول فيدفع منه العشر وتبقى الثلاثة الأرباع للفلاح . وفي هذه الحال يُلزم الفلاح بجميع النفقات والأعمال ، ولكن صاحب الأرض قد يقرضه البذار بربا في الغالب على أن يستوفيها من البيدر . ويأخذ أصحاب الأرض ربع المحاصيل في بعض قرى حوران ويدفعون منه العشر وضريبة الأرض ويكون الباقي للفلاح مقابل النفقات والأتعاب . لكن الطريقة الشائعة في حوران هي إيجار الأرض بمقدار معلوم من الحب كأن توجر (الربعة) بنحو ٥٠–٦٠ مداً

من الحنطة ، ولما كان يزرع في الربعة أرض تستوعب ٥٠ــ٦٠ مداً من البذار ، فإذا أغل المد أربعة أمثاله أو خمسة أمثاله تكون الأجرة التي استوفاها صاحب الأرض معادلة لربع المحصول أو خمسه .

وكلما كانت القرية في منطقة سكانها كثار وأرضها ضيقة ، يزداد المقدار الذي يستوفيه صاحب الأرض من المحصول والعكس بالعكس . ففي البقاع مثلاً يأخذ صاحب الأرض نصف المحصول ويؤدي العشر منه إلى الحكومة . وفي الحولة حيث الأرض تروى تكون حصة صاحب الأرض ثلث المحصول ويكون عشر المحصول عليه . أما في الغوطة والمرج فحصة صاحب الأرض الثلث لكنه لا يدفع إلى الحكومة سوى عشر هذا الثلث ، وعلى الفلاح أن يدفع العشر عن ثلثيه .

هذه بعض طرائق استثمار الأرض وتعود فيها جميع النفقات والأتعاب على الفلاح. أما إذا أحب صاحب الأرض أن يكون رأس مال الاستثمار منه فالفلاح الذي يشتغل في أرضه يسمى (مرابعاً) وهو مطالب بأعمال فدان من البقر (زرع نحو ثمانية هكتارات حبوباً وتجهيز مثلها للسنة القادمة) . ويأخذ ربع المحصول أو خمسه بعد رفع العشر من المجموع في الغالب

إقراض الزراع :

يعوز الفلاحين في الشام النقود الكافية لاستثمار أرضهم على مقتضى قواعد الفن. وهم كثيراً ما يستدينون المال من المرابين بفوائد فاحشة لا يبعد أن تبلغ ١٠٠ في المئة أحياناً . ولهذا ترى غلة أرضهم تكاد لا تكفيهم للإنفاق على حاجياتهم الضرورية وقلما ترى فلاحاً في سعة، يكدحون كلهم طول السنة لتحصيل بُلغة من القوت ، وسبب ذلك ضيق ذات يد الفلاح ، فهو لا يستطيع أن يحرث الأرض حرثاً عميقاً بأبقاره الصغيرة المهزولة التي لا تُعلف غير التبن ، ولا يستطيع أن يبتاع آلات زراعية حديثة أو أسمدة معدنية ، ويستحيل عليه أن يخزن محصوله بقصد بيعه عندما يغلو ثمنه ، لأنه في حاجة دائمة إلى المال . والسعيد من الفلاحين من لم يثقل الدين كاهله ومن كان مفلتاً من براثن المتغلبين والمرابين .

اتضح للحكومة العثمانية أن الأكارين وأصحاب الأرض في حاجة كبيرة

إلى مصرف زراعي يقرضهم المال بفائدة محدودة إلى مدة طويلة فأسست المصرف الزراعي وجمعت له رأس مال صغير بأن أضافت إلى العشر الذي تستوفيه من حاصلات الأرض ٠٫٥٠ في المئة من الريع باسم هذا المصرف ، وأنشأت له فروعاً في الأطراف وسنت له قانوناً محكماً بعد درس واختبار فأقبل الفلاحون عليه أيما إقبال . ولما كان رأس ماله قليلاً فقد لبثت فائدته محدودة ، فعسى أن تهتم الحكومة الحاضرة بتزييد رأس ماله وهو من أنفع أعمالها ولعلها لا تسمح لبراثن الأجنبي أن يناله أذاها .

الخلاصة :

الشام فقير جداً بمعادنه المفيدة من الوجهة الاقتصادية . ومعناه أن عدد هذه المعادن وإن كان عظيماً وكذا أنواعها فهي لا كبير فائدة منها اللهم إلا معدن الحمر في حاصبيا . والأرجاء التي ليس فيها معادن ذات شأن (لا سيما الفحم الحجري الخالص لا اللينيت) لا يمكن أن يكون فيها صناعات كبيرة . ولهذا لا نرى في الشام إلا صناعات يدوية كنسج الملبوسات الأهلية في دمشق وحمص وحماة وكالمصنوعات الخشبية والنحاسية وغيرها . فالشام إذن لا يمكن أن يكون له عظيم شأن في المعادن والصناعة،وليس له اليوم شأن يذكر في التجارة لكنْ له مستقبل حسن في قضية الاتجار بالسيارات مع العراق وبلاد العجم عن طريق بادية الشام . ونستنتج من بحثنا عن الفلاحة أن لها في الشام شأناً غير شأن الصناعة والتجارة . فإذا أحصينا بالمكس مثلاً أنواع الأشياء الأهلية التي تصدر من الشام إلى البلدان الأجنبية نجد أن أكثر من ٩٠ في المئة من هذه الصادرات هي غلات أو مصنوعات زراعية نباتية أو حيوانية . ثم إذا أمعنا النظر في أنواع واردات الحكومة في الشام نرى أن نحو ٥٠ في المئة منها هي واردات زراعية مثل عشر المستغلات والضريبة على الأرض والماشية وواردات أملاك الدولة وواردات الخراج وغيرها . فزراعة القطر الشامي إذن وإن كانت لا تساوي زراعة الأقطار الغزيرة الأمطار أو التي منحتها الطبيعة أنهاراً كبيرة هي الركن الأعظم في حياة هذا القطر الاقتصادية اهـ .

الصناعات الشامية

مواد الصناعات :

تتوقف الصناعات في بلد على وجود الموارد الأولية فيه ، وكان ذلك في القديم أقوى عامل في قيام الصناعات ، والمواد الأولية في الشام على حصة موفورة لا ينقصها اليوم إلا الفحم الحجري وبعض الأصباغ . وكانت الشام منذ عرف تاريخها مشهورة بصناعاتها لتوفر موادها المستخرجة من سطح أرضها وبطنها . وتسلسلت الثقافة بها تسلسلاً عجيباً في البيوت الصناعية ، وكانت الأمة الخالفة تأخذ عن الأمة السالفة هذه الثقافة والدربة على نحو ما يعلم الصناع أبناءهم . والصنائع كما قال ابن خلدون لا بدّ فيها من العلم ، وإنك لتجدها في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط ، فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل ، وعلى نسبة رسوخ الحضارة وطول أمدها تكون جودة الصنائع في الأمصار .

إن قطراً هو معدن الحرير والصوف والوبر والمِرعِزّى والقطن والكتان والقنب يفيض عن حاجياتها وكمالياتها . وفيها الحديد والنحاس والقصدير وغيرها من المعادن ، وتجود في سهولها وجبالها الأخشاب على أنواعها ، وتكثر في أرجائها الحيوانات الداجنة والمفترسة ، وفيها المياه الدافقة والشلالات البديعة . إن قطراً يحوي هذه الخيرات لا يحتاج إلا إلى أيدٍ صناع لصنعها ، وعيون عُوّدت النظر إلى الجميل واقتباس النافع منه ، ونفوس طبعت على حب التقليد والاحتذاء ، حتى تخرج ما به تفاخر ، وتعيش من عملها عيشاً غضاً نضراً .

الغزل والحياكة والنساجة :

كانت النساجة والحياكة والغزل راقية في معظم ما عرف من أدوار الارتقاء وقلما أخرجت الشام رُذالة المتاع ورديئه . بل كانت تخرج جيده ونفيسه ، وكان أهلها ولا يزالون يحسنون غسلها ونفشها ومشطها وحلجها وفتلها ومشقها وحياكتها ونسجها . واشتهر القطر منذ القديم ببزه وقماشه وديباجه وخزه وبروده وكان للدباجين صناع الديباج والأكسية والمسوح صناعة رابحة ، وإلى اليوم لم يبرح حلاجو القطن ، ومنهم من يستعمل لها الآلات الإفرنجية الحديثة ، ومنهم من اقتصر على القوس والنداف على الطريقة القديمة في الحلج والغزل في مغازل أولية تدار بالأيدي يخرجون بها كل ما يقوم بالحاجة .

أخذت معظم المدن والبلدان حظها من هذه الصناعات ، فاشتهرت في غابر الدهر مدينة أعناك في حوران بأكسيتها الجيدة اشتهارها ببسطها ، وعرفت بعلبك بثيابها المنسوبة إليها من الأحزام والمشدّات وثوبها المعروف بالبعلبكي . وتأفقت شهرة الثياب البلعسية نسبة إلى كورة البلعاس من عمل حمص على الأرجح . وعرفت منبج بالأكسية التي كانت تعمل فيها وتنسب إليها فيقال « الأنبجاني » والأنبجاني كساء صوف له خمل ولا علَم له وهي من أدون الثياب . ومن ثيابهم الخميصة الشامية وهي بَرْنكانٌ أسود مُعْلَم من المرعزّى والصوف ونحوه أو كساء أسود مربع له علمان ، وقد تكرر في الحديث الشريف ذكر الأنبجاني والخميصة . والخميصة قد تكون من الحرير والبَرَنكان والبرّكان والبرّكاني والبَرَنكاني الكساء الأسود وجمعه برانك .

وكان يعمل في صفد من الثياب ما يقال له الصفدية . وتعمل الثياب الحفية نسبة لكورة الحفة غربي حلب . وكان لأهل رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة حذق في عمل الأكسية وكل رجل فيها غنيهم وفقيرهم يغزل الصوف والنساء ينسجن . وكانت تعمل في الشام الأكسية المرنبانية قال ابن سيده : يقال كساء مرنباني ومؤرنب فالمرنباني لأنه لون الأرنب والمؤَرنب ما قد خلط في غزله وبر الأرانب ، ويقال بل هو كالمرنباني . وكانت تصنع فيها القطيفة المخملة أي ذات الخمل وهي المخمل .

واشتهرت حمص بمصنوعاتها من ثياب وفوط وغيرها وقيل : إن حمص تتلو

إسكندرية مصر فيما يعمل فيها من الثياب الفائقة على اختلاف الأنواع ، وحسن الأوضاع ، لولا قلة مائه ، وقحولة جسمه ، مع أنه يبلغ الغاية في الثمن ، وإن لم تلحق بالإسكندرية فإنها تفوق صنعاء اليمن . وقال الأدريسي في صور : إنه يعمل فيها من الثياب البيض المحمولة إلى الآفاق ، كل شيء حسن عالي الصفة والصنعة ، ثمين القيمة ، وقليلاً ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطة بها . وكذلك حماة وطرابلس وحلب . ولكل بلد ومدينة خاصية تحتفظ بها في نوع من الصناعة تبرع فيها ، وأهم ما كان منها في مدينة دمشق .

فقد ذكر الإدريسي أنها كانت في عصره جامعة لصنوف من المحاسن « وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمن العجيب الصنعة ، والعديم المثال ، الذي يحمل منها إلى كل بلد ، ويتجهز به منها إلى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها ، والمتباعدة عنها . ومصانعها في كل ذلك عجيبة ، تضاهي ديباجتها بديع ديباجة الروم ، وتقارب ثياب دستوا ، وتنافس أعمال أصبهان ، وتشف على أعمال طُرز نيسابور ، من جليل ثياب الحرير المصمتة ، وبدائع ثياب تنيس ، وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ، ومحاسن جمة ، فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال » .

وقيل : إن اسم « الدمقس » مشتق من اسم مدينة دمشق. ونقل الشاميون إلى الأندلس صنعة الثياب المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان من دمشق فنسبت إليها عندهم وقالوا في فعلها Damasser أي عمل ثياباً على النمط الدمشقي . قال البدري : ومن محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش ، وهو النسج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه ، ومنها عمل القماش الأطلس بكل جنسه وأنواعه ومنها عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه ، ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله ، وتباين أوصاله ، ومنها عمل القماش الأبيض القطني .

وكان من أنواع الثياب في القديم ما أُنسيناه وأُنسينا أسماءه ومنها المنيّر والمعيّن والمسيّر والمفوف والمسهم والمعمد والمعرّج والمهلهل والمكعب والمطيّر والمخيّل . ولاشتهار دمشق بالحرائر والمنسوجات الغزلية الفائقة بوشيها وحسن طرازها ، عرفت هذه الصناعات باسم المدينة فيقال لها « الداماسكو » والداماسكو ثوب غليظ برسوم جعلت في جسم الثوب ويتفننون في ذلك تفنناً غريباً ويعملون كل

ما يجمع إلى المتانة الإبداع في الصناعة . قال ابن عربشاه : إن الحريريين في دمشق نسجوا لتيمورلنك قباء بالحرير والذهب ليس له درز فإذا هو شيء عجيب .

ولما نجحت الصنائع الإفرنجية – وكانت صناعة الحرائر والطرائف تروج زمناً ثم تنحمق وتكسد – واخترع أحد صناع الإنكليز نسيج الشيت (اليمني) كاد يقضي على صناعاتنا هذه ، لولا رجل دمشقي اسمه عبد المجيد الأصفر من أهل هذه الصناعة ، فاخترع القماش المعروف بالديما فحال دون النساجة والبوار دفعة واحدة . ثم إن رجلاً اسمه الروماني من أهل دمشق أيضاً ، تفنن في المنسوجات الحريرية تفنناً عجيباً ، فلما مات كادت هذه الصناعة تموت معه ، وتغلبت المنسوجات الأوربية على منسوجات حلب وطرابلس وحماة وحمص ودمشق لرخص ثمنها ، وكثرة تفننهم في تلوينها ، وتغيير أشكالها وطرازها ، وإن كان البلى يسرع إليها ، وعلى الرغم مما تقدم لم تنفك هذه الصناعة متماسكة أحوالها على ما أصاب القطر من الأزمات الاقتصادية . ويزعمون أن ما يتعلق بها من الصنائع حتى تصلح وتصير أثواباً ، يقرب من سبعين صنعة . تصرف مصنوعاتها في الشام ومصر والجزيرة ، وكانت قبل الحرب العامة تصرف منها كميات وافرة في آسيا الصغرى والروم ايلي فلما وضعت في العهد الأخير الحواجز الجمركية في وجهها في تركيا عادت إلى الكساد .

ومع هذا لا يزال بعض أهل هذه الصناعة يصنعون الديما وأنواع الحرير والحبر والشال البديع والأعبئة الحريرية للنساء، ما يتفاخر سياح الإفرنج باقتنائه في بيوتهم ، وإلباس أسرهم منه في السهريات وأوقات السمر ، على حين كان الناس هنا ولا سيما في المدن يزهدون فيها على متانتها وجمالها ، لأنهم بلوا بداء التقليد يقبلون على كل ما تأتيهم به أوربا ولو كان فيه بوارهم. وأهل معامل الحرير والقطن اليوم في المجدل من عمل غزة وبيروت وبكفيا وزوق مكايل ودير القمر وبيت شباب والكفير وحمص وحماة وحلب وأنطاكية ودمشق، تعمل فيها الأعبئة والكوفيات والزنانير والملاءات والشراشف والديما والألاجة والنمارق والأرائك والسجوف والشفوف واللحف والبرانس والطيالسة والميازر والبراقع والأزر والجلابيب والقطائف (المخمل) .

ومن الصناعات[1] التي كانت الشام وما برحت تفتخر بها صناعة الشقق الحريرية والقطنية، وهي عبارة عن قماش محوك طوله تسعة أذرع في عرض ذراع . ولصناعه تفنن في نقشه وصبغه ، يدل على رسوخ قدم في الصناعة، وذوق جميل فيها ، واشتهرت مدن الشام بإتقان تلك الصناعة ، ومنها دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس . وأشهرها المسماة بالمصرية والحامدية والحموية والحمصية والحلبية .وتفصيل تلك الشقق على الطراز العربي وهي قطنيها وحريريها على غاية من المتانة والجمال . وكانت قديماً لباساً عاماً للأهلين فقيرهم وغنيهم رجالهم ونسائهم وقل المنفق منها الآن لاعتياد الناس اللباس الإفرنجي ، ولا تزال مع هذا لباس أكثرية الأهالي يعملون منها القفاطين (القنابيز) وتدر تلك الصناعة عليهم أرباحاً وفيرة ، وتصدر إلى الأناضول ومصر والحجاز والعراق، ويعد تجار تلك الصناعة من الأغنياء غالباً . ومن الصناعات الدقيقة الصنع أيضاً الشال القطني والحريري والزنانير والشملات ، وأتقنها ما عمل في طرابلس وبيروت وحلب ودمشق ، ومن صناعات الشام الكوفيات الحريرية على اختلاف ألوانها ووشيها بالقصب الفضي بنقوش ورسوم غاية في الإبداع وسلامة الذوق والمتانة ، وما فتئت هذه الصناعات إلى الآن زاهرة رغم مزاحمة الأوربيين بكل ما عندهم من قوة تجارية وصناعية وتفنن وإبداع .

ومن الصناعات التي كانت من متممات اللباس لكنها ضعفت للغاية صناعة المشدات المعروفة بالكمار وهي تنسج بالصوف والغزل ذات طاقين طويلين تشد على الخصور ، ولا تزال لباس الوطنيين الذين لم يتأوربوا أي لم يتشبهوا بالأوربيين فضعفت صناعتها . وقد أحدث السادة كسم وقباني معملاً لحياكة الحرير في دمشق ضاهيا به ما يصنع من نوعه في فرنسا ، وكذلك أحدث السادة توفيق وكامل وسعيد الكحالة معملاً لصنع ثياب الكتان والشراشف ينافس مصنوعات أوربا ، وأحدث السيد أنطون مزنر في دمشق معملاً لصنع الشال الحرير غاية الغايات إتقاناً وجمالاً . وفي دمشق ثلاثون آلة لغسل الحرير على الطرز الحديث . ومما تمتاز به حماة عن سائر المدن الصناعية نسج المآزر للنساء مما يستعملنه في الحمام وتسمى المناشف ، وما تغطى به الفرش ويسمى الشراشف

(١) استرشدت في بعض الصناعات الحديثة برأي السيدين حسني العمري ومحمد شخاشيرو .

وينسج بالكتان ويوشى بالحرير من كل الألوان وهو غاية الغايات في دقة الصنعة والمتانة يصدر إلى كثير من جهات العالم . وتصنع حلب من هذه المآزر أنواعاً كانت تضاهي بها المآزر التي ترد من العجم إلى أن بذتها وقامت مقامها .

ومن المنسوجات الرائجة أيضاً صناعة الأعبئة فهي من أهم الصناعات على اختلاف أنواعها ومنها الخشنة التي يلبسها الفلاحون ، وحياكتها غاية في المتانة ولها ألوف من الأنوال في دمشق وحمص وحلب وقرى القلمون ، وذلك لتوفر مادتها الأولية ولأنها لباس عامة الفلاحين، ويوجد أيضاً ألوف الأنوال في دمشق وقرية جرمانا وحمص وهي تصنع أعبئةمن الصوف النحيف والوبر برسم الأمراء والكبراء ويصدر منها إلى الخارج ولا سيما إلى فارس ويبتاع الحجاج أيام الموسم من دمشق خاصة من تلك الأعبئة ألوفاً وهي مشهورة بحسن صناعتها وعلى غاية المتانة، مع أنها من النسج النحيف الناعم، ومما يدل على ذوق صناعها تفننهم في ألوانها على اختلاف ضروبها،وفي دمشق وبيروت ولبنان وحمص وحلب من الأنوال لعمل الأعبئة من الحرير وهي على غاية الرواء والجمال والمتانة وفي النهاية من سلامة الذوق بوشيها وألوانها. وتصدر إلى أوربا وأميركا ومصر وإيران. ومما يؤسف له الآن دخول الحرير النباتي إلى الديار الشامية وصنع العباءة منه مؤثرين له لرخص ثمنه مما يكون منه بعد بضع سنوات القضاء على صناعة العباءة الحريرية في الشام إن لم تتدارك بما يحفظ رواءها .

واشتهرت حلب بالمناديل الحريرية والمقصبة المعروفة بالبوشية وفيها ٥٣ معملاً كما فيها ١٢٤ للخام و ٢٤٧ لمنسوجات الغزل و ١٥٩ للحرير و ٢١٧ للأغباني أو تقليد الزنار الهندي ، وصناعة الأغباني في دمشق رائجة كل الرواج وهي عبارة عن قطعة ثوب مربعة طولها ذراعان في مثلهما ، تعمل من الحرير الدقيق ، لونها أبيض وأدكن ، وتطرز بألوان الحرير الجميلة ، وبأنواع الرسوم التي قد تعجز عنها ريشة المتفننين من المصورين ، وكانت تلك الصنعة مختصة أولاً بالهند تصدر منها إلى أطراف العالم ، وكان قليل منها يطرز في حلب ويستعمل للعمائم فقط على قماش قطني وبعض الحرير . وأما الآن فقد تناولتها أيدي جميع الشاميين الأذكياء وأكثر من يصنعها النساء يطرزن منها أثواباً

طول الثوب تسعة أذرع وعرضه ذراع واحد ، وتعمل منها القفاطين ، وهي الألبسة الوطنية في الشام ، وفيه اليوم ألوف من الآلات تصنع هذا النوع من القماش ، وتسمى القطعة منه أي ما طوله ذراعان وعرضه كذلك « سُلْك أغباني » وهو يستعمل في الشام غطاء للرأس أي كوفية ، وزناراً ، وملفاً للأولاد الرضع ، وعمامة ، ويصدر منه إلى الخارج كميات وافرة ، وله تجار كثار إخصائيون في دمشق وحلب وبيروت وحماة وحمص وطرابلس وفلسطين وجميع المدن الصغيرة ويصدر إلى الهند وفارس وتركيا والحجاز والعراق ومصر والسودان والصين .

واشتهرت الشهباء بصناعة الأشغال الحريرية المعمولة بالقصب وأقمشة الجوخ المعمولة بالسيم والثياب المفصصة بالجوهر والزّبرج أي الزينة من وشيٍ وذهب ويقال لهذه الصناعة صنعة القصبجية والألتونية فهي ممتازة بعمل الفضي ومشهورة بالزركشة والتطريز ، وعرفت زوق مكايل بصناعة الوشي وزركشة القصب والنسيج أيضاً ، واهتدى صناعها منذ تسعين سنة إلى رسم الأشكال التي يريدونها على المنوال بالمحواك ، واصطنعوا من الأثاث والأكسية والطنافس ما يأخذ بمجامع القلوب إتقاناً ، وعملوا نسائج هذا القز فأبدعوا فيه وأظهروا الصور الشمسية على النسيج فجاءت كأنها لم تمس بيد ، صنعوا بها صور العظماء والملوك والأمراء مجسمة ، فكانت من أنفس أعلاق القصور . وصناعة زركشة القصب هذه كانت راقية جداً في دمشق ، وصفها أحد سياح القرن الحادي عشر بقوله : وبباب جيرون على يسار الخارج منه حارة الذهبيين ، وهي أماكن يمد فيها خيوط الذهب غلاظاً أولاً ، ثم لا يزالون يعالجونها بالإدخال خرقاً بعد خرق ، وكل ثان أضيق من قبله ، حتى تنتهي إلى الرقة ، إلى أن تصير كالشعر ثم يطرقونها بمطارق لطيفة وصناعة محكمة ، ثم يلفون ذلك المطروق على خيوط الحرير فيتركب منه القصب المعلوم ونحو ذلك عملهم للفضة اه . وسمى هذه الصناعة البدري « صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع » وكان القوم يغالون في لبس الأردية والأكسية والمعاطف والسراويلات التي تعمل من هذا القصب على الجوخ ويلبسه المترفون

والعُرُس وأرباب النعيم ، وبقاياها اليوم يلبسها الآذنون عند قناصل الدول والرؤساء الروحيين .

الدباغة وصناعات الجلود :

كان للدباغة شأن مهم في هذا القطر تعمل من الجلود الأحذية والسروج والمطارح والمقاعد والقرب والروايا والمحافظ والمطاهر والركوات والإداوات وما أشبهها ، وكانت أهم معامله في حلب وفيها اليوم ٤٠ مدبغة على الطريقة القديمة وفي حماة ودمشق وزحلة ومشغرة والخليل . وتدبغ جلود الثعلب وبنات آوى التي تصلح للفراء في جوار طرابلس وبيروت . ويقدرون عدد ما يدبغ من الجلود في الشام بمليون ومائتي ألف جلد منها مليون من المعزى والغنم . وقد أنشأ في دمشق السادة رومية وعمري معملاً لدبغ الجلود وعمل الشراك والشسوع للأحذية ، فجاءت مصنوعاتها كمصنوعات أوربا من كل وجه وزادت عليها رخص أثمانها ، فأصبحت تباع حتى في الغرب ، ومعظم معدات هذا المعمل الكبير من صنع دمشق ولم يجلب له غير أدوات قليلة ، والصناع كلهم من أرباب هذه الصناعة القدماء ، وفي دمشق نحو ٣٠ دباغة على الطراز القديم ودباغات الخليل مشهورة وأشهر منها صناعة القرَب في تلك المدينة ، تعمل من جلد الماعز وهي صناعة خاصة بها . وفي عكا معمل جيد للدباغة .

وصناعة الأحذية والسروج والكنابيش والبرادع والرباطات والرشمات من أهم صناعات دمشق وحلب . وصناعة السروج من الصنائع المشتركة في الشام ، ومما يعد في جملتها لوازم الحيوانات كالعذر والهمايين « الخراج » والبرادع « المراشح » ويعمل كل ذلك على غاية من الإتقان . ومن السروج ما يصنع وجهه من الجوخ ، ويطرز أحسن تطريز بالحرير والقصب . والجلد الذي تعمل منه السروج هو غالباً من دباغة الشام .

ومن صناعة السروجيين أيضاً أحزمة الجلد ويسمونه « قشاطاً » وجعاب رصاص البنادق ويسمونها « جناداً » وأرسان للخيل ، وصناديق للسفر من الجلد وغير ذلك من الحاجيات المحلية ، ويصدر ذلك إلى الداخلية فقط وهو يضاهي أعمال الأوربيين أنفسهم من ذلك النوع .

وتعمل الأحذية في جميع المدن ومنها ما تستخدم فيه الجلود الإفرنجية

المعروفة بلمعانها ومتانتها وحذاءو الشام مشهورون منذ القدم ، وأهل الرفاهية والبذخ اليوم يأتون بأحذيتهم من الغرب جاهزة وخصوصاً النساء يرينها ألطف شكلاً وأدق صنعة ويقبلن عليها وإن كانت أغلى قيمة وأقل متانة مما يعمل هنا . ويلحق بصناعة الدباغة أو القرظية صناعة عمل الأوتار من المصير والمري وهي نافقة يبعثون بها بعد تحضير قليل إلى معامل الغرب فتعمل منها أوتار الأعواد والقيثارات وغيرها .

تربية دود الحرير :

ومن أهم الصناعات تربية دود الحرير (الفيالج أو الشرانق) وهو عمل خاص باللبنانيين وبسكان أرجاء أنطاكية . وكانت مساحة الأراضي التي تغرس التوت الصالح لتربية دود الحرير واسعة أكثر من الآن في أرجائنا . فقد ثبت أن عمالتي وادي التيم والبقاع كانتا كلتاهما مغروستين بشجر التوت . واقتبس أصحاب تربية الدود في العهد الأخير طريقة باستور في تربية دود القز فزادوه إتقاناً . وتصدر منه كميات وافرة إلى معامل ليون في فرنسا وهناك يصلح الإصلاح المطلوب حتى يكون منه الحرير المعهود في نسج الثياب والطرائف . ومن تربية دود الحرير يعيش عشرات الألوف من الناس في هذه الديار . والغالب أن مناخ لبنان وأنطاكية وما إليها وبعض الأرجاء المعتدلة القريبة من الساحل تصلح فقط لتربيته ومنذ القديم لم يحظّ الحظ سائر الأرجاء أن تشترك في صنعه . وقد أسس في الزبداني في العهد الأخير معمل لحل الحرير على الطرز الحديث وتصدر مصنوعاته إلى إيطاليا وفرنسا .

النجارة :

لم يكتف الصناع في منجوراتهم بأخشاب الشام على كثرتها ، بل أخذوا يجلبونها من قلقية ورومانيا وغيرهما ، ومنهم من يجلبونه من أميركا وهو الجوز الأميركاني . يعتمدون عليه وعلى خشب الحور والجوز والزيتون والشربين والتنوب والميس والعرعر والدردار ، وكان اعتمادهم يكثر في القديم على الصندل والصنوبر والسرو . وخشب السرو والصنوبر كما قال قسطا بن لوقا

من أشرف الأشجار التي تستعمل أخشابها في البناء يتخذ منها مصاريع الأبواب والدعائم والسفن ويستعان بها في كثير من الأمور .

ينشرون الخشب اليوم بمناشير ميكانيكيةتدار بالبخار أو بالكهرباء أو بالطرق القديمة فيعمدون إلى أيدي العملة في إحضارها ، يصنعون منها مناضد وأصونة للثياب وإطارات ومقاعد وكراسي ومغاسل وصناديق وتوابيت ورحالاً وألواحاً لدرس الغلة وأعواد الطرب . وهذه الصناعة صناعة الأعواد قديمة جداً في دمشق ودخلت حلب منذ نحو سبعين سنة . وقد اشتهرت دمشق بصناديقها التي كانت تعمل من خشب الجوز وتبقى القرون لا تتشقق ولا يسرع إليها البلى ولا تتأكل ، وعليها من النقوش ما يدل على ذوق جميل ، كما اشتهرت إلى اليوم بمصنوعاتها الخشبية . وفي حلب معملان للنجارة بأنواعها ، وكذلك مدينة بيروت فإن معامل هاته المدن الثلاث كادت تستأثر بتجهيز الدور والقصور والفنادق ومنها ما لا تقل جودته عن أدق ما يعمل من نوعه في الغرب مع الرخص والجودة والمتانة .

وإن ما يسمى بالحلقات في القصور والقاعات القديمة دليل كافٍ على رقي فن النجارة . فإن القصر أو القاعة يبلغ طوله على الاعتدال ستة أمتار في مثلها عرضاً وارتفاعه أيضاً يتسامى إلى الستة أمتار ، فجهاتها الأربع وسقفها مما يشهد للمتقدمين من النجارين بسلامة الذوق وإتقان الصنع ، ويباع منجور بعض هذه القصور إذا كانت سليمة من الأوربيين بأثمان باهظة ، وهو عبارة عن أخشاب فقط . وصناعة الدهان المدهون به ذلك الخشب هو من أبرع الصناعات يشهد بذلك من له أقل إلمام أو ذوق من الناظرين في المحلات الخصوصية عدا ما كان من نوعه في المساجد وغيرها من المحال العامة وكله يشهد للمتقدمين من النجارين الشاميين بالبراعة والحذق . والنجارون في الشام اليوم من أشهر نجاري العالم باعتنائهم بصنعتهم ، والنجار بطبيعته ينبغي له أن يكون ذكياً ، لما يقتضي لصنعته من الإلمام بالهندسة والمساحة وضبط المقاييس والحساب وأن يكون على جانب من سلامة الذوق في الوضع والصنع . فالنجار الذي يخلو من هذه الصفات لا يحق له أن يصير نجاراً . إن هذا النجار الشامي الموصوف آنفاً يعمل بيده وتدل عليه آثاره في البناء الخشبي في دور دمشق وحلب وغيرهما

وما يسمونه الصلب وغيره من أبواب ونوافذ غاية في الإتقان . ومن صنع النجارين أيضاً قديماً الصناديق الخشبية ومنها ما هو مغشى بالصدف ومنه ما يسمونه بالحفر . ومنذ نحو أربعين سنة دخلت بيروت ودمشق آلات النجارة الحديثة التي تدار بالكهرباء فاستطاع مديرو المعامل أن يقاولوا على بنايات كبيرة لصنع أبوابها ونوافذها بغاية السرعة .

وظهرت صناعة جديدة على الطراز الغربي تسمى صناعة (الموبيليا) أي فرش الدور وتنضيدها ويتناول اسم الموبيليا جميع أنواع الخزائن والمغاسل والمقاعد الخشبية المغلفة بالنسيج الحريري ولوازم غرف النوم وغرف الطعام وغرف الاستقبال ، وكل ذلك يصنع في دمشق وحلب وطرابلس وبيروت ، وهي تضاهي المصنوعات الأوربية جمالاً وإتقاناً ومتانةً ، وتعد هذه المعامل بالمئات ، ومما يدل على الذكاء في الصناعة أن تلميذات المدارس الصغيرات يشتغلن اليوم من جملة الأشغال اليدوية على اختلاف أنواعها وأوضاعها ما تقر به العيون ويبشر بمستقبل مجيد . وقلما تجد واحدة من النساء إلا وتجيد أكثر من صنعة يدوية .

ومن الصناعات التي تمتاز بها دمشق خاصة ، صناعة خشبية تسمى اليوم بالمصري ، وهي بواقي خشب الجوز اليابس تفصل بحسب المطلوب ، وتصقل صقلاً تاماً ، ويرسم عليها بالقلم عروق غاية في الإبداع ، ويحفر على حسب رسم القلم ، و ينزل به الغراء وفوقه الصدف . وتقسم قسمين فما كان دقيق الرسم يسمى بالمصري ، وما كان رسم عرقه ظاهراً كل الظهور يسمى في عرف الصناع بالعِرق . ويصنعون منه أنواعاً ، فمنها ما يسمى « بالجاردينيه » وهي أثاثة يوضع فيها قحف زهور صناعية ، بعرض مترين أو ثلاثة أذرع ، ويجعل فوقها إطار من تلك الصناعة النفيسة طوله متران وعرضه متر . وفي داخل ذلك الإطار مرآة وبجانبه من الطرفين جناحان لطيفان لهما رفوف توضع عليها التحف المنوعة ، وفوقها تاج على علو متر أيضاً . وكل ذلك محلىً بتلك الصناعة الصدفية يتخلله صباغ أسود قليل يزيد في لمعان الصدف .

ويصنع من تلك الصناعة أشكال وأنواع متعددة منها الأصونة خزائن

الثياب ومنها ما يسمى بالعرف بالبيرو (مكتب) وهو عبارة عن أربعة دروج كبيرة فوقها درجان صغيران ويصنع منه إطار للمرآة ، وإطارات للصور ومناضد ، وجميع ما يصنع من الخشب البسيط . ومنذ خمسين أو ستين سنة كثر طلب هذا الصنف إلى أوربا. ولكن الحكومة والبلدية لم تأخذا تلك الصناعة تحت رعايتهما فكثر الغش فيها ، وصارت إلى البوار وانقطع عنها الطلب إلى الخارج بتاتاً ، وهي لا تروج الآن إلا في دمشق وضواحيها تقريباً ، ولو عُنيت البلدية بمراقبة صناعها ، وجعلت لهم رئيساً مسؤولاً لدرت تلك الصناعة على دمشق أرباحاً هائلة ولأصبحت أجرة الصانع يومياً نصف دينار وراجت في أقطار العالم أجمع لجمالها ودقة صنعها .

ومن أهم معامل النجارة والفرش معامل الياس جرجي السيوفي في بيروت زرتها في سنة (١٣٣٠ هـ ١٩١٢م) ومما قلته فيها : رأيت صورة مصغرة من صورة الغرب في الشرق ، وتمثل لي فضل الذكاء العربي ، وأنه وإن لم يفق الغربي فليس دونه ، وأن يد أبنائنا صنّاع في الأعمال لا يفوقها ابن فرنسا وإيطاليا وإنكلترا وألمانيا وسويسرا وبلجيكا إلا بأن الإفرنج يرجعون إلى أساليب في العمل تنقصنا ، أو تكاد في أكثر الأصقاع لا تجد لها أثراً بيننا ، وهي ترجع إلى أسباب رئيسة مهمة ، أولها الصبر على العمل ، وثانيها تجويد العمل ، وثالثها القدر اللازم للعمل من المال والمعرفة ، ورابعها الاقتصاد في الوقت والأيدي العاملة ، وخامسها تنشيط الأهلين والحكومات للمصنوعات الوطنية وحماية التجارة الداخلية بقوانين تنفذ على الصادر والوارد ، وسادسها وجود المواد الأولية التي يمكن بها الاستغناء عن المواد الخارجية في الجملة .

دلت معامل السيوفي على أن الشرقي بمفرده أُمة ، وأن الأمة بمجموعها ضعيفة ، بمعنى أن الشرقي يعمل مفرداً أحسن من عمله مجتمعاً ، وذلك لفقد التربية المشتركة بين المشارقة يرجعون إليها وتضم عراهم . فلو كان معمل الغزل في دمشق لفرد واحد منذ إنشائه له خيره وعليه شره ، لما اضمحل هذا الاضمحلال الذي نراه عليه ، ولو كانت معامل السيوفي في بيروت لشركة لما رأينا فيها هذا النظام والنجاح ، وبذلك صح لنا إثبات ما قدمناه من أن الشرقي أُمة بمفرده والأمة ضعيفة بمجموعها ، وأن لا سبيل إلى قيام الأعمال الكبرى

وأن نقدر لها النجاح المطلوب إلا إذا اتحدت مناحينا وتعلمنا تعليماً وطنياً اقتصادياً واحـداً .

على هضبة من هضاب بيروت الجميلة في حي الأشرفية ، في مكان بعيد عن مركز حركة هذا الثغر ، يطل على سفوح لبنان وبيروت وعلى البحر الرومي من أُخرى ، قامت هذه المعامل البديعة في بقعة فسيحة من الأرض تدخلها فتخال نفسك في إحدى معامل الغرب الكبرى ، وأول ما يبدؤك بعد الدخول من الرتاج ساعتان عن اليمين والشمال بجانبهما صندوقان معلقان مقسومان إلى بيوت صغيرة ، وفي كل بيت مقواة كتب عليها اسم أحد العملة وطبعت عليها ساعات الغدو والغداء والرواح ، فمتى وصل العامل بعد الفجر وقبل الإشراق في الشتاء مثلاً يضع مقواته في بيتها ، فلا تلبث أن تكتب عليها ساعة مجيئه والدقيقة التي جاء فيها بحروف عربية ، وفي آخر اليوم أو الأسبوع يرجع إليها مدير المعمل ، ويحسب المتأخر من المتقدم ، ويعدون ذلك بموجب نظام خاص لهم جروا فيه على مثال نظام العمال في سويسرا والبلجيك والنمسا وألمانيا . ومن قوانين العملة في هذه الممالك اختار مؤسس المعمل أحسن ما يلائم هذه الديار وينفع في نجاح عملته ويعود عليه وعليهم بالربح واقتصاد الوقت .

وهذه الساعة من أنفع ما يجب استخدامه في معاملنا ومطابعنا ودواوين أعمالنا وبيوتنا التجارية والمالية ودوائرنا العسكرية والملكية ليتعلم قومنا مراعاة الوقت والتدقيق في حسابه حتى يبارك لهم بساعات العمل وأيام الحياة ، ويتعلموا أن التدقيق في المواعيد أحد دعائم التنظيم في فروع الأعمال، ومن أهم أساليب النجاح الذي غفل عنه معظم سكان هذه الديار وعدوا من ينظم أوقاته ويدقق في وعوده واستقبال خاصته ومن لهم علاقة به في ساعات محدودة متكبراً أو مهوساً .

يباكر العملة في معامل السيوفي في الصيف والشتاء والخريف والربيع على السواء وينتطعون ساعة وقت الظهر ثم يعاودون العمل إلى قبيل الغروب أو إلى بعده بقليل بحيث لا يتجاوز معدل ساعات العمل في اليوم تسعاً بخلاف عملة أوربا فإنهم يعملون في بعض الممالك كبلجيكا مثلاً زهاء اثنتي عشرة ساعة ، ولكثرة الأيدي العاملة وللعادة والإقليم دخل كبير في هذا الاصطلاح .

وفي معامل السيوفي اليوم ٢٨٠ عاملاً مع أن الأدوات التي اقتناها صاحبها تشغل ضعفي هذا العدد فيستفيدون ويفيدون .

أكثر ما يعمل في هذه المعامل منجورات الدور الخشبية وأنواع الفرش وأثاث البيوت تعمل كما تعمل في الغرب وتتأنق الأيدي والعيون في تجويدها وتساعدها الأدوات التي تدار بالفحم الحجري وتبلغ نحو الستين آلة ومنها لقطع الخشب وصقله وحفره وتقويره ونقشه وتنشيفه، فترى خشب الجوز والزان من واردات الروم (الأناضول) والاكاجو من كوبا وشوح النمسا وسنديان أميركا والخشب البياسي من قلقية تُعمل في تلك الأدوات وتحركها تلك المحركات والآلات كأنها العجين في يد خبازه أو الملاط بيد البناء الحاذق .

قال لنا صاحب المعمل: إن الآلة الكبرى المحركة في معمله هي بقوة مئة حصان تنفق في النهار ١٣ فرنكاً من الفحم وكانت الآلات التي هي أصغر منها تصرف من قبل أكثر من ذلك، وبهذا يستدل أيضاً أن نفقات المعامل الكبيرة أدنى إلى الاقتصاد وأعمالها أقرب إلى الجودة من مصنوعات المعامل الصغيرة لا سيما والمعامل الكبرى تتجلى فيها قاعدة تقسيم الأعمال فتجد العملة في معامل السيوفي مقسومين إلى عدة أقسام قسم الأدوات وقسم النجارة وقسم الحفر وقسم البرداخ ، وللمحل رسام خاص وكلهم من أبناء العرب ليس بينهم إفرنجي . وتختلف أجرة العامل في اليوم من ستين بارة إلى ستين قرشاً ويحاسب عن أجرته كل يوم سبت من كل أسبوعين في الشتاء ويحاسب في الصيف كل سبت قبل الظهر ليتيسر له الخروج إن أحب إلى الجبل يصرف ليل الأحد وليل الإثنين فيه للنزهة ؛ ويقضى على كل عامل أن يعمل ستة أشهر تحت التجربة أولاً ثم تحسم من مياومته أجرة أسبوعين تجعل في صندوق المحل حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من العمل كل يوم أو كل أسبوع كما يفعل بعض العملة في المعامل ويتركون أصحابها معطلين . ومن جملة ما شهدته من النظام داخل المعمل قاعة كبرى وموائد يتناول عليها العملة طعام الظهر ،وآلة تضغط النشارة عندما توضع فيها ، وهي من اختراع أحد العمال هنا ، وتلقي بها إلى مكان بعيد خارج بناية المعمل ومن هناك يبتاعها أرباب القمامين . ومما رأيته خارج المعمل من النظام رصف الطريق الموصلة إليه على نفقة صاحب المعمل وغرس

بعض الأشجار على جانبيها ويبلغ طولها نحو كيلو مترين .

هذا ما رأيته في معامل السيوفي من النظام الذي لا أبالغ بأني قلما رأيته في معمل يرأسه شرقي ، ولذلك يصفق لصاحبه لأنه بدأ به صغيراً سنة ١٨٨٨ في مدينة بيروت وكبره في سنة ١٩٠٨ في حي الأشرفيةعلى الصورة التي رأيناها اليوم ونفقة عمارته وأرضه وأدواته تساوي خمسة وعشرين ألف ليرة ، ولكن لا يتيسر لمن معه مئة ألف ليرة أن يقيم مثله بأدواته ونظامه إذا لم تسبق له معرفة كمعرفة السيوفي ولم يقض سنين مثله في النجارة ويحيط بما جل وقلّ من أساليب العمل وتجويده . فليت كل أعمالنا تجري على هذا المثال من النظام البليغ والنجاح الأكيد اه .

ومما يصح أن يلحق بالنجارة صناعة تنزيل الخشب وتنزيل الصدف أو خشب الليمون فيه ، وهذه الصناعة كانت رائجة جداً ثم عدمت وجدد شبابها صناع دمشق منذ نحو سبعين سنة حتى أصبح ما يعمل منها مما يتنافس في اقتنائه . ونسبت هذه الصناعة لدمشق فيقال لها بالإفرنجية (داماسكينه) .

القيانة والحدادة والنحاسة :

كانت العرب تطرق المعادن في دمشق بإتقان أكثر من إتقان الغرب على ما قال ميشو ، واشتهرت كثير من مدن الشام بهذه الصناعة منذ عرف تاريخ القيانة أو القردحة أي صناعة عمل السلاح . وذلك لأن الحديد كان يكثر في الجبال ولا سيما في لبنان وحلب . وقد اشتهرت في الجاهلية سيوف مشارف الشام في أقصى تخوم الجنوب ، وكانت تطبع بها السيوف وتنسب إليها فيقال السيوف المشرفية ، وكانت حاضرة المشارف مدينة موءتة قال كثير :

إذا الناس ساموكم من الأمر خطة لها خطة فيها السهام الممثل
أبى الله للشم الأنوف كأنهم صوارم يجلوها بموءتة صيقل

والصيقل هو الذي يجلو السيوف . ونسبت السيوف إلى دياف وإلى بصرى وكلتاهما في أرض حوران فيقولون السيوف البُصرية قال الحصين بن الحمام المرّي :

صفائح بُصرى أخلصتها قيونها ومطرداً من نسج داود محكما

والقيون جمع قين صانع السلاح . وسيوف دمشق لا تزال يفاخر بها لتفنن

الصياقلة في صنعها ، وقد عرفت بصفاء مائها ، واخضرار لونها ، وإرهاف حدها ، ولطف فرندها ، وكانت تكتب عليها آيات وأشعار بماء الذهب ، وكذلك على الخناجر والرماح ، عرفها الصليبيون في القرون الوسطى ونسبوها إلى دمشق وغدوا يفاخرون بتقلدها ولا مفاخرة العرب بالسيوف اليمانية والرماح السمهرية . وصناعة تنزيل الذهب على السيوف والخناجر والمدى والبنادق كانت من أهم الصناعات الدمشقية ويحسب أربابها من أهل اليسار ويعدون اليوم على الأصابع ولا يسع المنصف إلا أن ينحني إعجاباً أمام جمال هذه الصناعة .

وقد نقل الفاتحون من العرب إلى الأندلس صناعة صقل السيوف وهي الصناعة التي نسبت إلى دمشق حتى اليوم فقيل لها بالإفرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ وقد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner .

وكانت تعمل السيوف في زحلة والشوير ودومة من عمل لبنان وتعمل النبال الفائقة في عمتا من بلاد الغور . وكانت الدروع تسرّد بيد الدارعين والخوذ والسابرية تصنع في دمشق خاصة . ويعمل من الحديد كل ما يلزم من الطبر والخناجر والمرادن والمغازل والصنارات والأسياخ والعقافات والقيود والزرد والمباضع والمبازغ والمشارط والآنية ، يطرق كل ذلك في كيرة الحدادين وسنداناتهم ويضرب بمطارقهم ، وكانت وافية بالغرض .

ومن أهم أعمال صناعة النحاس في دمشق حلقة باب المدرسة الخضيرية في حي الخضيرية وكذلك الحلقتان اللتان على بابي المستشفى النوري . والأولى من القرن الثامن والحلقتان الأخريان من القرن السادس وهي آية الإبداع والمتانة وفي هذا البيمارستان أبواب من خشب من عصر صلاح الدين عليها مرايا المفاتيح على طرز الغرب إذ ذاك . وفي مستودع الجامع الأموي بقايا النحاس الذي كان على باب جيرون من أبواب الجامع تصور للمرء نموذجاً من إتقان النحاسين والحدادين لصناعتهم في القديم . وفي بعض مدارس حلب حلقات قديمة من هذا القبيل تدل على مبلغ صناعها من الحذق وفيها أبواب من الحديد صنعت لبعض البيوت والمدارس القديمة آية الجمال الصناعي. ومن صناعة الحديد أمثلة كثيرة مثل أبواب بعض خانات دمشق كخان الحرير وخان أسعد باشا

وخان الزيت وأبواب التكية السليمانية وشبابيكها . وشبابيك المدارس والديارات والجوامع والكنائس القديمة وأبوابها ودرفاتها في دمشق وحلب والقدس والناصرة وبيت لحم ولبنان وغيرها وكلها تدل على ترقي الحدادة والنحاسة دلالة عظيمة مثل أبواب القلاع كقلعة عكا وحصن الأكراد وغيرهما . ولكثرة الحديد في أرباض حلب عمل كثير من أبواب حلب القديمة من الحديد .

وكذلك قل عن سائر صناعات الحديد والنحاس وكانت تعمل منها السرج والمصابيح والمواقد والشمعدانات والشبابيك والكؤوس والصحاف والزهريات والمباخر والقماقم وأوعية القهوة (الدلاّت)والألبان والطسوت والموائدوالصواني والصحون والمصافي والمغارف والملاعق والقدور ، والقدر الشامية كانت مشهورة بكونها لا تنش، والسطول والمساخن والهواوين والمدقات والمناشير والجرار والحقاق والأجراس والنعال والمسامير والمعاول والمساحي والمناجل والمطارق والأقفال والمفاتيح والمغالق والمناصب والملاقط والسكاكين والمدى والمقال والمواسي والمبارد والقيود والجواشن والدروع والصنجات والجُرُز (العمد) والحسك والدرابزون والمناجيق والدبابات .

ومن الصناعات النفيسة صنعة الأجراس أجراس الكنائس فإنها تصنع في بيت شباب ، واستأثر بهذه الصنعة لبنان من دون أقطار الشرق الأقرب ، وقد دخلت صنعتها أرضنا مع الصليبيين على الأكثر ، وكانت البيع قبل ذلك تستعمل أجراساً من الخشب ، وما زالت هذه الصناعة محصورة ككثير من الصناعات في أسرة واحدة . ولما جاء حديد الغرب الرخيص السهل على التطريق كثرت أدوات الحديد وتفنن صناعه في صنعه ومنهم من عمد إلى اتخاذ الأدوات الحديثة كمعامل بيروت ، ومنهم من اعتمد على الطرق القديمة في تطريقه ، وكثير من الأدوات الزراعية كالفؤوس والقُدُم (جمع قدوم) والسكك الزراعية والمقاريض وأدوات السيارات تعمل في حلب ودمشق وبيروت والقدس وسائر المدن الشامية . ولا يزال الحدادون على تفننهم حتى يساووا معمولات الغرب . والحاجة أمّ الاختراع .

وقد قامت دمشق في الحرب العامة بصنع أعمال نفيسة من حاجيات الجيش كالقدوم والمنشار والكلاّب واللولب والفأس والرفش والقدر والمركن والمرجل

والدلو والبرميل وعجلة النقل والركوب ومحفة الجرحى والمرضى ، كنت إذا رأيتها تظنها لجمالها ومتانتها من صنع الغرب . وقد جلب كثير مما يستعمل في هذه الصناعة من حلب ولبنان وبيروت ، ويستعمل فيها الحديد والنحاس والصفيح (التنك) وتوفر الجيش التركي في تلك الأيام على ملء الخراطيش وصنع القذائف والمدمرات واستجادة أحسنها طرازاً وأفعلها في وقت الحاجة وإصلاح البنادق والمدافع ما دل على ذكاء ابن هذه الديار إذا عُلّم التعليم العملي المنظم بنظام المعامل الغربية . ولقد صنع أحد مهرة الصناعة مدة الحرب بندقية من الخشب أخف من الماوزر فنال استحسان أهل هذا الشأن في الدولة .

ويصح أن تلحق صناعة النحاسين والصفارين بالحدادة ، وكانت في القديم ذات شأن ، ولم يبرح في المتاحف والبيوت القديمة في المدن والقرى نموذجات منه صبرت على ممر الأيام بحالها ، وما عمل منذ ستة أو سبعة قرون كثير جداً ، والقديم أقل منه ، وكان ما يصنع منه في دمشق يقال له الظاهري نسبة للملك الظاهر فيما زعموا ولا ندري أي ظاهر هو، لأنه كان من المنشطين لصناعته فنسب إليه تحبباً ، وما فتئت هذه الصناعة رائجة تعمل من النحاس الثريات والمصابيح والفوانيس والتعاليق والجفان والكؤوس والمباخر والقماقم والصحاف والصواني والطسوت والأباريق والصنجات ، مصنوعة من النحاس الأصفر منقوشة في العهد الحديث حروفاً لا تقرأ إذ تعاور صناعتها أُناس أُميون على الأكثر ، وكان يطرز ويرقش في القديم بكل معنى جميل . وفي حلب ودمشق وزحلة وبسكنتا وبتغرين ودومة لبنان مسابك حديد ، يقينون فيها الحديد قيناً جيداً ، والنحاس يعمل في كل بلد للآنية وامتهانات البيوت ، وأجلّه ما صنعه صَنَعو الأيدي في دمشق وحلب . ومن أوسع معامل النحاس الأصفر معمل السادة النعسان في دمشق فقد تفنن بصنع الزهريات والكؤوس والثريات وغيرها والسياح يتنافسون في اقتناء مصنوعاته وكثير من أرباب الثراء في مصر وأميركا وأوربا يزينون ردهاتهم بقطع منه ولا يقل العاملون والعاملات فيه عن مائتي نفس .

وصناعة النحاس المنقوش من الصناعات القديمة في الشام ، وكل ما كانت تستعمله قديماً في بيوتها وحوانيتها هو من صنعها ، من صحاف كبيرة وصغيرة

وبواطٍ على غاية من دقة الصنعة والقديم منها يباع الآن بأثمان باهظة ، وبيع من مدة من أحد تجار الآثار القديمة صحنان من النحاس بسبعين ليرة عثمانية ذهباً ويشتري الأوربيون ذلك تقديراً للفن وخدمة للتاريخ ، وفي الشام معامل كثيرة لصنع النحاس المنقوش وله رواج عظيم وهو أنواع كثيرة منها ثريات للتعليق في قصور الملوك والعظماء تزين برسوم جميلة ، ومنها ما ينار بالكهرباء ومنها ما ينار بالشموع وصحاف كبيرة وصغيرة وما يلزم للاستعمال والزينة في البيوت وهو أنواع . والمعقول أن يدوم تصدير هذه الأنواع وتزداد ، لما في نقوشها من الإتقان ودقة الصنعة والاعتدال في الأثمان .

الزجاجة :

من أهم الصناعات التي اختصت بها الشام من القديم الزجاجة ؛ صناعة الزجاج. وعدها الثعالبي من خصائص الشام وقال: إنه يضرب به المثل في الرقة والصفاء فيقال « أرقّ من زجاج الشام » وقال بعض الحكماء : وارفق بالعدو كما يرفق بزجاج الشام ، إلى أن تجد الفرصة فإما أن يضربه الحجر فيفضه ، وإما أن تضربه بالحجر فترضه » وربما كانت تعمل من هذا الزجاج المناظير للعيون قال أحمد بن محمد الدنيسري القاهري المتوفى سنة (٧٩٤) .

أتى بعد الصبا شيبي وظهري رمي بعد اعتدال باعوجاج
كفى أن كان لي بصر حديد وقد صارت عيوني من زجاج

وقد اشتهرت صور منذ القديم بزجاجها ، وكان الرمل الذي يعثر عليه في جوارها يزيد الزجاج بهجة ليست له في غيرها من البلدان . وكانت معامل الزجاج في حلب وأرمناز مشهورة تصدر منه إلى العراق ويتباهى به في قصور الخلفاء . واشتهرت معامل الزجاج في عكا إلى القرن الرابع عشر ، وعرفت دمشق بزجاجها كما اشتهرت الخليل فكانت الزجاجة من صناعاتها وهي مشهورة بعمل المصابيح التي تعمل فيها اشتهارها بأساور النساء . وكان الزجاج معروفاً بالدمشقي يتخذ للزخرفة والزينة ومنه الأكواب والآنية على اختلاف ضروبها ويفهم مما وصفه به الشعراء مبلغ تفنن الزجاجين بزجاجهم . واشتهرت الرقة بصنع الزجاج . وفي دار المتحف بدمشق مجموعة من الزجاج الملون المنقوش

المرقوش ، وهي أثمن المجموعات التي عرفت حتى الآن من نوعها . ومن أجمل النموذجات في هذه الطرائف البديعة ، ومنها الأكواب والأباريق والجامات والسكرجات والمضخات والأقداح والقوارير والكيزان والبواطي وكانت معاملها في دمشق وحلب والرصافة والخليل وصور وعكا على ما يظهر . وقد انحطت هذه الصناعة حتى انحصرت في دمشق وأرمناز والخليل بأناس فقراء يعملون من الزجاج القناني والبواطي العادية فقط . لأن صنع الزجاج النفيس الذي تعلمه البنادقة من معاملنا في الحروب الصليبية وتلقنوه عن معامل صور وانتشر صنعه في أرجاء أوربا بعد أن كانوا يستبضعونه من ديارنا قد نافس هذه الصناعة فقضى عليها أو كاد . وكانت معامل الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموي في دمشق رآها الرحالة بوجيبوجي سنة(١٣٤٦ م)وبعد أن كانت معامل عكا وصور مما يضرب بمصنوعاته المثل فقدت أسرار الجمال في هذه الصناعة . وقبيل الحرب العامة (١٩٠٨) أنشأ في دمشق السيد مسلم العمري معملاً لصنع الزجاج ، أنفق عليه عشرين ألف ليرة عثمانية ذهباً ، وجرّب عمله بواسطة صناع غربيين فجاء كالزجاج الذي يجلب من الغرب ، ووافق الرمل الذي استعمل لكن المعمل لا يزال معطلاً ، وكانت الشركة الوطنية بنته على آخر طرز في شرقي المدينة . وفي الحرب العامة الأخيرة قل الزجاج المجلوب من معامل الغرب فهب أرباب معامل الزجاج في دمشق وبيروت وأخذوا يصنعون الأكواب والصحون والأقداح من كسرات الزجاجات القديمة فسدت بعض حاجة الناس .

الدهان :

ومن الصنائع الدهان ، وكانت مما تمتاز به بعلبك . قال في مسالك الأبصار : ويعمل في بعلبك الدهان الفائق من الماعون وغيره ، ولكن دمشق وحلب وغيرهما من المدن حيث كان للرفاهية أسواق نافقة ، لم تكن دون بعلبك في هذه الصناعة ، فكان يدهن الخشب والحجر ويبقى بحاله القرون الطويلة . ومن يدخل قاعة من قاعات دمشق وحلب مثلاً يرَ الألوان زاهية باهرة كأنها نقشت الآن ، وفي دمشق اليوم قاعات وأبهاء وأواوين مضى عليها زهاء مئتي سنة ولا تزال

برونقها تدهشك كما يدهش الداخل إلى متاحف الآثار المصرية من نقوش بيبان الملوك وبني حسن وسقارة وكتاباتها ورسومها ، وقد مضى عليها قرابة أربعة آلاف سنة ، على حين تنصل الألوان المستعملة لعهدنا وتكمد في سنين قليلة .

والسبب في نصول الدهان الجديد ، ومواده تأتي من الغرب ، أن الدهانات القديمة كانت من صنع القطر ترجع إلى أصل ثابت ويحافظ عليها من المطر والشمس لأن الأقدمين لم يكونوا يعنون بفتح الطيقان والنوافذ وتوسيع الأبواب مثل المحدثين ، ولذلك صبرت الأصباغ على الأيام ، زد إلى ذلك عنايتهم في تخير الأخشاب وأكثرها من الدف الرومي أو الجوز أو السرو وهذه مما يصعب تطرق التشقق والبلى إليه كالكريش والشوح وفيه مواد قطرانية أو غيرها ، وكانت لهم في دمشق صناعة من الدهان تعمل من الحفر والتنزيل ويقال لها الأبلق وهي أن يرسم الدهان الحجر مما يريد من الأشكال والنقوش ويحفرها النقاش والحفار ثم يدفعها إلى الدهان فيدهنها بصب الأصباغ في الشقوق التي يريدها ثم تجلى وتصقل فيجيء صبغها كأنه من أصل الحجر ثابتاً براقاً ، ولا يعمل منه شيء اليوم .

وفي دمشق أُسرة عرفت بأسرة الدهان اختصت بصناعة الدهان الذي يقال له العجمي كما اختصت بصنع هذا الأبلق . وتصنع هذه الأسرة مناضد وخزائن واسكملات بهذا الدهان المعروف بالعجمي من النوع المقرنص تكون آية الإبداع وحسن الذوق ويتنافس في اقتنائها العظماء لتزيين قصورهم وتبقى السنين الطويلة زاهية زاهرة . وقد دهنت عدة قاعات فجاءت آية الإبداع . وذكر الغزي أن أحد شبان حلب تعلم في أميركا صناعة الدهان على الأصول الحديثة فجاء عمله غاية في الرونق والإتقان . والمنتظر تعميم هذه الصنعة على هذا المنوال مع مراعاة المعرفة القديمة فيها .

هذا في دهان الغرف والأبهاء والقاعات ، وأما صبغ الثياب والحرير والقطن والغزل ، فكان الاعتماد فيها على أصباغ لهم جميلة يعرفونها ، ربما كان أكثرها من تركيبهم أو من معادن القطر . وكان للصباغ الدمشقي صيت بعيد في الأقطار ، لثبوت ألوانه ولطافة لمعانه ، وكانت أصباغه معدنية ونباتية لا غشّ فيها فلما تغلبت الأصباغ الغربية بطل استعمال القديم منها بل نُسي

أمره واعتيض عنه بالحديد . وجودة الأصباغ القديمة كانت السر في اشتهار الديباج الدمشقي قديماً حتى أوشكت لطافته أن تجري مجرى المثل. وفي حلب اليوم نحو ٣٠ مصبغة بالنيل و ٥٦ مصبغة للغزل والحرير وفي دمشق مثلها ونحوها وكذلك في كل بلد بحسب حجمه وأرباضه .

وكان من أصباغهم الأصفران أي الزعفران والورس ، والبرفير أو الفرفير وهو الأرجوان (أحمر وأزرق) وكان ولم يزل للنيل الذي يخرج من الحولة أو يؤتى به من الهند ، شأن في صبغ ثياب العملة والفلاحين . وانحطت هذه الصناعة تبعاً لانحطاط أكثر الصناعات ، لما جاءت الأصباغ الألمانية الحديثة حتى إن بعض معامل ثياب الحرير ترسل حريرها إلى الغرب ليصبغ ويعاد إليها ، فتعمل منه الشقق والثياب وتوشى على ما يشاؤون ، والوشي في الثوب كالرقش في القرطاس والنقش في الحائط ،ويحاولون أن تكون ألوانها ثابتة لا تنصل .

الفخارة والقيشاني :

وصناعة الفخارين اشتهرت بها الشام أيضاً وكان في صور الخزافون المبدعون في الأعصر القديمة ، وكذلك في كفرطاب ، وكانت تعمل فيها قدور الخزف وتجلب إلى غيرها ومنها نموذجات لطيفة حفظت في داري الآثار في دمشق وبيروت ،وكان ولا يزال يعمل من الخزف القلل والخوابي والأجانات والدوارق وأصاصي الزهور وغيرها ، يصنع ذلك في حلب ودمشق وطرابلس وبيت شباب وصيدا وبيروت وغزة وعيتا وراشيا (ويقال لهاتين البلدتين عيتا الفخار وراشيا الفخار) وصناعة الفخار على كثرة منافسة الخزف الغربي لها لا تزال متماسكة ، لأنه لا يتيسر جلب كل شيء من الخارج . وأجمل الخزف اليوم ما عمل في حلب من الصيني الجميل .

ومن الصناعات التي كانت تجود في دمشق وحلب من دون سائر البلدان على ما علمنا ،صناعة القيشاني التي دثرت وكانت مورد ربح، وعنوان فخر ومباهاة . ترصف بها الجدران والمحاريب والفساقي والسلسبيلات والباذهنجات والقماقم والزهريات والقلل وغير ذلك . وكان يصنع على ما يظهر من الرمل

الأبيض والجبس يجبلان معاً ويفرغان في قوالب على الشكل المطلوب ، وتكتب على سطوحها آيات وأحاديث أو أشعار ، أو ترسم عليها نقوش مختلفة بمواد ثابتة ، ويذر عليها مسحوق الزجاج ، أو تطلى به ممدوداً بسائل غروي ، وتشوى في تنور معدّ لذلك ، فيسيل الزجاج ويكسوها قشرة رقيقة تقيها من الغوائل والمؤثرات زمناً طويلاً ، وتظهر النقوش والكتابات زاهية بألوانها الطبيعية . وفي سلسبيل جامع الدرويشية بدمشق نموذج منه أُرخ بسنة(٩٨٢) ، وقطعة أُخرى كانت على قبر لطفي باشا أُرخت بسنة(٩٩٨)وهي محفوظة بدار الآثار بدمشق وقد كتبت عليها الآية الكريمة ﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ بخط تعليق مشرق وفي أعلاها رحمة المولى عليه كل حين . ولا تزال في بعض الجوامع والمدارس من هذا القيشاني العجيب نموذجات تأخذ بالأبصار .

وكان في المسجد الأقصى مصنع للقاشاني له كامل الأدوات وذلك في عهد سليمان القانوني العثماني وهو أول من استعمل القاشاني في زخرفة خارج قبة الصخرة ، ولا تزال بعض قطعه محفوظة في المسجد . ويوجد الآن مصنعان فيها لرجلين أرمنيين أتيا القدس من كوتاهيه ، وكانت هذه من أشهر معامل القاشاني في الدولة العثمانية، ويشتغل المصنعان بالصنف من القاشاني الذي يرغب الفرنج في اقتنائه وهي جيدة بعض الشيء لكنها لا تحاكي الأنواع القديمة . ويؤخذ تراب هذا النوع من مطحون حجر الصوان يسحق بآلة بخارية قويـة .

ومن أجمل النماذج من القيشاني بدمشق عمودان منه على طول متر في محراب جامع التبان في المناخلية جوار باب الفرج ، ومنه نموذج كثير ويظن أنه حديث في تربة جامع المرادية ، وفي مدخل السويقة في مدرسة أقوش النجيبي كتبت عليه آية الكرسي بالقيشاني البديع . وفي تكيتي السلطان سليمان وسليم وفي قبر في زقاق القرشي بالميدان كتب عليه هذا قبر الجنينين الطفلين يونس وفرج ، محفوظ في إدارة الأوقاف ، والقيشاني في جامع تنكز مكتوب عليه آية التوحيد وفي مدفن بلال الحبشي الصحابي ١٤٦ قطعة من القيشاني المعمول في كوتاهية .

ولا يعلم تاريخ اندراس هذه الصناعة ، والمشهور أنها كانت خاصة بأهل بيت يتوارثون صنعها خلفاً عن سلف ، فدثروا ودثرت معهم منذ أكثر من قرنين . أخبرني أحد أساطين العلم أنه رأى القيشاني في جامع الدرويشية بدمشق مصبوباً على الأحجار طبقة لطيفة وهو في غاية الحسن . ويظهر أن المادة القيشانية كانت تمدّ على الحجر كما تصنع صفائح وألواحاً . وقد قام في العهد الأخير في كثير من المدن أناس لعمل الخزف الملوّن لتبليط البيوت دعوه بالقيشاني وهو لا يشبه القيشاني إلا بالاسم فقط . وانتشر وعم استعماله في الشام كلها ونقل إلى الأصقاع المجاورة .

الوراقة :

فقدت الشام عدة صناعات كادت تكون خاصة بها ، وتعد في جملة موارد عيشها ، ومنها الوِراقة صناعة عمل الورق . فقد كانت من الصناعات التي تعدها من حاجياتها . وكانت العرب تكتب أولاً في أكتاف الإبل والحجارة الرقيقة البيض وعسيب النخل ، بعدما كانت الكتابة في الأديم والرقوق على ما قاله المقريزي . وفي أيام بني أُمية عمل الورق من الكتان وسمي بالخراساني . والغالب أن الشام أخذت في صنع الورق في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة ومنبج قبل هذا التاريخ . وعامة المؤرخين من الفرنج على أن الورق من اختراع أهل(الصين سنة١٢٣ ق.م)ونقل صنعه أسرى من الصين إلىسمرقند في سنة(٧٥١)وفي سنة(٧٩٤ م)أُسس معمل للورق في بغداد ثم في دمشق ويظهر من بيت طرفة في معلقته أن القرطاس ينسب للشام والبيت :

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر كسبت اليماني قده لم يجرد [(١)]

وأن القرطاس كان يعمل فيالشام على عهده أو قبله خلافاً لما قاله مؤرخو الفرنج ، وأن الورق من صناعات الجاهلية. وكان يرتفع منه كميات من دمشق ومن طبرية على ما ذكر ذلك المقدسي . وقد تعلم صنع الورق في دمشق أسيران فرنسيان على عهد الحروب الصليبية فلما عادا إلى ديارهما نشرا صناعته في

(١) في جمهرة أشعار العرب أنه شبه خدها بالقرطاس وهو الورق من جهة الشام وشبه مشفرها بالجلد المدبوغ بدباغ القرظ للينه .

فرنسا ، ومنها انتقل إلى جميع أوربا ، فللدمشق على فرنسا بل على المدنية بأسرها ، الفضل الأول في تعليم هذه الصناعة للغربيين ، وناهيك بأنها أهم صناعة نشرت العلم والأفكار في العالم . وقد حمل الشاميون الوراقة إلى الأندلس وصقلية في جملة ما حملوه من صناعاتهم ، على نحو ما حملوها إلى شمالي إفريقية . وكانت شلطبة من مدن الأندلس تصدر منذ سنة(١٠٠٩ م)الورق بكثرة ويحمل منها إلى سائر أرض الأندلس .

وكان الورق يصنع أشكالاً في مكابس صغيرة ، ويعمل من الخروق البالية أو الحرير واستبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة (٧٠٦م) رجل اسمه يوسف بن عمرو ، ولا يزال في خزانة دار الكتب العربية بدمشق كتاب كتب سنة(٢٦٦ ه)على ورق يظن أنه من الورق الشامي وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولا يزال على متانته . وقال الرحالة ناصرخسرو : إن الكاغد الجيد الذي كان يصنع في طرابلس يشبه ورق سمرقند إلا أنه أحسن صنعاً . وذكر القلقشندي أن الورق المعروف بورق الطير ، أي الورق الذي تكتب به البطائق وتعلق في أجنحة حمام الزاجل ، هو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام . وهذا هو الورق الرقيق ، والورق القديم أشبه بالبُرْدي أو الرقوق بمتانته . ولا نعلم في أي زمن انقرضت هذه الصناعة . وحدثني أحد علماء حلب أن الورق كان يصنع في الشهباء وأن حياً من أحيائها لا يزال اسمه الورّاقة حيث كانت معامل الورق . والورق الحلبي الصقيل المتين مشهور إلى عهدنا .

وقد قام في أوائل هذا القرن رجل بيروتي من بيت الباحوط ، فأسس معملاً مهماً في أنطلياس على ساحل البحر ، وأصدر ورقاً جيداً كورق النمسا وفرنسا ، لكن معامل الورق في الغرب أرخصت صادراتها من الورق إلى الشام فاضطر هو أن يُنزل أيضاً ثم خفضت السعر ولم تزل تخفضه ، حتى قضت على هذا المعمل النافع في زمن أصبح المجلوب من الورق كل سنة يساوي عشرات الألوف من الدنانير إلى الشام وأصبح الورق حاجة من حاجات المدنية .

المرايـا :

المرآة (بكسر الميم) ما تراءيت فيه أو رأيت فيه صور الأشياء وجمعه المرائي والكثير المرايا وصنعها من صناعات هذا القطر كانت تصنع في صيدا على ما قال بلينوس وتصدر إلى الخارج ، وقد وجدت في خرائب بومبي ألواح كبيرة من الزجاج وكانت مرايا الأقدمين من صفائح المعدن وهي المعروفة عند العرب بالوذائل واحدتها وذيلة ، اتخذوها بادئ بدء من مزيج القصدير والنحاس ثم من الفضة خالصة أو ممزوجة بمعدن أدنى ، ومنها مرايا من الذهب ، وقد اطلعنا على مرايا من الشَّبَه والفضة استخرجت من أرض حمص . وهذه الصناعة مما تعلمه البنادقة على ما يظهر من الشاميين وانتقل إلى الغرب ثم تنوسي عمله عندنا . وكان يرتفع من فلسطين خلال القرون الوسطى المرايا وقدور القناديل في جملة ما يحمل منها من أنواع الصناعات .

الصياغة :

ومن أهم الصناعات القديمة التي لم تبرح على شيء من العناية الصياغة صياغة الذهب والفضة والتفنن في تصويرها ووضع الأحجار الكريمة عليها ، وكانت تعمل هنا أكلة الجوهر وأقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت والشنوف والخواتيم والدمالج والقلائد والأطواق والخلاخيل على أشكال ورسوم جميلة . والغالب أن المصنوعات المزيفة من الصياغات الأجنبية نازعت هذه الصناعة وزاد كسادها اختلاف شروط الحياة في هذا العصر عما كانت عليه في الأعصر السالفة ، وصارت رفاهية القرون الخالية مما يتعذر على ابن هذا الجيل إلا قليلاً .

فصياغة الحلي كما لا يخفى من الصناعات اليدوية الدقيقة جداً ، وهي تحتاج إلى ذكاء ومهارة لتغير أوضاعها وأشكالها بحسب ذوق كل عصر ورغبة أهله ، وهي تقسم كما أكد العارفون إلى سبعة أقسام رئيسة . الأول ما يحلى به الرأس وأعظمها شأناً ورواء ما يسمى بالتاج ، وهو عبارة عن دائرة من الذهب الرقيق ، يختلف شكلها بحسب الزمان مرصعة بأحجار الماس المختلفة حجومها ، وهي إجمالاً من أحسن ما صنع لتزيين رؤوس السيدات ، ويوجد اليوم أسماء كثيرة وأنواع عديدة لما يزين به الرأس ، منها ما يسمى بالمشط ،

والبرش ، والقمر ، وكثير من أشكال الطيور والحشرات كل ذلك من أبدع الأشكال والصور مرصع بالجواهر الكريمة .

ومما تزدان به الصدور من الحلي أنواع متعددة أيضاً منها ما يدعى بحسب صوره وأشكاله مثل « قلب ، حبة ، فراشة ، زنبقة ، غزال ، دبوس ، كردان ضفدع » كل ذلك جميل في صنع ذهبه وترصيعه ، وتناسب تركيب أحجاره يدل على رسوخ قدم في تلك الصناعة ، وغالب ما تزين به النحور عقود اللآلئ ومما تحلى به الزنود أساور الذهب الدقيق الصنع ويرصع غالباً بفَصّ واحد كبير الحجم ورسمه على الأكثر حية أو أفعى ، ومما تحلى به المعاصم ويسمى أساور ترسم على أشكال متعددة من الذهب ، وترصع بأحجار ماس ، ولها بحسب أشكالها أسماء متعددة منها « حبة ، برغي ، ماس ، سحب ، عصافير » وغير ذلك . وكلها بما فيها من دقة صنع تدل على سلامة ذوق صناعها .

وحلي الأنامل وهو ما يسمى بالخواتم ، وعامتها من الذهب ويركب عليها غالباً فص كبير الحجم من الماس أو الياقوت أو الزمرد أو الفيروزج أو فصوص صغيرة متناسبة الوضع ، ولها أسماء متعددة منها « مركيز ، زيتونة ، فريشة ، ذو الثلاثة أحجار » ومن أكثر أنواع الحلي الأقراط حلي الآذان وهو أشكال متعددة أيضاً منه ما يسمى قرط كف ماس قفل ، طارة ، خروسة ، عصافير ، تركي ، بغدادي ، حرية ، وقرط الطويل ، وهو عبارة عن قطعة واحدة من ماس كبير الحجم ، معلقة بسلسلة من الذهب ، بطول ثلاثة سانتيمات تقريباً لها خفقان على الجيد جميل .

وبجيد فوقه القرط يلوح شبه نجم خافق خلف القمر

وفي الشام ألوف من صناع الحلي وتجار الأحجار الكريمة ، وليس من بلد في القطر إلا وفيه عدد من أرباب هذه الصناعة النفيسة . ومن غريب الأمر فيها أنك لا تجد شكلاً راج في بلد إلا تجده قد راج في الشام من أقصاها إلى أقصاها خلافاً للباسهم وبقية أزيائهم .

ولا بد من الإشارة إلى سبب ترقي هذه الصناعة ، ذلك أن الشام مدينة للفتح العربي بها ، فإن هذا القطر كما يعلم الباحثون ليس فيه مناجم ماس ولا ذهب

ولكن الفاتحين من العرب بعد فتحهم أغلب آسيا وإفريقية وعاصمتهم دمشق هادتهم الملوك ، وأغلب هداياهم هي الجواهر الكريمة والذهب حتى امتلأت منها خزائنهم ، وكان الخلفاء منهم يهدون منها القواد والأمراء والأطباء والشعراء والعلماء والفقهاء فكثرت في أيديهم وزادت بطبيعة الحال في أيدي الصاغة ، وتنافسوا في إتقان تلك الصناعة حتى صارت كما ترى اليوم في أعلى درجات الارتقاء .

ويمكن أن يعد في جملة الصياغة طبع الدراهم وضرب الدنانير من النقرة المذابة من الذهب والفضة ، فإن الشام كانت من أول الأقطار التي طبعت فيها السكة الإسلامية ، وكانت الدنانير تضرب في الجاهلية بأيلة على البحر الأحمر ، وفي متاحف دمشق وأوربا نقود ضربت في دمشق وحمص وإيليا وأنطاكية وبعلبك وطبرية أيام عمر سنة(١٧)وعليها كلها رسم ملوك الروم ثم اسم المدينة بالعربية واليونانية .

وكان لهم مهارة في معرفة البهرج والزيوف من النقود الصحيحة ويذهب بعضهم إلى أن الإكسير إذا أضيف مثقال منه على ألف قنطارمن الحديد يستحيل ذهباً خالصاً ، ولم يثبت ذلك من طريق الكيمياء وما برح الأحمران الذهب والفضة معدنين خاصين ، ويمكن أن يعد في جملة هذه الصناعة صناعة لصق المينا بالمعدن ومنها نموذج في دار الآثار بدمشق . وفي التاريخ العام أن معامل الشام كانت تصنع الخرز والآنية الذهبية ذات الميناء ، أما صناعة الجواهر والصياغة فإن ما بقي منها يدل دلالة كافية على رقي العرب في صنعها . وكانت العرب تحسن قطع الأحجار الدقيقة ونقشها بالرسوم وزبرها بالصور .

صناعة الصدف والرخام :

واشتهرت بيت لحم والقدس بصناعة الصدف يعملون منه الصناديق الصغيرة لوضع أدوات الزينة ، والمسابح والصلبان والدبابيس والدويّ والمقاطع ورسوماً وطيوراً وحيوانات الفيل والأرنب ،وما يصنع من خشب الزيتون أشكالاً دليل على رسوخ الصناعة ، وتباع في الغرب كميات كثيرة منها ، لما فيها من دقة الصنعة وجمال الأسلوب والتفنن في الوضع والشكل ، ويتنافس الغربيون في

اقتناء هذه المصنوعات ويحببها إليهم كونها من الأرض المقدسة .

وتفرد أهل بيت لحم منذ قرون بصنع أدوات التقوى كالسبح والصلبان وبعض مشاهد التوراة ، يصنعونها من عرق اللؤلؤ كما يعملون المرجان وحجر الخنزير أو الحجر المنتن ، وهو مؤلف من الطباشير والحمر المستخرج من بحيرة لوط .

وكانت عكا في الدهر السالف تعمل صنوفاً من حاجيات الكنائس . ولبعض صناع الرخام صنائع دقيقة في دمشق فمنهم من يعمل أحواض الماء من قطع صغيرة ، فيها أنواع الرخام الملون ، وقد عمل أحدهم خزانة للكتب من أنواع الرخام الملون لا تتجاوز القطعة الواحدة السنتمتر الواحد فكانت طرفة من الطرائف التي آثروا بها القصر السلطاني في فروق . وهذه الصناعات من الكماليات قلما يرغب فيها حتى الأغنياء أرباب القصور ، ولذلك رغب عن صنعها أربابها فكادت تدثر . ولبعض الصناع مهارة في تقليد العاديات القديمة وغيرها من الأعلاق ، لا تكاد تختلف عما صنع من نوعها منذ قرون ، يقتنيها بعض السياح على أنها من القديم . وتقليد العاديات مما عمت به البلوى في الغرب اليوم وهي مورد من موارد ربح الفقراء من الأغنياء وهي تحتاج إلى معرفة زائدة ومهارة غريبة .

السجاد والحصير :

ومن أهم الصناعات صناعة نسج البسط ، يقلدون فيه السجاد العجمي والتركي . وهو أحط من العجمي لأن هذا السجاد الشيرازي والأصفهاني يصعب أن يدانيه سجاد في العالم لا يكاد يفنى حتى بعد استعماله قروناً ، كالأعبئة الشامية تلبس عشرين سنة وهي برونقها ومتانتها . وبحق ما يقولون إن السجادات والأعبئة أُجراء دائمون بلا أُجرة . واشتهرت البسط الشوبكية وبسط أعناك في البلقاء وحوران وسجاد دمشق ، ومنها المصور بأشخاص ورسوم .

وفي دمشق وحوران وجبل قلمون ولا سيما في جيرود وفي حمص وحلب ألوف من الأنوال ، تحيك البسط من الصوف الخالص وكانت تصبغ بالأصباغ النباتية الثابتة من استحضار القطر ، فتحتفظ بألوانها بعد عشرات من السنين

وتصبغ الآن بأصباغ أوربية قليلة الثبات وهي على غاية من دقة الصنعة وتناسب النقوش ومتانة الحياكة بحيث تضاهي أحسن ما يعمل من نوعها في الأقطار الأخرى . ويأتي بعدها صناعة السجاد والطنافس ، وتعمل في قرى حمص وحماة وهي المسماة بالحزوري والعدموني ، نسبة لقريتي حزور وعدمون ، وهي على غاية الجودة والمتانة تعمل من الصوف الخالص ، ومما يعاب عليها أنها لم تزل تعمل من لون واحد وهو الأحمر القاني ، ونقوشه متشابهة لا تفنن فيها . ودخلت صناعة الطنافس على طريقة أحدث من الطريقة القديمة في حلب وبيروت ودمشق وذلك بدخول جاليات من آسيا الصغرى في السنين العشر الأخيرة ، يحسنون صنعه جدّ الإحسان ، لكن النفوس لا تزال ترغب في سجاد فارس ، فإنه لا يعادله شيء بمتانته وثبات ألوانه وتصويره ورقشه . وفي بعض قرى قلمون يصنعون من الوبر بسطاً غليظة متينة تستعمل في الضياع والبوادي ، وتوضع على الأدراج في المدن . ويعملون الجُوالق (الشوالات) والعدول على شيء من الجودة والمتانة وكذلك البلاس والمسوح .

وكان نسج الحصير والباري من أفضل الصناعات تقوم بالحاجة . واشتهر أنه كان « إلى جانب طبرية غابة حلفاء ورفقهم منها ، أكثرهم ينسجون الحصر ويفتلون الحبال » وقد رأى ناصرخسرو في القرن الخامس حصراً من هذه الحصر الطبرانية تستعمل للصلاة وتساوي الواحدة منها خمسة دنانير مغربية . وقد ضعفت هذه الصناعة بانهيال البسط الإفرنجية والحصر اليابانية الرخيصة ، ولكن القرى وكثيراً من المدن ما زالت تعتمد على المصنوع منها في أرض الوطن والحصر البيروتية مشهورة بحسن نسجها ولطافة ألوانها ومتانتها التي تفوق البسط الإفرنجية كثيراً .

الصناعات المحدثة :

ومن أهم الصناعات المحدثة صناعة القرميد وهو صنو الآجر القديم تقرمد به السطوح ، وفي لبنان واللاذقية ويافا معامل منه وفي سنة (١٩١٨) أسس رجل فرنسي في اللاذقية معملاً لعمل القرميد، والقرميد الآجرة العظيمة . ويعمل في هذا المعمل الفخار الصيني وبلاط الملاط بجودة التراب الخزفي في تلك الأرجاء

وفي القدس معمل للقيشاني أو البلاط الملون . ومن الصناعات الجديدة صنعة لفائف التبغ تصنع منها كميات مهمة في حمانا وبكفيا وزحلة وبعض قرى بيروت الساحلية وتعمل منها كميات عظيمة في فلسطين ودمشق وحلب . وقد استفادت فلسطين في الأيام الأخيرة من الإكثار من زرع الدخان استفادة عظيمة وأخذت تصنع من اللفائف ما يقوم بحاجتها وتبيع منه إلى الخارج . ومنها صناعة الطباعة وصنع الصور والحفر على النحاس والزنك وفي بيروت أحسن مصانعها ودمشق تقلدها . ومن الصناعات المحدثة صنع الجليد وأهم معامله في بيروت وحلب وطرابلس وصيدا واللاذقية ودمشق وحيفا ويافا والقدس وهو يقوم مقام الثلج الطبيعي في التبريد . وكان الثلج السماوي يدخر إلى آخر أشهر الصيف بحاله وكان هذا ينقل في القرون الوسطى على البغال من صيدا وطرابلس إلى قلعة الجبل بالقاهرة في ثلاثة أيام لتبريد المياه في قصر الملك وعظماء الدولة هناك . وفي حيفا معمل للاسمنت المسلح يستخرج من حجر الجبل المتاخم لها ومعمل للبنزين والسبيرتو . وقد أنشئ معملان للاسمنت أحدهما في شقة قرب طرابلس والآخر في دمر قرب دمشق ونجحا نجاحاً باهراً . وفي كل من عكا ويافا معمل للثقاب (الكبريت) ومثله في دمشق. وأهم ما دخل مجدداً من الصناعات صناعة الجوخ في دمشق أنشئ لصنعه معملان أحدهما شرقي المدينة والآخر غربيها ، وأنشئ فيها معمل لحفظ الفواكه والثمار والبقول نجح نجاحاً كبيراً ، وأسس في حلب معمل عظيم للنسيج أتى بأعظم الأرباح وسد حاجة البلاد في الحرب الأخيرة .

هذه أهم الصنائع الشامية وغالب الصناعات « تتبدل عليها أيدي الصناع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناع حتى يتم » وقد أفاض صاحب قاموس الصناعات الشامية بتعداد هذه الصنائع والحرف في دمشق خاصة على اختلاف اسمائها وضروبها فبلغت نحو ٣٤٠ حرفة وصناعة . ولابن الصائغ الدمشقي منظومة في ثلاثة آلاف بيت في الصنائع قال ابن جماعة : واعلم أن هذه الصنائع استخرجها الحكماء بحكمتهم ثم تعلم الناس منهم بعضها وصارت وراثة من الحكماء للعلماء ، ومن العلماء للمتعلمين ، ومن الأستاذين للتلامذة ، ومن التلامذة للصناع . وكان ولا يزال لكل حرفة زعيم أو نقيب أو شيخ أو

عريف،ويسمى شيخ الحرف كلها بسلطان الحرافيش ثم كني عنه احتشاماً بشيخ مشايخ الحرف والصنائع . وكان لأرباب الصنائع ترتيبات أشبه بالنقابات الصناعية في الغرب ولذلك دام رواجها طويلاً . في العهد الأخير نقبت الصناعات النقابات على مثال النقابات الصناعية في الغرب وأصبحت أصوات العمال تسمع ويزيد صداها رنة كلما كثر الصناع .

تأثير الصناعات في الماديات والأخلاق :

قلت من خطاب في الصناعات يوم الاحتفال بافتتاح الدباغة الوطنية الفنية (٥ كانون الأول ١٩٢٤م– ١٣٤٣هـ)لقد فقدت معظم الصناعات ويا للأسف وآخر ما سيفقد منها صناعة النسيج الضرورية النافعة ، فقد كانت صادراته من حلب وحماة وحمص وطرابلس ودمشق تسد جانباً عظيماً من الموازنة بما تأتي به من الأموال كل سنة ، فأصبحت الآن إلى انحطاط ونازعتها الأقمشة الإفرنجية البراقة الدقيقة . قيل:إنه كان في دمشق وحدها ثلاثون ألف نول للنسج قبل الحرب فأصبح عددها اليوم نحو ثلاثة آلاف ، ولا تلبث إذا دامت الحال على هذا المنوال أن تضمحل كما اضمحل غيرها من الصناعات ، ويفتقر أربابها ويهاجرون أو يهلكون . وفي كل ذلك خسارة وفجيعة ، وأي فجيعة أعظم من الفجيعة بالمال أو الرجال أو بهما معاً .

ومما يجنيه القطر من اجتماع الناس على مثل هذه الأعمال الصناعية تربية الروح القومي فيهم وإصلاح ما أمكن من شؤونهم الاجتماعية . وإليكم مثالاً جرى في هذا المعمل يتخذ منه العاقل عبرة . ذكر لي مدير مدبغتنا هذه منذ مدة أن مستشار الأمور الاقتصادية في المفوضية العليا زار المعمل وسر بنجاحه كل السرور ونشطه بالقول والفعل ، إلا أنه بدت منه حركة استغربها ، وذلك أنه سأل كثيراً من العملة عن مذهبهم ، وبالطبع فيهم من أهل الأديان السماوية الثلاثة ومن غير الشاميين أيضاً . فاستغربت مع صاحبي هذا السؤال منه ولم أهتد لتعليله . ولم يلبث المستشار أن زارني من الغد وذكر لي في جملة حديثه سروره بالمدبغة الجديدة ، وقال : إنكم معاشر الدمشقيين قد حللتم مسألة من أعضل المسائل في بلدكم لم نتمكن نحن في بيروت من حلها . وذلك أننا أردنا

مرة أن نقوم بمشروع صناعي فيها فجاءنا أهل كل مذهب يريدون أن يستأثروا بأكثر المنافع لأبناء طائفتهم . ونحن كنا بالطبع نريد أن ينتفع به من يعمل ويعرف . وهكذا ضاع الوقت في المجادلة على غير طائل ولم نتقدم شبراً واحداً في الموضوع الأصلي ، وسقط المشروع وهو جنين لأن الناس هناك يريدون أن يقوم بذاك الروح . ولقد سررت أن رأيت في معملكم المسلم والمسيحي والإسرائيلي على اختلاف مذاهبهم . وكل فرد يعيش مع أخيه متسانداً متعاطفاً قلت له : ولذلك استغرَب بعض عملة المدبغة سؤالكم أول أمس عن دين من رأيتموه فيه . فقال : ليس في العالم عمل اقتصادي قام على أساس الدين ، ولبنان الكبير غريب في حالته هذه فقلت له : هذه قاعدة قديمة سارت عليها دمشق منذ الفتح الإسلامي فكل من يحسن عملاً يوسد إليه مهما كانت نحلته . فسرّ لقولي وسررت لتوفيقنا .

بقيت هناك مسألة لا بد من الإشارة إليها وأعني بها تأثير الصناعات في الأخلاق . فقد ثبت أن الأقطار التي تكثر فيها الأعمال الصناعية والزراعية أحسن أخلاقاً من غيرها ، ويقل فيها المتشردون والثرثارون ، لأن من طبع العاملين الأخذ بالنافع وترك الفضول على الجملة . ولذلك يضعف الشغب في أرباب الصنائع ، وتقل الموبقات المهلكات ، لأنها لا تبقي للعامل إلا الوقت الكافي لراحته ونومه ، وهو على ثقة من أنه إذا لم يحصر ذهنه في عمله يخرجه صاحب المعمل أو الحقل من خدمته . فالحكومة التي تحب أن يقل الشغب بين من وسد إليها أمرهم يجب عليها أن تفكر ليلها ونهارها في إيجاد أعمال رابحة لهم ، وبذلك يقل المتشائمون والمشاغبون والمرجفون والناقمون . وليس أحسن ولا أنجع من هذه السياسة .

لا جرم أن اشتراك أهل البلد الواحد بل القطر الواحد والمملكة الواحدة في عمل اقتصادي مما يرفع مستوى القومية أيضاً ويلقن الناس معاني التكافل الوطني . فقد رأينا في الدهر السالف سكان الجنوب وسكان الشمال من فرنسا يقتتلون ويتحاربون ولم تنقطع شأفة الفتن من بينهم إلا عندما اشترك الجنوبي مع الشمالي في الأعمال الاقتصادية ، فأصبحت مصلحتهما واحدة وارتفع النزاع من بينهما وأحسا أنهما أبناء أمة واحدة . لذلك نرى إلى اليوم من بقايا تلك الأخلاق

أن ابن الشمال يهزأ بابن الجنوب على حين كلهم سواء في مناحيهم ومنازعهم ، بل إن أهل شمالي فرنسا لا يعنون بغير صناعاتهم وتجاراتهم على الأكثر ويقلّ فيهم السياسيون والشعراء الأدباء وهم كثار جداً في أهل الجنوب كثرة فاضت عن الحاجة .

فيا حبذا اليوم الذي يشترك فيه قاصينا ودانينا ، فقيرنا وغنينا ، في إقامة الشركات على أنواعها ، إحياء لصناعاتنا واستبقاء للبقية التي صبرت على الأيام من ثروتنا . فالزراعة عشر الثروة العامة في العادة ، والباقي من أسباب السعادة والنماء ثمرة الأعمال الصناعية . وما السكك الحديدية والبواخر والسيارات والقصور والمصانع الفخمة وكل ما في المدنية من ضروب الراحة والرفاهية مما يلذ وينفع ، إلا نتيجة عمل العملة في المعامل ، وكل ما نشاهده وندهش به من أنواع الصناعات في أميركا وأوربا وفي اليابان والصين والهند هو ثمرة التعاون والعلم العملي. ولذلك ساغ لنا أن نقول: إن كل ما يدفعنا ولو خطوة واحدة إلى الأمام لنقترب بسفينتنا الفقيرة من ساحل السلامة يستحق ثناء الأمة جمعاء ولا رجاء لنا في الحصول على الحاجيات ثم التطلع إلى الكماليات ، إلا بتأليف شركات صغيرة بادئ بدء تقوم برؤوس أموال وطنية ، وتستعمل من الأدوات الجديدة ما لا غنية عنه ، تنمو بنمونا في مظاهر الحياة والانبعاث . فنحن لا نقل عن الغربي ذكاء ونشاطاً وإنما ينقصنا التنظيم والتدريب . وفي أرجائنا أكثر المواد الأولية اللازمة في الصناعات لا تحتاج إلا إلى معرفة قليلة للانتفاع بها والله الموفق والملهم .

التجارة الشامية

موقع الشام من التجارة وتجارة القدماء :

كان من وقوع الشام في طرف آسيا وإفريقية ، وقربها من الساحل المقابل لبحرها من أوربا ، أعظم مركز تجاري في القديم ، ومن أهم ما حمل أبناءها على الرحيل بتجاراتهم ، منذ عرف التاريخ امتداد سواحلهم . وكثرة الأخشاب التي تجود في غاباتهم ، تساعدهم على صنع السفن المتينة الكثيرة ، ثم إن مرونة أخلاقهم تدعوهم إلى الاختلاط بغيرهم ، وتقليده وتعلم لغته ومماثلته في عاداته وبهذا كانت شهرة الفينيقيين الذين استولوا على جزء مهم من تجارة شمالي إفريقية وجنوبي أوربا ، وبلغوا جزائر بريطانيا ، وأقاموا لهم مكاتب تجارية في كثير من سواحل هذا البحر المتوسط وبحر الظلمات ، وما زال الفينيقيون أعظم أمة تجارية بحرية في الدهر السالف ، ينقلون إلى الغرب حاصلات الشرق وإلى الشرق بعض ما كان يعمل في الغرب ،إلى أن قامت دولتا الرومانواليونان.

عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة ضيقة من الأرض . ولم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين وكلدانيين وأشوريين ، ولا قبائل الغرب البربرية (الإسبان والغاليون والطليان) ، عهد بركوب البحار وشق العباب . والفينيقيون وحدهم جرأوا في تلك الأيام على تجشم البحر ومعاركة العباب . فصح أن يُدعوا من أجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة البيع والشراء ، يبتاعون من كل شعب سلعه ويقايضونه على غلات البلاد الأخرى . تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق براً والغرب بحراً .

واعتاد الفينيقيون أن يرسلوا في البر قوافل تتجه وجهات ثلاثاً . إحداها

إلى أرض العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق اليماني والبخور والصبر والعطور العربية واللؤلؤ والأبازير والعاج والآبنوس وريش النعام وقرود الهند . والثانية ترحل إلى بلاد أشور لتعود منها بأنسجة القطن والكتان والحمر والأحجار الكريمة والماء العطر وحرير الصين. وتقصد القافلة الثالثة إلى أنحاء البحر الأسود لتستجلب منها الخيل والرقيق والأواني النحاسية من مصنوعات سكان جبال القوقاز .

وكانوا يبتاعون محاصيل صناعات الشعوب المتمدنة ، ويبحثون في الأصقاع المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من المحاصيل . يصطادون الصدف من شاطئ اليونان ، ومنه يستخرجون صباغاً أحمر وهو الأرجوان . وكانت الأنسجة الأرجوانية تستعمل عند الأقدمين كافةً ملابس للملوك والأمراء ، ويجلبون الفضة التي يستخرجها أهل إسبانيا وسردانية من مناجمهم . وكان القصدير من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الأصفر ، وهو مركب من نحاس وقصدير ولا أثر له في أرض الشرق ، يرحل الفينيقيون في طلبه ، وينشدونه حتى في شواطئ إنكلترا في جزائر القصدير وحيثما حلوا يتخذون الرقيق يبتاعونه تارة كما كان يبتاع النخّاس العبيد في ساحل إفريقية . وينزلون طوراً في إحدى السواحل فجأةً فيختطفون النساء والأطفال وينقلبون بهم إلى أهلهم ويبيعونهم في القاصية . وإذا واتتهم الحال ينقلبون قرصاناً ، ولا يتحامون إطالة أيدي التعدي على غيرهم .

وقد أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في الأرجاء التي اتجروا فيها ، وهي مراكز للبرد حصينة ، واقعة على مرفإ طبيعي يخرجون إليها بضائعهم من البحر وهي في العادة أنسجة وفخار وحلي وأصنام ، فيأتي أهل تلك الأقطار بغلاتهم يُقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الأوربيين زنوج إفريقية . وتقام أمثال هذه الأسواق في قبرس ومصر وجميع بلدان البحر الرومي مثل إقريطش ويونان وصقلية وإفريقية ومالطة وسردانية ومالقة وقادس وربما أقاموها في موناكو من بلاد الغول — قاله المؤرخ سنيوبوس .

وكانت الشام في الزمن القديم كثيرة السكان زاهرة على ما يظهر ، وهي مدينة بوفرة سكانها واستبحار عمرانها ، لمركزها الطبيعي وتجارتها العجيبة ورباعها الخصيبة . وكان في وسع مصر أن تنازع الشام مكانتها التجارية ، بيد

أن الحسد المتأصل في الطبقات الدينية والسياسية كان يمزقها ويحول بين المصريين القدماء وبين كل صلة بالشام . فكانت الشام إذاً المستودع الوحيد للعالم المعروف تأتي حاصلات آسيا وإفريقية مع القوافل إلى موانئ الشام حيث تحمل على سفن فينيقية . وأتت أزمان على الشام كانت تخرب بأيدي الفاتحين ، وتخرب أيضاً بالحروب المتواصلة بين الممالك الصغرى التي كانت تنازع هذا القطر . فأضاع بها مكانته ، خصوصاً منذ تخلصت مصر من نفوذ كهنتها ، وغدت منافسة لها بأن جعلت من مركزها الواقع على بحرين مستودعاً سهل التجارة بين أنحاء العالم .

وكان السبب في كثير من الحروب التي نشبت بين الشاميين والأشوريين والبابليين والمصريين ثم مع ممالك الروم في الغرب ، مسائل التجارة على الأغلب وإرادة الشاميين أن يفتحوا صدر أرضهم لتنفذ إليها تجارات جيرانهم أو غيرهم من الشعوب. ومن أهم المدن التي استأثرت بالتجارة في القديم البتراء ثم تدمر ثم حلب ودمشق . وكانت مدن فينيقية لولعها بالتجارة تترك الزراعة حتى بلغت الحال بأهل صور أن أغفلوا تعهد الأرض وكانوا يشترون مؤونتهم من الجليل والسامرة واليهودية ، ولما حاصر الإسكندر صور اضطر أن يستجلب أزودة جيشه من هذه المحال .

وذكر ديودروس أن ثروة الأنباط أصحاب البتراء كانت من الاتجار بالطيوب والمر وغيرهما من العطريات ، يحملونها من اليمن وغيرها إلى مصر وشواطئ البحر المتوسط ، ولم تكن تجارة تمر في أيامهم بين الشرق والغرب إلا على أيديهم ، وكانوا يحملون إلى مصر خاصة القار لأجل التحنيط . ولما استولى الرومان على القطر انتقلت التجارة إلى تدمر وفارس . ووفق الفرس إلى تحويل التجارة عن مصارفها القديمة إلى أصقاع الفرات والخليج الفارسي . وأخذ الرومان يعنون بإنشاء الطرق المعبدة في الشام ، والوصل بين الشام والأقطار الأخرى كالجزيرة والعراق والحجاز ومصر وآسيا الصغرى ، ولا تزال إلى اليوم بعض هذه الطرق ماثلة للعيان في صرخد والشراة والكرك وأيلة وجرش ، وهذه كانت طرق البتراء إلى داخل الشام ، وكانت أنطاكية ترسل إلى رومية الأصواف والأنسجة والحنطة ، والشرق يبعث إليها بأدوات الزينة والرفاهية

كالعطور والأبازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والأحجار الكريمة وثياب الصوف والحرير والعبيد السود والحيوانات النادرة ولا سيما القرود فكانت تجلب إلى الإسكندرية من طريق البحر الأحمر أو في النيل وتأتي إلى أنطاكية من طريق الخليج الفارسي وبادية الشام مع القوافل .

يقول بيرين المؤرخ البلجيكي في كتابه محمد وشارلمان: لقد عظم نفوذ الشاميين من وراء الغاية في رومية جاءوها بكثرة وكان عدة من البابوات من الشاميين كما كان بعض أباطرة رومية من أصل شامي وإلى الشام تصل قوافل الهند والصين وبلاد العرب وكان الشاميون يومئذ رجال البحر على نحو ما صار الهولانديون في القرن السابع عشر وبواسطتهم تصدر الأبازير وأعمال الصناعة من المدن الكبرى في الشرق كأنطاكية ودمشق والإسكندرية الخ وكنت تراهم في كل الفرض البحرية كما كنت تجد منهم جاليات في داخل البلاد . وكان لهم على عهد ملوك الرومان منازل في الإسكندرية ورومية واسبانيا وغاليا وبريطانيا العظمى حتى مدينة كارنونتوم على نهر الدانوب . ثبت ذلك بنصوص العاديات التي عثر عليها. وفي القرن السادس كثر المشارقة في جنوبي غاليا وكان منهم من يستوطنها ولا سيما في الجنوب من أرجائها وكان سكان أربونة في سنة(٥٨٩)من القرط والرومان واليهود واليونان والشاميين . وكثر سواد الشاميين في نابل وفي جوار باريز . قال: وكانت الميناء التي نعرفها أكثر من غيرها مرسيلية ويظهر أنها كانت فرضة كبرى منوعة السكان ويبين عن مكانتها تنافس الملوك في الاستيلاء عليها عند تقسيم الامبراطورية الرومانية وقد كثر فيها اليهود والشاميون والروم والقوط .

فالتدمريون ومن قبلهم النبطيون عُنوا بالتجارة جد العناية ، لأنها مورد معاشهم وعلة حياتهم ، لضعف الزراعة في كُوَرهم ، فكانت القوافل على عهد ارتقاء تدمر تحمل إليها من جزائر العرب الذهب والجَزْع واليشب واللبان والصمغ والصبر وعود الند ، ومن العراق اللؤلؤ، ومن الهند أنواع المنسوجات والقرنفل والبهار والحرير الصيني والنيل والصجاج والفولاذ والعاج والآبنوس . كل هذا يأتيهم من طريق القوافل في البوادي والقفار فيحملونه إلى رومية عاصمة الرومان. أما الأرفاق التي تأتيهم من البحر فكانت دون ذلك — قاله رنزفال.

وقد اكتشف أمير روسي في سنة(١٨٨٢) كتابة رسمية كتبت بالتدمرية واليونانية يرتقي عهدها إلى سنة(١٣٧)للمسيح فهمت منها أحوال التجارة القديمة ومضمونها تعريف جمركي مطول أصدره مجلس شيوخ تدمر حسماً لفتن وقعت بين التجار وعمال الخزانة ، وفيها بيان ما يضرب من المكوس على البضائع والمعاملات التجارية إجمالاً وإفراداً وهي باهظة فكان كل حمل جمل أو حمار يرد أو يصدر تُضرب عليه أولاً ثلاثة دنانير رومانية (وكان الدينار الروماني يساوي نحواً من ٧٢ سنتيماً) ثم فريضة أُخرى تختلف باختلاف جنس البضائع . والبضائع التي ورد ذكرها في هذه الجريدة كثيرة فمنها الرقيق والخِزَر والأرجوانيةوالزيوت العطرية المجعولة في قماقم من الرخام الأبيض أو في ظروف من جلد المعز ، ثم زيت الزيتون والشحم والملوحات المتنوعة والجلود والثياب والأنسجة والغلال المختلفة والأفاويه والأثمار اليابسة كحب الصنوبر والجوز واللوز والعقاقير والملح إلى غير ذلك . وينقسم كل حمل إلى ثلاثة أقسام حمل الحمار وحمل الجمل وحمل العجلة ، وكان ثقل الأول نحو مئة كيلو و الثاني أثقل منه بثلاثة أضعاف والثالث يبلغ نحو ألف كيلو . قال دي فوكيه : وكانت القوافل التي تحمل إلى تدمر خيرات المشرق تستخدم من الدواب الإبل والحمير وإذا وصل التجار إلى حاضرة زينب (تدمر) أنزلوا عن ظهر الدواب الجوالق والأثقال المختلفة وحملوها على العجلات ليوصلوها إلى جميع أنحاء المملكة على السكك والشوارع الرومانية ، فإذا بحثت عن أسباب تقدم تدمر وبلوغها ذروة العمران وجدت لذلك سببين: الأول مرور البضائع بها وإقامتها فيها مدة ودفع المكوس إلى خزانة المدينة،والثاني شهرة أهالي تدمر دون سواهم بقيادة القوافل في المفاوز والصحاري ، فلذلك صارت هذه الحاضرة في القرن الثاني للمسيح أشبه بمرفإ عظيم على بحر البراري ترسو عند ساحلها تجارة الأمم فتغني خزائنها كما جرى في القرون الوسطى لمدينة البندقية سلطانة بحر الروم . وقد اكتشف علماء العاديات عمودين نصبا للدلالة على مسافة الطريق ميلاً ميلاً عليها اسم زينب واسم ابنها وهبلات . وأول هذين العمودين قريب الجبيل والجسر الواقع على وادي العذار والثاني برج الريحان شمالي الجبيل .

وكانت الشام أهم محال الحرير ولا سيما صور وبيروت ، والشام من

أهم ولايات الإمبراطورية الرومانية . وذكر پروكوب عند كلامه على أنطاكية أنها أول مدينة رومانية مهمة في الشرق لغناها واتساعها ووفرة نفوسها وجمالها وعادياتها . وتعجب أنطونين الشهيد من الترف الذي كان على أتمه في أنطاكية ومن عظمة أفامية وبيروت وغزة . وقد اضمحل ذلك على عهد يوستنيانوس لأنه أر د أن يضع سعراً وسطاً للحرير فهلك تجاره وصانعوه وخربت معامله . ويرد تاريخ زراعة الحرير إلى القرن الأول للحكم اليوناني على الشام ولا سيما في ضواحي بيروت . قال هيد بعد أن ذكر ذلك:وقد حدا حب الربح تجاراً مسيحيين على أن يبيعوا أبناء دينهم بيع الرقيق لغرب اسبانيا وإفريقية والشام ، فاتخذ شارلمان والبابا زكريا وأدريانوس الأول الأسباب لمنع ذلك .

وقد وجدت في غاليا وغيرها من المدن التجارية في الغرب كتابات فيها أسماء الشاميين الذين كانوا يسكنونها للتجارة منذ الزمن الأطول ، ومنها ما وجد في جناي على مقربة من مدينة تريفو ذكر فيها شامي اسمه تَيْم من قرية عتيل من أهل مدينة قنوات في جبل حوران كان يتجر مع غاليا بما يحمله إليه مواطنوه إلى أرل على سفنهم ومنها إلى ليون فما فوقها من مدن فرنسا .

ولم يكن تجار الغرب يهتمون بالسفر إلى الساحل الشامي لأخذ البضائع اللازمة لهم ، بل يحمل الشاميون أنفسهم بنشاطهم المعهود تلك البضائع ، مع أن حاصلات آسيا كانت مما يلفت نظر الغربيين . واشتهر خمر غزة في فرنسا على عهد الملك كونتران في القرن السادس للميلاد ، وحرير الشرق وأحجاره الكريمة تتألف منها زينة العظماء والسادات . قال هيد : إن الشاميين كانوا يرحلون إلى فرنسا على عهد حكومة الميروفنجيين ونزلوا في جنوبي فرنسا مثل ناربون وبوردو بل في أواسطها مثل أورليان وتور وكانت تحمل إلى فرنسا أكياس الأدم من فلسطين . والظاهر أن الشام كان يفوق غيره بأعماله الصناعية والتجارية ، وصلات الشاميين محكمة مع الشرق والغرب، وكانت بلادهم على عهد الروم محط رحال قوافل الخليج العربي والخليج الفارسي وأواسط آسيا وهي أهم ولاية تجارية للروم . وفي الحق أن صلاتنا بالغرب زادت لما توطدت أقدام النصرانية في أوربا ، وأصبح زوار بيت المقدس يأتون إلى فلسطين أفواجاً أفواجاً ويحملون معهم شيئاً من تجارتهم ويأخذون ما عندنا مما يروج في أسواقهم.

تجارة العرب :

العرب أهل تجارة لضعف زراعتهم ، وكانوا يوغلون في الشرق والغرب لغرض الربح ، وقد كان لهم أسواق يقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها عامة قبائل العرب ممن قرب منهم أو بعد ، فكانوا ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام أول يوم من ربيع الأول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكان يعشرهم فيها أُكيدر دومة – وهو ملكها – وربما غلب على السوق كلها فيعشرهم بعض رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر ثم ينقلون إلى سوق هجر – قاله القلقشندي .

وما زال يقام في الشام إلى اليوم في أماكن مختلفة أسواق لبيع المصنوعات والحاصلات أشبه بمعارض هذه الأيام في الغرب . وكانت تقام في دمشق في كانون الأول سوق تعرف بسوق قضيب البان، رواه البيروني. وروى القالي أن قريشاً كانت تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، أي تقدّم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر وتمكن عنده وقال له : إن قومي تجار العرب فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمّن تجارتهم ، فيقدّموا عليك بما يُستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندكم فهو أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب . فجعل كلما مرّ بحيٍّ من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً . والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم من غير حِلف ، إنما هو أمان الطريق ، وعلى أن قريشاً تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حُملانها ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام، حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركةً ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوّزهم ، يوفيهم إيلافهم الذي أخذه لهم من العرب حتى أوردهم الشام وأحلهم قراها ، فاتسعت قريش في التجارة في الجاهلية . وهاشم هذا هو جد الرسول مات بغزة فنسبت إليه فقيل لها غزة هاشم لأن الروم كانوا يقيمون لهم سوقاً في غزة في موسم معلوم وكانت قريش في الجاهلية تحضره وتمتار منه .

وكانت لهاشم بن عبد مناف رحلتان رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم . قال الثعالبي : وكان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين ، إحداهما أن ذؤبان العرب ، وصعاليك الأعراب ، وأصحاب الغارات ، وطلاب الطوائل ، كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم ، والخصلة الأخرى أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، كبني طيء وخثعم وقضاعة. وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له . ومعنى الإيلاف إنما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق إليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤونة الأعداء ، فكان ذلك صلاحاً للفريقين ، إذ كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً . وفي غزة استغنى عمر بن الخطاب في الجاهلية لأنها كانت متجراً لأهل الحجاز .

وخصبت قريش وأتاها خير الشام واليمن والحبشة، وحسنت حالها وطاب عيشها ، ولما مات هاشم قام بذلك عبد المطلب ، فلما مات عبد المطلب قام بذلك عبد شمس ، فلما مات عبد شمس قام به نوفل وكان أصغرهم . وذكر اللغويون من جملة التخريجات في اسم قريش التي كانت سادة العرب جاهلية وإسلاماً ، أنها سميت بذلك لتجرها وتكسبها وضربها في البلاد تبتغي الرزق ، وقيل: لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع وضرع من قولهم فلان يتقرش المال أي يجمعه . وكان ساداتهم على حبهم للتجارة إذا تولوا أمراً من أمور الأمة تخلوا عنها . ففي التذكرة الحمدونية أنه كان لعمر بن عبد العزيز سفينة يحمل فيها الطعام من مصر إلى المدينة فيبيعه وهو واليها ، فحدثه محمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم « أيما عامل اتجر في رعيته هلكت رعيته » فأمر بما في السفينة فتصدق به ، وفكها وتصدق بخشبها على المساكين .

وكان الأنباط يحملون من الشام إلى الحجاز الزيت والدّرمك « دقيق الحوّارى » ويعودون إلى هذا القطر بحاصلات الحجاز . وفي السنة الثانية للهجرة أقبل أبو سفيان بن حرب والد يزيد ومعاوية من الشام في قريب من

سبعين راكباً من قبائل قريش كلهم كانوا تجاراً بالشام . وكانت تجارة أبي سفيان بيع الزبيب والأدم كما كان الصديق وعثمان وطلحة بزازين . وخافت قريش لما أسلموا من انقطاع السفر إلى الشام للتجارات لمخالفتهم أهل الشام بالإسلام فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا هلك قيصر فلا قيصر ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » معناه لا قيصر ولا كسرى بعدهما في الشام والعراق ، ولا ضرر عليكم ، فقويت نفوس العرب على الاتجار مع هذين القطرين وكانوا من قبل يملكون المزارع في الشام ويقيمون وينعمون .

واتجر الرسول في الجاهلية وكذلك بعض أصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان، ولما رفرف علم الإسلام على الشام اتسعت الدنيا على الصحابة حتى إن عبد الرحمن بن عوف الزهري أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام كان تاجراً كثير الأموال بعد أن كان فقيراً ، باع مرة أرضاً له بأربعين ألف دينار فتصدق بها كلها وتصدق مرة بسبعمائة جمل بأحمالها قدمت من الشام ، وأعان في سبيل الله بخمسمائة فرس عربية،وكان الزبير بن العوام ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة كثير المتاجر والأموال قيل: كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فربما تصدق بذلك في مجلسه ، وقد خلف أملاكاً بيعت بنحو أربعين ألف ألف درهم وهذا لم يسمع بمثله قط — قاله الذهبي .

وكانت مراكب صور وطرابلس تقلع من هاتين الفرضتين بالتجارة إلى سواحل خليج القسطنطينية (بحر إيجه) وخليج البنادقة (الأدرياتيك) وبحر بنطس (الأسود) وجزائر قبرس ورودس واقريطش،وكل ما قام به خلفاء المسلمين ووزراؤهم لتسهيل الحج على المسلمين من إنشاء الطرق وإنباط المياه على طول الطريق إلى أم القرى ، وإقامة معالم الأمن والراحة فيها للحجاج قد أفاد التجارة .

وكانوا قسموا أرض الشام إلى مراحل وبرد وفراسخ وعُنوا بالأمن من وراء الغاية حتى يتجر الناس . وكانت طريق القوافل إلى مصر على الكرك أو على غزة ورفح . قال ريسون : وكانت دمشق مدينة الصناعة الجميلة

مركز تجارة شبه جزيرة العرب ومصر والشام ، وإن العرب رقوا الصناعة البحرية ووضعوا قوانين لحقوق الملاحة واستعاروا بيت الإبرة من الصينيين ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر أيّ ضبط وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ووضعوا السفاتج المألوفة وردود التمسك وبعثوا روح الحركة في مصارفنا الحديثة وكنت تراهم حيثما سكنوا مهدوا السبيل وأمنوها ، وعمروا المرافئ والفرض ، وأصلحوا وأنشأوا الفنادق والرباطات ورتبوا سير القوافل الاقتصادية ولم تكن المدن الكبرى غير أوساط تجارية كبرى .

وكان الفرات بن حيان أهدى الناس بالطرق وأعرفهم بها وكان يخرج مع عيرات قريش إلى الشام وله يقول حسان :

إذا هبطت حوران من رمل عالج فقولا لها ليس الطريق هنالك
فإن نلق في تطوافنا وانبعاثنا فرات بن حيان يكن وهنَ هالك

ويقول بيكولوتي : إن أربع موانٍ : عكا وبيروت وطرابلس واللاذقية ، وخمس مدن داخلية الرملة ودمشق وحماة وأنطاكية وحلب استفادت من التجارة مع اللاتين ولا سيما مع البيزيين والجنويين والطسقانيين والبنادقة وكلهم إيطاليون وهذه الجمهوريات الأربع ، بيزة وجنوة وطسقانة والبندقية التي كانت تقتسم إيطاليا هي أول من اتجر مع الشام من أُمم الغرب وجاراهم بعض تجار من أهل بلجيكا وإنكلترا ثم عدلوا لبعد ديارهم . وكان لهؤلاء الطليان ولتجار أمالفي ومارسيليا مكاتب تجارة في الإسكندرية وفي المدن الساحلية والداخلية في الشام ، يقايضون بواسطتها حاصلات الشرق مع حاصلات الغرب ، ولما فتح الجنويون ثم البنادقة جزيرة قبرس زادت صلات الشام مع هذه الجزيرة التي هي على ٩٣ كيلومتراً من ساحل الشام في طرف جون الإسكندرونة وتعد من الشام. وجعل ملوك فرنسا لهم تاجراً إسرائيلياً يذهب كل سنة إلى الشرق يبتاع منه حاصلات آسيا. وكثيراً ما كان اليهود سفراء في المفاوضات مع أمراء آسيا .

وذكر ابن خرداذبة أن التجار اليهود الراذانية ، وكانوا يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية (الفرنسية) والأندلسية (الإسبانية أو البرتقالية) والصقلبية (السلافية) يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى

المشرق براً وبحراً ، ويجلبون من الغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف يركبون من فرنجة (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالفَرَما «على ساحل مصر» إلى القُلزم «البحر الأحمر» وإن شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية «في حوران» ، وأما تجار الروس وهم من جنس الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود ، والسيوف من أقصى صقلبة «بلاد الروس» إلى البحر الرومي والخارج منهم في البر يخرج من الأندلس أو من فرنجة ، فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى إفريقية «تونس» ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد .

وكان يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخروب والملاحم والصابون والفوط والجبن والقطن والتفاح والقريش والمرايا وقدور القناديل والإبر والنيل والتمور والحبوب والخرفان والعسل وشقاق المطارح والسُّبَح والكاغد والبز والأرز ، ومن قدَس «حمص وحماة» الثياب المنيرة والبلعسية والحبال ، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات ، ومن مآب قلوب اللوز ، ومن دمشق المعصور والبلعيس والديباج ودهن البنفسج والصفريّات والكاغد والجوز والقطين والزبيب ، ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة ، ومن بعلبك الملابن . واختصت حلب أيضاً — كما قال ابن الشحنة — بالصابون الذي يجلب منها إلى ممالك الروم والعراق وديار بكر وهو أفخر صابون ، ويباع منه بحلب في اليوم الواحد ما لا يباع في غيرها في الأشهر ، ومن خصائصها نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير والصوف واليزري والقماش العجمي وأنواع الفراء من السمور والوشق والفُنك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر والبضائع الهندية ، فإذا حضر إليها مائة حمل حرير فإنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه اهـ . وذكر ابن بُطلان من أهل القرن الرابع من عجائب حلب أن في قَيْسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن اهـ . وكانت تجارة الشام في هذا القرن والذي يليه

زاهرة جداً ، وقد قسم جعفر بن علي الدمشقي التجار إلى ثلاثة أصناف وهم الخزان والركاض والمجهز .

التجارة في القرون الوسطى :

كانت مراكب باري تسافر إلى مواني الشام قبل الحرب الصليبية وقد عقد أمراء سالرن ونابل وجايت وأمالفي في سنة (٨٧٥ م) معاهدة مع العرب كما عقد صلاح الدين يوسف وجمهورية بيزا معاهدة مؤرخة في ١٥ صفر سنة (٥٦٩هـ–١١٧٢م) منح بها البيزانيين عدة امتيازات خاصة بالتقاضي والمملكة. وحصل الفلورنتيون (أهل فلورنسه) من قايتباي سلطان مصر والشام على عدة امتيازات وكانت هاتان المعاهدتان من أوائل ما وضع من الامتيازات الأجنبية للأوربيين في الشرق وكان المقصد منها ترويج التجارة الصادرة والواردة .

قال أحد كتاب الإنكليز : إن عكا بقيت بخليجها الجون الطبيعي الوحيد على طول ذلك الساحل ، وكانت مرسى السفن في العصور الوسطى ، ولما كثر اعتماد سكان الشام في طعامهم على الأرز عظم شأن عكا ، لأنها كانت الميناء الوحيد لتوريده . وكان الناس يقولون إذا أراد « باشا » عكا تضرب المجاعة أطنابها في الشام . ولذلك صار امتلاك عكا ضرورياً لكل فاتح يريد امتلاك القطر ، فحوصرت أكثر من سائر مدن الشام وكان اتصال أوربا بها أكثر من اتصالها بسواها .

كانت التجارة من أعظم العوامل في الحروب الصليبية ، وأكثر أمم أوربا انتفاعاً منها الإيطاليون أهل جنوة وطسقانة والبندقية وبيزا ، وهؤلاء كانت لهم قصور في الشام تدل على غنىً ، وسفن الطليان هي أهم الأساطيل التجارية في القرون الوسطى .

واعتاد الأوربيون بعد الحروب الصليبية حاصلات الشرق ، فلم يعد لهم طاقة على الاستغناء عنها ، وملك أزمة التجارة في البحر مع الطليان الكاتالانيون والبروفانسيون والقبرسيون والرودسيون ، وأصبحت جزيرة رودس بمثابة مالطة وجبل طارق اليوم ، وكانت قبرس تهدد شواطئ الشام ومنافذ النيل .

قال صالح بن يحيى : إن مراكب الإفرنج أخذت تتردد إلى بيروت بعد الحروب الصليبية بالمتاجر قليلاً قليلاً ، وكانت مراكب البنادقة تحضر إلى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم في شونتين كانتا له إلى بيروت نقلة بعد أخرى ، وكان للقبارسة جماعة من التجار يسكنون فيها أي في بيروت ، ولهم خانات وحمامات وكنائس ثم بطل ذلك .

وتكاثر حضور مراكب طوائف الإفرنج وكانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ في بيروت ، وهي تبلغ جملة مستكثرة ، وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف وشاد يوليهم نائب دمشق والمتوفر من المرتبات يحمل إلى دمشق . وذكر لامنس أنه في نحو سنة(١١٣٦ م)جاءت مراكب فرنسية عليها تجار إفرنسيون من مرسيليا ثم أخذت بعض مرافئ جنوبي فرنسا كمونبلية وارل تبعث سفنها ، وبذلت جنوة جهدها لتبقى لها الأفضلية في التجارة مع الشام ، وكانت عكا المرفأ الأعظم بين الموانئ وقاعدة التجارة ومركز القناصل العاملين ، ثم مرافئ صور وطرابلس والسويدية التي كانت تسمى ميناء مارسمعان ثم بيروت . ومنذ القرن الخامس عشر تقدمت بيروت سائر موانئ الشام ، وكان تجار الإفرنج يستبضعون من ديارنا الحرير والقطن بكميات وافرة والكتان والخام والأنسجةالكتانية والحريرية، وكانت صور لا تزال تتجر بالأرجوان واشتهرت بآنيتها الصينية وزجاجها الفاخر ، ويُقبل الأوربيون على حرير أنطاكية وزجاجها ، ويبتاعون السكر بالكميات الكبرى من صور وطرابلس وغيرهما من مدن الساحل ، إلى غير ذلك من ضروب الثمار والعقاقير والحشائش الطيبة والأفاويه العطرية ، وكان البنادقة يجلبون من حلب مقادير عظيمة من القطن والشب والبهار ، وخيرات الهند والعجم تتدفق إليها . ومبدأ اشتداد صلات الشام مع الغرب منذ الحروب الصليبية . وقد أخذ تجار الإفرنج أنفسهم بفضل صلاح الدين ثم أخلافه من بعده يغدون ويروحون في هذا القطر ،والحرب ناشبة بين الفريقين لا يمس أحدهم بأذىً ، ولا يعتدى على حقوقه ، حتى اضطر الصليبيون أن يعاملوا تجار العرب على هذه الصورة في الأرض التي بقيت في أيديهم إلى آخر مدة الحرب مثل صور وعكا وأنطاكية لا ينال التجار منهم كبير

أذى ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في أرضهم ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في أرض المسلمين على سلعهم. وقد تعقد المعاهدات مع ملوك الإفرنج وتذكر فيها أنواع المتاجر التي يحملونها إلى مواني هذا القطر ومنها الخشب والحديد .

ولم تكن جمهوريات إيطاليا في حرب الصليبيين دولاً بحرية من الطراز الأول بل كانت منظمة بأحسن النظم الجمهورية ، ومع هذا فكثيراً ما كانت تشب الحرب بينها حتى تستأثر إحداها بالتجارة في الشام ، فكان الجنويون أعداء البنادقة ، وكذلك كان الكتلانيون ، واضطر البروفانسيون أن يدخلوا تجارتهم إلى هذه الديار بواسطتهم ، وهم يريدون أن يستأثروا بنقل زوار بيت المقدس وأن تمر تجار ما وراء جبال الألب من مثل جوخ الفلاندر في مواني إيطاليا ، وتنقل على سفنهم وتستوفى عنها رسوماً خاصة . ولما احتل الجنويون الماغوسة في قبرس بدأ اللاتين بزيارة دمشق وبقية الشام ، وكانت حال التجارة في الدور الثالث من أدوار القرون الوسطى في دمشق على أحسن ما يكون ، فكان التجار الأوربيون إذا انتهوا إليها رأوا فيها عدة زملاء لهم من ممالك مختلفة مثل البندقية وجنوة وفلورنسة وبرشلونة وغيرها ، فيبيعون ويبتاعون ، وكان اجتماعهم في خان برقوق وقد أقام بعض البنادقة في حماة ومنها كانوا يبتاعون القطن . وكان للأوربيين قناصل في الشام منذ الزمن الأطول وأول قنصل كان للبنادقة في مدينة دمشق سنة (١٣٨٤ م) واسمه فرنسسكو داندللو وكانت دمشق مستقر القناصل ، إلا أن لامنس يقول : إن أول ما ورد اسم القنصل في جملة النزالة الجنوية التي كانت في عكا أواسط القرن الثاني عشر ودعوه أولاً بنائب القمص Vicomte, Vice - Comg ثم انتشرت هذه الرتبة في أماكن شتى في النصف الثاني من ذلك القرن وعرف أصحابها بالقناصل وأطلق أولاً على الإيطاليين ، وبعد زمن طويل صار للفرنسيس قنصل .

التجارة في القرون الحديثة :

كانت حلب في هذا الدور من أول المدن التي اتجرت مع الطليان ،

وقد أقام لهم البنادقة فيها منذ عهد المماليك قناصل من الدرجة الأولى وكان البنادقة يتاجرون من مليونين إلى ثلاثة ملايين دوكا مع حلب كل سنة ، وقد احتفظت الشهباء بمركزها التجاري المهم فكانت نقطة الاتصال بين الخليج الفارسي والبحر المتوسط . ثم انتشر فيها الفرنسيون ولكنهم اضطروا أن يغادروها للاضطرابات السياسية إلى أنطاكية ، كما اضطر تجار الإفرنج في دمشق إلى مبارحتها إلى صيدا وبيروت وعكا . وفي سنة(١٥٠٧ م) عقدت الدولة العثمانية مع فرنسا معاهدة تجارية فكانت سفن فرنسا تأتي إلى مواني الشام ولا سيما طرابلس وصيدا وتأخذ منها حاصلات وتجلب إليها بضائع .

وكثُر عديد الإفرنج في حلب أكثر من دمشق ، لأنها أقرب منفذ لاتصال الشرق بالغرب ، فكان تجارهم يأتونها من ثغر السويدية يتجرون مع أهلها ويقايضون محصولاتهم بمحصولاتها ومحصولات الشرق ، ولا سيما الهند وفارس والعراق ، وكانت فرنسا والبندقية أول الممالك الأوربية التي اتجرت مع حلب وعقدت معها الصلات التجارية وأقامت المكاتب ، ثم جاء الإنكليز في القرن السادس عشر وتلاهم الهولانديون ، وقد تناسل بعض الإفرنج في حلب وارتاشوا وتأثلوا وعدوا كأنهم من أهلها ، وكان البنادقة يتجرون بالبهار يأخذونه من حلب بمقادير وافرة كما كانوا يجلبون منها الشب والقطن .

وكان في حلب وكلاء لتجار الهند وبلاد الكرج والفرس والأرمن وغيرهم، وللبنادقة بين أُمم البحر المتوسط موقع ممتاز ، ولئن أفقد حلب فتحُ الطريق البحري إلى الهند الشرقية بعضَ مكانتها التجارية ، فقد كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر زاهرة بتجارتها . وكان في حلب سنة(١٧٧٥) ثمانون وكالة تجارية لبيوت تجارية أوربية ، وأكثر اعتماد الأوربيين على سماسرة من اليهود يتجرون بالصادر والوارد ، وكثر تجار الإنكليز فيها منذ عهد ملكهم جاك الأول (١٦١٣–١٦٢٥) .

ونما عدد تجار الأوربيين في عكا وصيدا وبيروت ولا سيما في هذا الثغر ، فأصبح على ما روى لامنس في القرن الخامس عشر ولا سيما بعد عهد تيمورلنك ملتقى شعوب البحر المتوسط . وكنت تشاهد في بيروت مزيجاً يصعب وصفه

من العمائم والطرابيش والكوفيات الحرير وأكسية وبرانس وقفاطين . وفي القرن الثامن عشر اقترح تجار الفرنج أن تعمر ميناء اللاذقية مبينين للحكومة حسن مستقبلها ، فلم يقبل المتصرف هذا الاقتراح وقال: ربما أكون غداً في جدة فلماذا أتخلى عن الموجود وأتطلب مستقبلاً مجهولاً .

وممن كان لهم اليد الطولى في تنشيط التجارة في هذه الديار فخر الدين المعني الثاني في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة . وكثيراً ما كانت مراكب الإفرنج تأتي لمشترى الحنطة إلى مواني عكا وصور والرملة وطنطورة وربما بلغت السفن الصغيرة (البرش) الراسية في عكا نحو ١٥٠ . ولقد توسع فخر الدين في الامتيازات الأجنبية فسمح للفرنسيين أن يبنوا خاناً عظيماً في صيدا ، ولأهل فلورنسة أن يفتحوا قنصلية ، فأصبحت صيدا وميناؤها أوائل القرن السابع عشر أهمّ مواني الشام .

وفي عصر فخر الدين كان يحمل من دمشق إلى الديار المصرية عشرة قافات كما قال صاحب محاسن الشام : وهي قصب الذهب . قبع . قرضية . قرطاس . قوس . قبقاب . قراصيا . قمر الدين . قريشة . قنبريس . ونقل الغزي عن معجم التجارة العام المطبوع سنة ١٧٢٣ (١١٣٦) أن حلب لا تضاهيها بلد بتجارها الذين يقصدونها من أقطار الدنيا ، فإن خاناتها التي لا تقل عن أربعين خاناً لا تزال غاصة بالهنود والفرس والترك والفرنج وغيرهم بحيث لا تقوم بكفايتهم . قال: ومن خصائصها التجارية وجود الحمام الذي يأتي تجارها بالأخبار من إسكندرونة بثلاث ساعات بسبب تربيته بحلب وحمله إلى إسكندرونة بأقفاص ، فإذا طرأ خبر علقت البطاقة في رقبة الطير وسرح ، فيصير إلى حلب طالباً لفراخه .

وفي كتاب «الشام على عهد محمد علي» : ما زالت حلب ودمشق المركزين العظيمين للتجارة في الشام ، وما برحت حيفا وبيروت وطرابلس وأنطاكية وإسكندرونة هي المواني التي يكثر اختلاف السفن الأوربية إليها ، وهي المحطات الرئيسة لتجارة الشرق ، فتأتي قوافل بغداد إلى دمشق وحلب حاملة من العجم التنباك والسجاد ، ومن غيرها اللؤلؤ والأحجار الكريمة ، ومن الهند الطيب والعقاقير والأفاويه ، وفي عودتها تحمل جوخاً وثياباً من

عمل أوربة ، وألبسة حريرية من صنع دمشق وحلب ، وبضائع منوعة ومصنوعات خشبية وصدفية ونحاسية ، وبسوء السياسة المخالفة لما هو جار في أوربا ، إذ كان ينشط التجار الغرباء دون التجار الوطنيين ، أصبحت معظم التجارة العربية في الشام تجري تحت اسم أوربي . وقبل أن يفتح إبراهيم باشا الشام كان التجار الوطنيون يدفعون إلى الإفرنج ثلاثة ونصفاً أو أربعة في المئة ليتأتى لهم أن يتجروا بأسمائهم ، لأن الإفرنج لا يدفعون على الأكثر زيادة على أربعة في المئةمن كل ما يطلب من المكوس والضرائب ، على حين كانت العرب خاضعة لاداء ١٨ أو ٢٠ وربما٢١ في المئة . وقال : إن عمال إبراهيم باشا كانوا يتجرون ويحتكرون أصنافاً من التجارة .

ولما قلّ الأمن في البحر على عهد نابليون وبسوء الإدارة العثمانية وبثورات الإنكشارية سنة(١٨١٤ و ١٨٢٦) وبزلزال سنة(١٨٢٢ و ٢٧ و ٣٢) ووباء سنة(١٨٣٢) وطاعون سنة (١٨٣٧) خربت تجارة حلب ودمشق ، وكثرت البضائع الإنكليزية التي كانت تباع بأثمان بخسة تجيء من طريق ليفورنا في إيطاليا . وكانت الحاصلات الخام التي تعود إلى الشام معمولةً ، سبب خراب هذا القطر ، مثل حرائر ليون التي أخذت تسحق حرائر دمشق وحلب ، وبمنافسة حرائر ليون التي تقلد حرائر دمشق أحسن تقليد وتباع بأثمان بخسة ، قضي على صنائع دمشق بعد أن كانت تعمل أكثر من ٤٠٠ ألف قطعة من الحرير والثياب الحريرية الممزوجة بالقطن . وكانت تجارة الحاصلات التي تبتاع بالسلف والسلم ، خراب الفلاح الشامي البائس ، وكان كثير من تجار الأوربيين يستحسنون هذا النوع من التجارة ، ومنهم من كان يمقتها وقد يربح المتجر بها خمسة وعشرين في المئة ، ويعدها صاحب الذمة غبناً ، وكان يصل إلى بيروت كل سنة ١٣٤٠ سفينة تحمل ٧٨٤٨ طناً ويخرج ٨٠٥ سفن تحمل ٥٠٠٥ يخرج منها القطن والحرير والتبغ والإسفنج والفوّة والزيت والصابون بمقدار وافر والسمسم والكمون والعفص . وتجارة الواردات تبلغ ٤٤,٣٦٦,٦٧٠ قرشاً منها نحو ١٥ مليوناً من مصر وتجارة الصادرات ٢٦,٨٧٤,٢٧٠ منها نحو ١٣ مليوناً لمصر ، فكانت الشام تخسر مسانهة نحو ١٨ مليون قرش تسدها سبائك ذهب أو نقوداً ، وهذا على عهد الحكومة

المصرية . وبعض هذه الصادرات قد بطل إصداره اليوم من الشام .

ولقد تضررت حلب ودمشق بفتح البرتقاليين طريق رأس الرجاء الصالح في جنوبي إفريقية سنة (١٤٩٧ م) ، وكان أول من اكتشفه من البيض الفينيقيون نحو القرن السابع قبل المسيح ، وتأذت تجارة حلب ودمشق بفتح الفرنسيين ترعة السويس سنة (١٨٦٨) ، وكان من نكبة الشام بفتح هذه الترعة أن انتقل كثير من تجار دمشق وحلب إلى بيروت والإسكندرية والقاهرة وطنطا وإزمير وسلانيك والإستانة ومانشستر ومارسيليا وميلانو وغيرها من المدن الأوربية والإفريقية والآسياوية ، وقد تحولت تجارة الصين والهند إلى البحر ، وبطل عمل القوافل التي كانت تغدو وتروح بين الشرق الأدنى والأقصى ، وقل عدد الذين يمرون بدمشق من الروم وغربي آسيا للذهاب إلى الحجاز ، وأصبح معظمهم يركب البحر إلى البقاع الطاهرة تخفيفاً من عناء الأسفار في القفار وانحصرت التجارة الداخلية في حدود ضيقة ، وأصبحت لا تتعدى حد المستهلكات ، وصار لها مواسم قلما تروج في غيرها ، ولما انتظم سير السفن البخارية ، وكثر اختلافها إلى مواني الشام ، وكانت رحلاتها من قبل متقطعة مختلفة المواعيد ، تجرأ الناس على الاتجار وتضاعفت الصلات التجارية بين الشام والأصقاع الإفرنجية .

يقول بعض الكتاب: إن التجارة البحرية لم تنقطع في البحر الرومي في القرن الأول للإسلام إلا بما كان يبدو من حركة الأسطول اليوناني، ولكن تجارة الشام أصيبت بالتأخر مع أوربا لما أصبح للشام منافس كالبصرة التي كانت لقربها من الهند أكثر منافسة للشام .

وظهرت ظاهرة مهمة في الشام منذ نحو ثمانين سنة أثرت فيه تأثيراً كبيراً وذلك أن جماعةً من تجار بيت لحم في فلسطين حملوا مصنوعاتهم الخشبية والصدفية إلى معرض فلادلفيا سنة (١٨٧٦م) فربحوا كثيراً ولما عادوا كثر المقتفون لآثارهم من التجار وغيرهم من أهل الشام وبدأ الناس بالهجرة طلباً للربح ، وكانت الهجرة مقصورة أولاً على سكان الجبال من لبنان وعامل واللكام ثم تعدت إلى سكان السهول ، وكان المستأثر بها سكان القرى فتعدت إلى سكان المدن ، وكان التجار على الأغلب مسيحيين فأصبحوا بعدُ من

جميع أهل الأديان من الشاميين ، ولم يلبث نطاق الهجرة أن توسع ، وما نراه في اللبنانين الشرقي والغربي ، وما إليهما من الجبال من الدور والقصور عمر أكثره بدراهم أميركا ، ويقدّر اليوم المهاجرون إلى أميركا الشمالية والجنوبية واوستراليا وغيرها من البلاد التي ترحب بالأيدي العاملة بزهاء سبعمائة ألف مهاجر شامي .

وقد ساعد على دوام الهجرة اختلال المجاري الاقتصادية في السلطنة العثمانية ، ثم استرسال الحكومات العثمانية ثم المتدبة في إهمال الحركة الاقتصادية وإلقاء الحبل على الغارب . وقد كان عمال العثمانيين يودون لو هاجر جميع المسيحيين من الشام ، لينجوا من دعوى أوربا في حماية الأقلية ولكن بهجرتهم ضعفت التجارة ، وكيف تنجح التجارة في أمة والحكام هم التجار ، وقد رأينا من ذلك أمثلة خلال الحرب العامة ، فكان عمال الأتراك لا فرق بين الكبير والصغير منهم يحتكرون معظم الحاجيات دع الكماليات ، فكنت تراهم كلهم تجاراً يؤخرون الأرزاق عن الجند في ساحة الحرب ويقطعون مواد الحياة عن الرعية ، حتى يشحنوا بضائعهم ويغنموا فرصة ارتفاع أسعارها ، فاغتنى بذلك كثير من عمالهم ثم افتقروا بعد حين .

على أن بعض البلدان استفادت كثيراً من الحرب العامة ومعظم المدن التي استفادت حلب ودمشق وبيروت والقدس . قال الغزي : إن التجارة في حلب آخذة بالتقدم منذ ثلاثين سنة ولذا كثر عدد التجار زيادة عظيمة بحيث بلغ ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه قبل هذه المدة ، وكان معظم هذه الزيادة في أيام الحرب العالمية فإن أرباح التجارة التي كانت في غضونها جرّت العدد الكبير من ذوي الصنائع اليدوية من صنائعهم إلى الاسترزاق بالتجارة فنجحوا وربحوا أرباحاً طائلة ، ونشأ من بينهم أصحاب ثروة تستحق الذكر. إلى أن قال : وفي سنة(١٣٤١) بدأ دولاب التجارة يدور ببطء فأخذت الثروة العامة في حلب بالانحطاط لإغلاق الأناضول أبوابه في وجه تجارة البضائع المعدودة من الكماليات وغلاء أجور النقل في السكة الحديدية وتلاعب الصيارفة والمحتكرين بالأوراق النقدية والنقود الذهبية إلى غير ذلك من الأسباب .

ومن أعظم الفوائد التي نتجت للشاميين من تعلم اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنكليزية ، أن كان من هؤلاء المتعلمين وأكثرهم من غير المسلمين عمال لتجارة الواردات من الغرب . واستأثر المسلمون بتجارة الصادرات فكان منهم تجار شاميون في الإسكندرية وطنطا والقاهرةوالسودان والإستانة وإزمير ، وكل بلد في الأرض مهما بعدت الشقة إليه ترى فيه تجاراً شاميين ، وأنجح تجارهم في مصر والأميركتين وأوستراليا . ولنا تجار في العراق والحجاز وفارس والهند ويابان وجنوبي إفريقية وأواسطها على نحو ما وصفنا شاعر النيل حافظ إبراهيم :

ورجال الشام في كرة الأرض يبارون في المسير الغماما
ركبوا البحر جاوزوا القطب فاتوا موقع النيرين خاضوا الظلاما
يمتطون الخطوب في طلب العيـ ـش ويبرون للنضال سهاما

ومن أهم المواسم التي كانت في فصل مخصوص من السنة تدب فيه روح الحركة في التجارة موسم السياح ، فكان سياح الغرب يأتون أوائل الربيع لزيارة الأماكن المقدسة والمصانع التاريخية في فلسطين وبعلبك وتدمر ودمشق وغيرها ويقدرون بخمسة آلاف سائح كل سنة على الأكثر إلى المدن الوسطى والشمالية وبأكثر من ذلك إلى فلسطين فقط ، والموسم الآخر موسم حجاج إفريقية وآسيا وأوربا وكانوا يقدرون بخمسين ألف حاج ، والفضل في ذلك يرجع لسهولة المواصلات البرية فيالسكة الحجازية،ولرخص أجور البواخر في البحر . وموسم الحج بطل بالحرب فنزل معدل من يزورون الشام ويتجرون ويبتاعون . أما موسم فلسطين فإن كثيراً من تجارها أصبح رزقهم موقوفاً على ما يربحونه في موسم الزوار في القدس وبيت لحم والخليل والناصرة وغيرها ، وبدأ الشرق العربي يربح كثيراً من السياح الذين يختلفون إلى ذاك الصقع لزيارة جرش وعمان والبتراء وقصر المشتى وغيرها ، كما تربح سورية ولبنان من القاصدين إلى زيارة بعلبك وتدمر وغيرهما، وصار لموسم الاصطياف في لبنان الغربي والشرقي مكانة اقتصادية ذات شأن كبير في تنشيط الصناعة والتجارة .ومتى انتشر الأمن في القطر ، وكثرت الخطوط الحديدية في البر ، والسفن التجارية في البحر ، وحمت الحكومة التجارة بقوانينها

وأحكامها العادلة ، ومعاهداتها مع الأمم المجاورة ، انتبه التجار إلى التجدد في متاجرهم. ولا نعد تاجراً من يحرق مخزنه أو ما فيه ليربح ضمانه من الشركة الضامنة ، أو يتلكأ في أداء الذمم التي عليه ، أو يضارب في الأسواق فيؤذي الفقير. أو يعامل صاحب المعمل في الغرب بقليل من الذمة فيتلاعب في الأسعار والصوافي ، فإن هذا مما يؤخر الصادر عنا والوارد علينا ، وفي كل ذلك ما يزيد الغبن ويورث الخسارة في العاجلة والآجلة لا محالة .

ولقد ثبت في العهد الأخير ، وخصوصاً لما أخذ المسلمون يجارون مواطنيهم المسيحيين في تعلم اللغات الغربية ، ويتقنون أصول التجارة على أساليب أمم الحضارة ، ويتعرفون إلى أوضاعهم الجديدة في استثمار أموالهم في مصارف خاصة بهم ، أن الغربيين يتعذر عليهم أن يتوسعوا بعدُ في الاتجار في القطر ، وفتح بيوت تجارية على المثال الذي كان لهم وحدهم في القرن الماضي ، وقطع أرزاق الشاميين في عقر دارهم . ذلك لأن التاجر الوطني أقل من التاجر الغربي في مطالبه ، يكتفي بالربح القليل ، ويصبر في الأزمات ، وهو في بلده يعرف ما يصلح له ويروج فيه ، ونفقاته إجمالاً أقل من نفقات الغريب . وإذا تساوى الوطني والدخيل من كل وجه ، فالوطني يؤثر معاملة مواطنه لا محالة .

وإذا جارى التاجر العربيّ التاجر الغربيّ أو كاد ، تجلت في ابن الشام أخلاق التجارة ، والنفوذ في قاعدة العرض والطلب ، وبدا في هذا الميدان ذاك الشرف المغيب الذي كان كامناً في نفسه ، وورثه مع الدم المتسلسل فيه من آبائه الأقدمين ، عرباً كانوا أو روماً أو فينيقيين ، وبذلك أصبح الرجاء معقوداً بأن يستأثر الشاميون بتجارة ديارهم . فإن تعلموا باختلاطهم بالأمم الحية ما ينقصهم من ضبط ونظام ، وساعدهم على ذلك قلة من يأتي من الغرب من أرباب الطبقات الأولى في التجارة ، وكان التاجر المتوسط الحال بماله ومعرفته منهم أقل حظاً ممن يماثله من الشاميين في أسواق المتاجرات ، وإذ كان من البعيد على النوابغ من كل صنف في الغرب أن يَغْشوا بلادنا — كان في ذلك كله النفع العظيم لنا في تجارتنا ، ومتى حللنا روح الشامي وما انطوى عليه من مراعاة الشرف والاحتفاظ بالثقة ، والبعد عن التدليس

والمؤالسة ، وإرادة النصح في الجملة ، كان التاجر كل التاجر ، الذاهب في الأرض بجماع المفاخر ، وباستقامة تاجرنا في معاملته ، يدفع عن وطنه كثيراً من الغوائل الاجتماعية ، ولا يهنأ العيش ويطيب ، إلا إذا قلّ توافد الغريب من الجنس الذي قال فيه حافظ :

يُقتّلنا بلا قَوَدٍ ولا دِيةٍ ولا رَهَب
ويمشي نحو رايته فتحميه من العطب

التجارة والاقتصاديات في العهد الحديث[1] :

نشبت الحرب العامة سنة (١٩١٤) ولم تكن الشام على استعداد للدخول في غمارها ، ولم تأخذ الأهبة الكافية لمقاومة طوارئها ، وما لبثت الدولة العثمانية والبلاد الشامية التابعة لها أن دخلت في صفوف المحاربين إلى جانب الدولة الألمانية وحلفائها ، فحصرت موانئ الشام ، وبدأت أسعار البضائع ترتفع تدريجياً ، وذلك في أصناف الملبوسات كأنواع منسوجات القطن والصوف على اختلاف أنواعها ، أو في المأكولات كأنواع السكر والقهوة والأرز ، أو في سائر الحاجيات والكماليات كالبترول (الكاز) والكحول (السبيرتو) وأنواع المواد القرطاسية والزجاجية والأصباغ والمواد الكيمياوية على اختلاف أنواعها ، وشعر الناس بالحاجة إلى الاقتصاد والتفكر في استجلاب هذه الأصناف من البلاد المجاورة بقدر الإمكان .

وقد اشتدت الأزمة الاقتصادية بفقدان الأيدي العاملة أيضاً من المدن والقرى ، بسبب النفير العام والتجنيد في جميع أصقاع الشام ، وكان من تخلصوا من التجنيد الإجباري هم الذين لم يتدربوا على التعليم العسكري فدفعوا بدلات نقدية مرات خلال أعوام الحرب . وكانت هذه البدلات تكلف مبالغ طائلة في السنين الأخيرة ، وأعلنت الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب (قانون تأجيل الديون) بقواعد مخصوصة أقرتها .

ولم يلبث الضيق أن عمّ والنقد أن قلّ وخصوصاً بعد أن وضعت السلطة العسكرية يدها على جميع وسائط النقل في البلاد مثل السكك الحديدية ودواب

(١) كتب هذا الفصل السيد لطفي الحفار .

النقل والمركبات والسيارات ، فكانت أسعار الحاجيات تختلف اختلافاً بيناً في بلاد الشام القريب بعضها من الآخر ، وذلك بالنسبة للتشدد أو التساهل الذي كانت تبديه الإدارة العسكرية في استخدام أسباب نقل البضائع . انقضت السنة الأولى للحرب فأصبحت دمشق مركزاً للجيش الرابع الزاحف على ترعة السويس . وأنشأ يعقد البيوع العظيمة والالتزامات الكبيرة سد لحاجات الجيش المذكور ، فبدأت هذه الأزمة الشديدة بالانفراج ، وأخذت إدارة الجيش تتساهل باستخدام المجندين في إدارات المتعهدين والملتزمين ، ونشطت الحركة التجارية والصناعية في الشام . ولا ينكر أن الجيش الرابع صرف مبالغ طائلة في أسواق التجارة لضمان حاجاته الكثيرة التي لم يتمكن من تأمينها بطرق الإكراه أو بواسطة الضرائب الحربية التي رأى أنها عقيمة لا تفي بالحاجة ، وبعدئذ فكر بعض التجار باستجلاب بعض الحاجات الضرورية التي غلت أسعارها وعزّ وجودها من بلاد نجد التي كانت تستورد بضائعها من الهند وفارس على أيسر وجه وطمأنينة ، لأن أمير نجد عبد العزيز ابن سعود كان موالياً لإنكلترا لا يجد ضيقاً ولا رهقاً في استجلاب البضائع ومواد الغذاء على اختلاف أنواعها .

ولقد كانت هذه الطريقة من أهم الوسائط لسد حاجات البلاد والجيش ، ولإيجاد حركة تجارية جيدة كانت تدرّ ذهباً وهاجاً على المتاجرين والمستوردين ، كما أن كثيراً من التجار اتخذوا وسائط عديدة لاستجلاب بعض البضائع الألمانية والنمسوية بواسطة رجال الجيش واستخدام وسائطهم لنقل هذه البضائع بالاتفاق معهم ، وبتبادل المنفعة بينهم ، وبذلك انفرجت الأزمة الاقتصادية التي بدأت في السنتين الأوليين من الحرب ، واغتنى كثير من التجار والعاملين والوسطاء من رجال الإدارة والجندية باستخدام هذه الوسائط في النقل ونقل أصناف التجارة ، والبلاد محصورة لم يرد إليها شيء قط من طرقها البحرية العديدة . وكثرت النقود الذهبية في التعامل بما أنفق من إدارات الجيش ، وما ورد البلاد من طرق البر من البضائع ، وما كانت بريطانيا العظمى تنفقه في أنحاء البلاد المجاورة عن سعة من الذهب الوهاج لتأييد الثورة العربية ، حتى أصبحت البلاد في أواخر سني الحرب على أحسن حالات اليسر والرخاء .

فارتفعت أسعار العقارات والمزارع ، وشعر الناس بكثرة النقد الذهب في أيديهم حتى كان المشتري لا يجد من يبيع عقاراً أو أرضاً إلا بثمن فاحش ، إلى أن دخلت الجيوش الإنكليزية والعربية هذا القطر تحمل معها الذهب وتنفقه بلا حساب ، ويقدر ما أنفقه الجيش الإنكليزي في سنة (١٩١٩) والأشهر الأولى من سنة (١٩٢٠) في أرض الشام بما يقارب الثلاثة ملايين من الجنيهات المصرية .

الورق النقدي والعوامل في تدني الاقتصاديات :

وحدث خلال الحرب أن اتجر كثير من الماليين بأوراق النقد الدولي على اختلاف أنواعه ، وأصبح بعضهم يستورده من طريق ألمانيا والنمسا وسويسرا إلى الإستانة ، ومنها توزع في أنحاء بلاد العرب مثل الكورون النمساوي والمارك الألماني والشلن الإنكليزي والفرنك الفرنساوي والروبل الروسي وأوراق النقد التركية والأسهم اليابانية والعقارية المصرية والأرجنتينية على اختلاف أنواعها ، وأصبحت تباع بقيم تنحط أحياناً عن قيمتها الحقيقية ٢٥ إلى ٥٠ في المئة . وتدنى سعر الروبل الروسي إلى ١٠ و ١٥ في المئة وكذلك المارك والكرون ، فأقبل عدد كبير من التجار وأرباب الأملاك حتى والنساء على مقتناها وذلك على أمل أن تعود إلى أسعارها الأولى بعد أن تضع الحرب العامة أوزارها . ويُقدر الخبيرون أن الشام أدت قيمة ما ادخرته من أوراق النقد هذه ما يربو على خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهباً ، كان القوم يأمل بيعها بما يقارب أسعارها الأولى ، وبذلك يربحون ربحاً عظيماً من أيسر طريق .

ثم أعلنت الهدنة عام(١٩١٨) وبدأ تجار الشام يستوردون البضائع المنوعة التي اشتدت حاجتها إليها من البلاد المصرية أولاً ثم عقدوا المبيعات المختلفة من أوربا بأسعار عالية ، وقد اضطر أرباب المصانع والمعامل إلى رفع أسعار بضائعهم لعوامل عديدة ، ومنها قلة الأيدي العاملة بعد الحرب العامة ، وغلاء المواد الأولية للصناعات المنوعة ، وارتفاع أسعار الفحم وأجور المواصلات ، وراح الكثيرون بالنظر للحاجة الماسة إلى عقد مبيعات عظيمة من أنواع البضائع المنسوجة والمغزولة على كثرة أنواعها ، ومن الأصناف

الأخرى كمواد الزجاج والقرطاس والكيمياء وغيرها فأدت الشام أثماناً باهظة وقيماً فاحشةً جداً في ابتياع البضائع المستوردة في سنتي (١٩١٩ و ١٩٢٠) حتى غصت المخازن والمستودعات بهذه الأصناف وضاقت بها الأسواق ، وكان لهذا الاندفاع الكلي الذي لا نسبة بينه وبين حاجة البلاد بسبب الأرباح التي كانت تدرّ أولاً ، فعل عنيف وصدمة قوية أُصيبت بها الأسواق فكانت من بوادر الضيق وحدوث الأزمات الاقتصادية للأسباب الآتية :

أولاً : إن الشام ولا سيما دمشق كانت تكتنز كميات عظيمة من ورق النقد المختلف الضروب فطرأ عليها النزول العظيم وأصبح قسم منها في حكم المعدوم مثل الروبل الروسي والكرون النمسوي والمارك الألماني وغيرها ، وكانت خسارة بلاد الشام بها عظيمة ولم تعوض منها شيئاً .

ثانياً : نزول أسعار البضائع المتوالي منذ عام ١٩٢٠ إلى ١٩٢٢ وورود كميات كبيرة من البضائع المتنوعة التي ما زالت مخزونة على التوالي عند أصحابها فطرأ النزول التدريجي عليها ، وذهب بقسم كبير من ثروة كبار الأغنياء والتجار .

ثالثاً : حدث بعد أن دخلت الجيوش الفرنسية إلى المنطقة الداخلية في أواخر عام(١٩٢١) أن وضعت الحواجز الجمركية بين جنوب البلاد وشمالها وشرقها ، وكانت من قبل وخصوصاً دمشق مركزاً عظيماً لتصدير البضائع والمصنوعات الوطنية إلى الحجاز وفلسطين وشرقي الأردن والعراق والأناضول فأصبحت بمعزل عن هذه البلاد المجاورة ، بالنظر للتبدل السياسي الذي حدث بعد الحرب العامة ، وصارت مصنوعات الشام التي كانت تصدر إلى هذه الأقطار حرة لا مراقبة عليها ولا قيد من القيود الثقيلة والحواجز الجمركية فكاد يقضي على هذه الصناعات وعلى تجارها وعمالها .

الحواجز الجمركية :

عقدت المفوضية الفرنسية العليا في الشام اتفاقاً مع المفوضية الإنكليزية العليا في فلسطين يوم ٢٢ أيلول سنة (١٩٢١م) لتأسيس جباية الجمارك على

البضائع التي تتبادل هاتان المنطقتان التجارة بها ، وإحداث دوائر مكس على الحدود وداخل البلاد لما تقتضيه هذه الجباية ، وعلى أثر ذلك اجتمع عدد كبير من تجار دمشق وتفاوضوا قضية هذه الحواجز وأضرارها على التجارة والصناعة ، وقر رأيهم على انتخاب لجنة من كبار تجار البلاد مؤلفة من عشرة أشخاص للعمل في هذه القضية ، فبدأت اللجنة عملها بأن قدمت تقريراً مطولاً للمراجع الرسمية بينت فيه مقدار الأضرار التي تنتاب الشام من وضع هذه الحواجز الجمركية بين جنوبها وشرقها وشمالها خصوصاً الصناعات الوطنية المنوعة وضمنته إحصاءً دقيقاً في أنواع هذه الصناعات ومقدار النفوس والأموال والقيم المقدرة للأنواع المصدرة خلاصته أن في مدينتي دمشق وحمص نحو ١٠،٢٦٠ نولاً يشتغل بها ٤٦،٢٦٠ عاملاً ، وهذه الأنواع تخرج مقدار ٤،٥٦٨،٥٠٠ قطعة قماش قيمتها ثلاثة ملايين ليرة عثمانية ذهباً ، وذلك للأصناف الآتية فقط : الألاجه الحريرية والقطنية التركية ، الديما ، الحامدية ، الملاءات الحريرية والقطنية ، العباءات ، الستور على اختلاف أنواعها ، السلوكات الأغباني ، الشال الحريري والصوفي ، والكمر والمضربات ، وفي مدينتي حماة وحلب مثل هذا المقدار من الأنوال والعمال لمختلف الصناعات الوطنية التي هي برسم التصدير إلى الجهات المجاورة. وتابعت بياناتها في الأضرار التي تعود على البلاد وقدمت احتجاجاً مطولاً بينت فيه الأضرار السياسية والإدارية والاقتصادية التي تنتج من وضع هذه الحواجز الجمركية وخلاصته .

أولاً : إنه ليس من مصلحة سورية وفلسطين إلغاء الاتحاد الاقتصادي وفصل إحداهما عن الأخرى هذا الفصل المضر لأنه يقلل العلائق التجارية ومبادلات الأعمال بين المنطقتين ،وهذا يُفضي بالتدريج إلى انقسام هذه الأمة الواحدة إلى أمتين ويؤدي إلى تباعد المشارب وتباين الأطوار وانحلال الروابط بينهما تدريجاً إلى أن يصبح البون عظيماً وتضعف عرى الألفة والاتحاد المستقرة الآن ، والصلات التجارية والمعاملات المدنية هي العروة الوثقى التي تربط بين الشعوب وتقارب بين القلوب ، والحواجز الجمركية هي الضربة القاضية على هذه المعاملات والصلات ، ولما كان السوريون لا يختلفون في شيء

عن الفلسطينيين كما أن الفلسطينيين يحسبون أنفسهم قسماً من الشعب السوري العربي فجميعهم لا يرضون بوجه من الوجوه أن تفتح بينهم هذه الهوة العميقة التي تقوض أركان وحدتهم القومية ,العنصرية ، وتقضي على آمالهم الوطنية ويرجون من الدولتين المحتلتين أن لا تعاونا الدهر على تفريقهم والإيقاع بينهم .

ثانياً : سلطت السياسة على إخواننا في الجنوب مناظراً شديداً وخصماً للوداً ، ونعني بهم الصهيونيين الذين لا يفتأون يدسون الدسائس لإضعاف الوطنيين وإذلالهم ليتمكنوا من الاستعلاء عليهم واستلاب أموالهم والأخذ بمخنق أوطانهم . وأي وسيلة أنجع لهؤلاء الصهيونيين من تفريق أهالي فلسطين عن إخوانهم في سورية وقطع العلائق بينهم تدريجاً !.

ثالثاً : ما زالت جمارك البر الموضوعة في داخلية البلاد عرضةً لصعوبات عظمى في ضبطها وجبايتها حتى عند أرقى الدول وأقدرها ، والقيام بهذا العمل بين سورية وفلسطين شاق جداً لا يستطاع إتقانه ولا تُرجى سلامته ، ولذلك أسباب كثيرة لا تسهل إزالتها ، منها أن الوسائط النقلية بالقطر الحديدية بين المنطقتين محدودة جداً ،والطرق الأخرى مفتحة على طول الحدود تجتازها الجمال والبغال وسائر حيوانات النقل في الليل والنهار ، ولا سبيل لمنع التهريب منها ، وقد يكون المهرب من التجارات أكثر مما يمر بإدارة الجمرك فتكون النتيجة أن الذي يتمكن من تهريب بضائعه بدون جمرك يزاحم التاجر الأمين الذي يؤدي جمركها المفروض عليها ، ويتعذر بيع البضائع المدفوع رسومها فتضطر الحكومة إلى مراقبة جميع الطرق وإقامة الخفراء على الحدود ، وإنفاق الأموال الطائلة في هذا السبيل ، وينتج عن ذلك أشياء منها : القتال بين المحافظين والمهربين كما هي الحال في مسائل تهريب الدخان وإفساد أخلاق الناس بفتح السبيل أمامهم لمخالفة القانون وارتكاب جريمة التهريب التي تحملهم أحياناً على ارتكاب جرائم أخرى للفرار بأموالهم ، إفساد أخلاق المأمورين الذين يتولون أمر المحافظة بفتح سبيل جديد أمامهم لأخذ الرشوة ، والاشتراك مع المهربين كما هو المألوف المعروف في الأعمال التي هي من هذا القبيل .

العامل الاقتصادي :

ويقال على وجه الإجمال : إن الحاجز الجمركي بين القسم الشمالي والقسم الجنوبي من سورية يكون سبباً لبقاء عشرات الألوف من الخلق بلون عمل وتتعطل تجارة البلاد وصناعاتها ، لأن القسم الأعظم من الغزول والمنسوجات الأوربية التي ترد إلى دمشق وحمص وحماة وحلب ينسج ويفصل ويخاط ويصبغ ويحوّل إلى سلع تجارية من ألبسة وغيرها وأنسجة منوعة وتصدر إلى الجنوب ، فإذا وضع عليها ضريبة جديدة بمعدل أحد عشر بالمئة رسماً جمركياً يتعذر تصريفها ويضطر المشتغلون بها إلى ترك هذه الصناعة والتجارة وعددهم عظيم جداً وهذه الصناعات القديمة في سورية هي المورد الوحيد لرزق الكثيرين من السكان، كما أن هذا الضرر يلحق أيضاً سكان فلسطين بحرمانهم من إصدار معمولاتهم ومصنوعاتهم إلينا وكساد العمل عندهم وعندنا في آن واحد .

ويناقض هذا الاتفاق الجمركي نصوص الحقوق الدولية ولا يأتلف مع العادات المعمول بها ويضر بمصلحة الشاميين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويهدم عمران البلاد ، ويودي بالتجارة والصناعة الوطنية ، ويضعف العلائق التجارية مع أوربا ويرجع بالصناعة السورية القهقرى .

فألغي هذا الاتفاق وحل محله اتفاق آخر عقد بين المفوضيتين في سورية وفلسطين وجعلت فيه الصادرات والواردات بين هاتين المنطقتين حرة غير تابعة لتقاضي الرسوم الجمركية إلا ما كان من استيفاء واحد في المائة على قيمة البضائع الصادرة والواردة رسوماً للبلديات ، وعلى التجار أن يقدموا قوائم صحيحة بقيمة البضائع الصادرة والواردة ، وعلى أساسها يجري الحساب بين إدارة الجمارك في المنطقتين بنسبة ما يوجد في البضائع من المواد الأولية المؤدى عنها رسوم جمركية ، حين دخولها إلى ثغور الشام وهو ما يجعلونه على قاعدة الجمارك المشتركة، وعلى قاعدة الجمارك المشتركة عقد اتفاق مع الشرق العربي أي حكومة شرقي الأردن .

ولما كانت قد حصرت جباية الرسوم الجمركية بجميع الواردات الأجنبية إلى البلاد السورية في الثغور البحرية نشأ خلاف كبير بين حكومتي الاتحاد

السوري التي كانت مؤلفة من ولايتي حلب ودمشق والإسكندرونة وأنطاكية ومنطقة العلويين وبين لبنان الكبير ،ومع أن هذه البلاد تستهلك القسم الأعظم من الواردات الأجنبية ، كانت حصة الجمارك التي تدفعها الإدارة العامة إلى حكومة الاتحاد السوري لا تتجاوز ٣٢ في المئة وهي أقل بكثير مما كانت تدفعه إلى حكومة لبنان الكبير وذلك استناداً على طريقة الإحصاء التي كانت متخذة لمعرفة أنواع البضائع التي ترد إلى بلاد الاتحاد السوري . وبعد أخذ ورد أصدر المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان حكمه في أن تأخذ سورية اثنين وخمسين في المئة والباقي يخصص بلبنان الكبير ، كما أنه قرر فساد طريقة الإحصاء المتخذة قبلاً وإلغاءها .

الواردات والصادرات :

تستورد البلاد السورية البضائع المنوعة اللازمة لأسواقها من الخارج ، وأهم وارداتها أنسجة القطن والحرير على اختلاف أنواعها ، والأجواخ والأواني البلورية والأدوات القرطاسية والأدوات والآلات من الحديد والكاز ومواد البناء كالخشب والاسمنت المسلح والمواد الكيماوية وحاجيات الصيدليات وغير ذلك . وتصدر إلى الخارج ما يزيد عن حاجتها من حاصلات الزراعة وبعض المنسوجات من القطن والحرير المعروف بجودة صنعه وإتقانه وجماله في بلاد الشرق،وكذلك بعض المصنوعات من الخشب والنحاس الممتاز بدقة الصنع والسكاكر ومربيات الفواكه والحرير والصوف والجلود والتبغ والصابون وغير ذلك .

ويجري أكثر التصدير والتوريد في أسواق المدن الآتي ذكرها مرتبة حسب مكانتها وهي : بيروت ، طرابلس الشام ، الإسكندرونة ، اللاذقية ، صيدا من الثغور البحرية . وحلب ودمشق من المدن الداخلية ، ويجب أن لا يفهم أن ما يستهلك في هذه المدن يتبع التصدير والتوريد ، بل بالعكس فإن شأن الاستهلاك غالباً في الحواضر الداخلية وما يتبعها من القرى وكثرة السكان كما تقدم في بحث تعيين الحصة الجمركية بين سورية ولبنان . ولكن المعمول في حركة التوريد والتصدير على الثغور البحرية كما لا يخفى وهي واسطة النقل والشحن .

وقد تبين أن فرنسا وإنكلترا هما في الدرجة الأولى بالنسبة للصادرات إلى الشام ويأتي بعدهما كل من إيطاليا وبلجيكا والولايات المتحدة . وكذلك يظهر أن المقايضات في التجارة بين الشام ومصر في تقدم مستمر ، وأن حركة التصدير من سورية إلى البلاد المجاورة كفلسطين وشرقي الأردن حسنة جداً وعليها المعول في كثير من المصنوعات الوطنية بالنظر للرغبة فيها والحاجة إليها في تلك البلاد المجاورة ، وكذلك حركة النقل (الترانسيت) بين الشام والعراق والبلاد الإيرانية فإنها قد ارتفعت وتحسنت،وذلك بعد فتح طريق السيارات بين سورية والعراق .

وقد بلغ محصول الشام من الصوف في سنة (١٩٢٥) ٤٦٠٠ طن ، ومن مجموع هذا المحصول الذي كان ينقص ٢٠ في المئة عن محصول سنة (١٩٢٤) نتج ٢٣٠٠ طن من الصوف المغسول ، وكانت الولايات المتحدة هي التي تستورد صوف البلاد الشامية بالدرجة الأولى .

وبلغ الوارد من الحيوانات إلى هذه البلاد خلال سنة (١٩٢٤) عدد ٣٠١,٦٤٣ رأس حيوان والوارد في سنة (١٩٢٥) ١٨٤,٧٣٨ رأساً . وأما الصادر في سنة (١٩٢٤) فكان ٢٠١,٧٢٦ حيواناً وفي سنة (١٩٢٥) كان ٢٨٤,٣٨٩ حيواناً . وهذه الحيوانات تشمل أجناس الخيل والبغال والحمير والبقر والجمال والخنازير .

صناعة البلاد في سنة ١٩٢٥ :

ولاية حلب — إن التدابير التي اتخذتها الحكومة التركية بشأن تغيير لباس الرأس الوطني قد أثرت تأثيراً سيئاً في نشاط الصناعة الحلبية . فقد اشتغل في حلب ٢٤٠٠ نول في شهر كانون الأول يقابلها ٢٧٠٠ نول في شهر تشرين الثاني،وبلغ معدل ما يحصل منها ٧٥٠٠ ثوب قطني مغزول بطول ستة أمتار و ١٢٠٠ ثوب بطول خمسة أمتار و١٠,٧٥٠ سلكاً أغبانياً كوفيات ومناديل . ويصنع في ديرغطا وأبو الظهور الكتان الأهلي والقماش المستعمل لصنع الخيم (الوبر) . وقد بلغ محصول الصابون في حلب ١٢٦,٠٠٠ كيلو غرام ومحصول الزيت ١٨٢,٥٠٠ كيلو غرام والدباغات قد حضرت ٧٥٠٠

من جلود الخرفان و ١٩٠٠ جلد ماعز و ٢٠٥٠ جلد حملان و ٣٠ جلد ثور يكون مجموعها ١١,٤٨٠ وطحنت المطاحن في حلب ما يقدر بـ ٢٥٥٠ طناً من الطحين وأنواعه . وقد شوهد نقص محسوس في تحضير أدوات التعمير في هذه النسبة بالنظر للأزمة الاقتصادية التي بدأت فيه .

لواء الإسكندرونة — لا يزال النشاط الصناعي عظيماً في حلالات الحرير في السويدية وجبل موسى وفي معامل الصابون في أنطاكية وفي المطاحن .

حكومة العلويين — قد خطط إنشاء معملين لحلج القطن أحدهما في اللاذقية والثاني في جبلة كما أن المعاصر تعمل عملاً جيداً . وقد أخذت أنوال القطن الحامي في قرى اللاذقية وصهيون تعمل بجد ونشاط وكذلك مدابغ اللاذقية .

ويظهر للناظر الفرق الكبير بين الصادرات والواردات في البلاد الشامية فيحكم بأنها سائرة في طريق الإفلاس ، والحقيقة أن الفرق أقل مما يظهر لأول وهلة ، لأن للبلاد الشامية موارد أخرى غير صادراتها وإن كانت لا تسد هذا العجز ، ولولا هذه الموارد لوقعت البلاد في هوة الإفلاس منذ زمن طويل ، وهي تنحصر فيما يلي :

أولاً — الأموال المرسلة من المهاجرين الشاميين المنتشرين في أنحاء الأرض ولا سيما في البلاد الأميركية حيث أصبح الشاميون يملكون ثروة كبيرة فيعاونون أهلهم في الشام وتقدر هذه الأموال بمليون ليرة إنكليزية وبحسب إحصاء سنة (١٩٢٢) .

ثانياً — واردات الاصطياف والسياحة وهي تقدر بخمسة عشر مليو ناً من الفرنكات .

ثالثاً — فوائد الأموال والأسهم والقطع المالية الموجودة في أيدي السكان وهي تقدر بثلاثمائة وخمسين ألف ليرة إنكليزية . إلى غير ذلك من الموارد الأخرى الضئيلة .

ما يجب للنجاح في الاقتصاديات :

لنجاح تجارتنا ورقي صناعتنا لا بدّ لنا :

أولاً – تأليف الشركات الصناعية لتأسيسها على الأصول الميكانيكية الحديثة ، ومتى تم لنا الظفر للقيام بمثل هذه المعاهد نعتقد أننا بدأنا نقاوم تيار الصناعات الغربية لتحل محلها صناعتنا الجميلة ، الممتازة بقوتها ومتانتها ، خصوصاً وإن رخص اليد العاملة ورخص المواد الأولية كفيلان بنجاح كثير من صناعاتنا بالنظر لتوفر هذين الشرطين الأساسيين .

ثانياً – وضع الرسوم الجمركية على قاعدة حماية الصناعة الوطنية .

ثالثاً – العناية الفائقة بتحسين زراعتنا وعلى الأخص منها القطن والقنب والفاكهة والعناية بتصديرها إلى الخارج . وكذلك القول في زراعة التبغ . وعلى ذكر هذا الصنف العظيم لا بد من القول إن بقاء شركة حصر الدخان أضر بزراعة الدخان ضرراً بليغاً حال دون الاستفادة منه فائدة تعود بالخير والنماء ، إذا كانت حرة طليقة من قيود هذه الشركة واستبداد رجالها . ومن المحقق أن تنشيط زراعة الدخان على أنواعه وتشجيعه يقلل من هجرة المهاجرين وتخفيف قوة تيارها الجارف ويقتصد للبلاد مبالغ طائلة تدفعها ثمناً للدخان الأجنبي .

رابعاً – جعل عملة البلاد على قاعدة الذهب ، ذلك لأن وضع عملة البلاد الشامية على قاعدة (الفرنك) الفرنسي واستصدار الأوراق النقدية السورية على هذا الأساس قد أضر الأسواق التجارية ضرراً بليغاً ، وسبب لها خسائر كبيرة بسبب صعوده وهبوطه المتوالي .

خامساً – الإقلال من استعمال الكماليات وأدوات الزينة والترف وبذل الغيرة في استعمال المصنوعات الوطنية بقدر الإمكان لا سيما الحلويات والسكاكر الإفرنجية فإن مصنوعات البلاد من هذه الأنواع تفوقها جمالاً وإتقاناً ولذة ، وقد ارتقت هذه الصناعة في البلاد رقياً حسناً كان من أثره تصدير كميات كبيرة منها إلى البلاد الغربية أيضاً وخصوصاً أصناف مربيات الفاكهة على اختلاف أنواعها ، والاختصار على مصنوعات البلاد من هذه الأنواع يوفر مبالغ طائلة تقدر بمئات الألوف من الدنانير الذهبية .

سادساً – تخفيف الضرائب عن عاتق الأهلين فقد أصبحوا لا يطيقون

حملها بالنظر لكثرتها وتعددها وزيادتها بالإضافات التي طرأت عليها ، مع قلة أسباب الرزق وضعف موارد الاقتصاد .

تجارة فلسطين في الدور الجديد :

كانت تجارة فلسطين في العهد الأخير في صعود وهبوط وصادراتها أقل من وارداتها لكن التحسن مطرد في حالتها ويؤخذ من تقرير إدارة الجمارك والمكوس والتجارة أن مجموع واردات الجمارك والمكوس والموانى كان سنة (١٩٢٥) ١,١٠٩,٩٥٥ جنيهاً مصرياً يقابله ٦٥٦,٨٨٠ ج.م في سنة (١٩٢٤) وقد زاد الدخل من مكوس التبغ على ١٠٠ ألف جنيه . وأعفيت من الرسوم الجمركية الفحم والكاز الوسخ وزيت ديزل وسدلر والمازوت والبراميل والمواد الأولية التي تدخل في الصابون وكسر بزر الزيت والدباغة والنسج . وأعفيت أيضاً بضائع قيمتها ٥٩,٢٤٤ ج لما تقضي به حقوق المعاهدات الدولية. وبلغ مجموع قيمة الواردات ٧,٣٣٨,٤٩١ ج مقابل ٥,٢٦٦,٣٤٩ في سنة (١٩٢٤) ومجموع قيمة الصادرات من نواتج فلسطين ١,٢٩٧,٥٥٩ مقابل ١,٢٠٠,٨١٢ في السنة التي قبلها وكانت أهم الزيادة في الواردات الحبوب والدقيق ومواد البناء والبضائع القطنية والأدوات والسيارات وأنواع الكاز . وبلغ ما بيع من الملح ٤٧٩٤ طناً مقابل ٣٤٥٧ طناً في سنة (١٩٢٤) .

إن انتعاش التجارة من أزمة سنة (١٩٢٣) الذي ابتدأ منذ سنة (١٩٢٤) قد ظلّ مستمراً بتأثير النازحين الجدد وما جلبوه معهم من رؤوس الأموال التي أودعوها المصارف فسهلوا بذلك إعطاء السلفات وقد هبط معدل الفائدة إلى أدنى رقم منذ الاحتلال، ولكن المشتريات المبنية على المضاربة توقعاً لزيادة الطلب وعلى الخصوص فيما يتعلق بتجارة المباني واستثمار الأموال في أبنية واسعة النطاق مع مشترى الأرض أدت إلى قلة النقد فنتج عن ذلك قبض المصارف يدها عن التسليف . وقد زاد معدل المعيشة بنسبة ٤,٤ بالمائة عن سنة (١٩٢٤) وارتفعت أسعار الجملة ٧,٢ بالمائة .

وبلغت صادرات البرتقال ١,٨٦٨,٢٩١ صندوقاً مقابل ١,٨٨٠,٧٨٣ في سنة (١٩٢٤) وكانت الأسعار عالية وكان معدل المبيعات الأولى ١٢–١٥ شلناً

الصندوق . وكسدت تجارة الخمور الصادرة وقل الوارد منها ٧٨٥٠ ج م وصدر من الصابون ٥٨٥٥ طناً قيمتها ٢٤٧,٧٢٥ وأُدخل تحسين على صناعته فصار يعمل منه الصابون المطيب . وفي فلسطين سبعة معامل للتبغ واللفائف وسبعة معامل للتنباك وكان ناتجها من أول أيار ٢١٩,٨٠٠ كيلو غرام من اللفائف و ١٢,٠٠٠ من التبغ المفروم و ٤٠ في المائة من التبغ المصنوع في المعامل وهو من ناتج فلسطين والمساحة المزروعة تبغاً وتنباكاً في فلسطين هي ثلاثة آلاف آكر (الآكر ٥٢ آراً والآر مئة متر مربع) وما زال تهريب التبغ مستمراً على درجة واسعة .

وقسمت الواردات المستهلكة في فلسطين في سنة (١٩٢٥) أربعة أقسام منها ١,٩٨٧,١١٠ ج ثمن مأكولات ومشروبات وتبغ و ٦٢٧,٥١٨ مواد خام وبضائع أكثرها غير مصنوع و ٣,٩٦٧,٥١٨ بضائع مصنوعة كلها أو معظمها و ٧٥٦,٣٤٤ صادرات شتى. وأهم مصادر الواردات ونسبتها إلى المجموع بريطانيا العظمى ٣,٠٨٣,١٥٦ ج أي ١٤,٥ بالمائة وسورية ١,٠١٧,٩٠٣ أي ١٤,٥ في المائة وألمانيا ٩٣٠,٤٣٩ أي ١٢,٥ في المائة وأميركا ١٦٦,٩٩٩ أي ٩,٥ وبلدان بريطانية أخرى ٥٨٣,٥٥٠ أي ٧,٥ وفرنسا ٥٦٣,٦٨٩ أي ٧,٥ ومصر ٣٧٥,١٦٩ أي ٥,٥ .

وتقسم الصادرات إلى مأكولات ومشروبات وتبغ وقيمتها سنة(١٩٢٥) ٨٨٢,٢٣٤ ج ومواد خام وبضائع أكثرها غير مصنوع ٦٦,٨٠٨ بضائع مصنوعة كلها أو معظمها ٣٠٠,١٢٨ وأشياء أُخرى ٤٨,٣٣٩ وأهم موارد الصادرات مصر ويصدر إليها بما قيمته ٥٧٧,٢٧٧ ج أي ٤٤,٥ في المائة وبريطانيا العظمى ٤٤٣,٧٧٤ ج أي ٣٠ في المائة وسورية ١٥٨,١٠٢ أي ١٢,٥ وأميركا ٢٥,٦٠٠ وفرنسا ٢٢,٩٣٢ وألمانيا ٢٠,١٩٠ وإيطاليا ١١,٩٦٨ وأهم الزيادة في الصادرات التي كانت في البرتقال وصابون الغسيل فزادت صادرات الأول ٩١,١١٥ والثاني ٤٣,٨٣٤ ج .

ويعرف مركز البلاد الحقيقي ويقدر ما لها وعليها من ميزان تجارة البلاد لسنة(١٩٢٣) وهو ميزان صحيح في الجملة مأخوذ من قلم إحصائي دائرة التجارة ومن بعض ذوي الخبرة والاختصاص .

جنيه مصري	الواردات
	الواردات الظاهرة
١,٣٧٧,٢٠٧	قيمة الصادرات المعاد تصديرها .
	الواردات الخفية
١٥٠,٠٠٠	الصادرات إلى شرقي الأردن
١٦,٠٠٠	تجارة السياح
٢٥٠,٠٠٠	أموال المهاجرين
٥٠٠٠	تجارة الترانسيت
٥٠٠,٠٠٠	اللجنة الصهيونية
٨٠٠,٠٠٠	الجمعيات الخيرية
٢٠,٠٠٠	أموال مستثمرة في الخارج
١,٥٠٠,٠٠٠	نفقات الجيش البريطاني
١٠٠,٠٠٠	نفقات المهاجرين الشرقية
٥٠٠٠	واردات الموانى
٣,٦٧٠,٠٠٠	المجموع
٢٢٥,٩٧٨	عجز سنة (١٩٢٣)
٥,٢٧٣,١٨٥	المجموع العام

جنيه مصري	المصروفات
	المصروفات الظاهرة
٤,٨٢٥,١٨٥	قيمة الواردات
	المصروفات الخفية
٥٠,٠٠٠	واردات من شرقي الأرْدن
١٥٠,٠٠٠	وفر الموظفين الأجانب
١٠٠,٠٠٠	أرباح المصارف
١٠,٠٠٠	أرباح شركات التأمين
٢٥,٠٠٠	أرباح شركات غيرها
١٥,٠٠٠	مصارف الطلبة الفلسطينيين
٩٨,٠٠٠	خط سكة حديد يافا — القدس
٤٤٨,٠٠٠	المجموع
٥,٢٧٣,١٨٥	المجموع العام

ومن الأسباب العديدة التي تحول دون الإنتاج في الوقت الحاضر وفي فلسطين قلة الأيدي العاملة من بشر وحيوان وقلة العمال الفنيين في سبيل الإنتاج المختلفة ومشكلة الأرض وخصوصاً المشاع وقلة رؤوس الأموال اللازمة للقيام بالمشاريع الكبرى .

تجارات الأمم المختلفة في الشام[١] :

يقدر الخبيرون الواردات إلى سورية ولبنان من القارات الخمس بثمانية

(١) كتب هذه المقالة السيد محمد شخاشيرو .

ملايين دينار ذهبي مسانهةً وغالب ذلك من الأشياء الكمالية التي تقتضيها حالة الحضارة والترف ، فمن أهم ما تستورده الشام من فرنسا الكتب المدرسية والمطبوعات العلمية والأدبية والسياسية وأدوات الكتابة من أقلام ومحابر وورق وأنوال النسيج الإفرنجية ومواد الصيدلة والعقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة ومعدات موائد الطعام من سكاكين وملاعق ومتممات أخونة الطعام ولوازم القاطرات الحديدية والشاحنات ، ومن مواد البناء الترابة الكلسية والطوب والقرميد والبلاط الصناعي وآلات النجارة ومعدات الأبواب والنوافذ الحديدية والآلات الكاتبة من عربية وإفرنجية وأسلحة الصيد والمسدسات مع ما يلزمها من القذائف والبارود ، والأجواخ الصيفية على اختلاف أنواعها ، وثياب النساء حريرية وقطنية ، وأوان خزفية وبلورية وروائح عطرية على اختلاف أنواعها، والخمور والدقيق والمطابع وما يقتضي لها عن حروف وآلات طابعة والمواد الكيماوية وغير ذلك .

ومن أهم ما نستورد من إنكلترا القصدير والمعادن والأجواخ الشتوية الغالية الثمن ، والمنسوجات القطنية وهي أنواع كثيرة والغزل بأنواعه والموسى والسكاكين المعروفة بالإنكليزية وسرر النوم على اختلاف أنواعها المعمولة من الحديد والنحاس وسرر السفر وبعض مطبوعات علمية وأدبية وأسلحة الصيد والمسدسات وما يتبعها وكثير من العقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة والأسلاك النحاسية والمركبات ولوازمها . وأهم ما يرد على الشام من إيطاليا ألبسة الصوف على اختلاف أنواعها وأكسية القطن كالمدام واليمني والأجواخ الرخيصة الثمن والرخام المرمر الملون وبعض مطبوعات علمية وأدبية وقسم من السيارات والمركبات . وأهم ما يردنا من ألمانيا المطبوعات العلمية والأدبية وورق الكتابة وأدوات النجارة على تعدد أنواعها وأشكالها من مناشير ومطارق وأدوات الأبواب والنوافذ الحديدية وسرر النوم من النيكل والحديد والنحاس وسرر السفر والمسامير وأسلحة الصيد والمسدسات وتوابعها والرصاص والقصدير والأواني الخزفية وآلات الجراحة والعقاقير والمستحضرات الطبية والأواني النحاسية من طسوت وأباريق وأواني الحديد المدهون المستعمل في المطابخ والأصباغ على أنواعها والأدوات الكهربائية

على تنوع ضروبها والآلات الرافعة للماء وأدوات الزراعة الحديثة والجوخ .

وأهم ما يرد من النمسا صناديق الحديد والمقاعد والكراسي الخشبية المعروفة الالخيزران والورق . ومن المجر الكبريت والفاصوليا . ومن روسيا سخانات بشاي الفاخرة (السماورات) منها الأبيض ومنها الأصفر ، وخيطان الفضة المموهة وتدخل في الصناعة الشامية لوشي الحرير ، والبترول والطنافس والبسط الغاليا الثمن ، والفراء الفاخرة والأحذية المطاطة . وأهم ما تصدر إلينا بلجيكة بلور المرايا وزجاج النوافذ وأسلحة الصيد والمسدسات وحديد البناء وحديد الصناعة ولوازم حافلات الكهرباء وآلات الزراعة . وثياب وأجواخ كثيرة والصودا والسلك والورق . ومن بولونيا الخشب والمسامير . ومن أسبانيا القمصان والجوارب والفلين والزئبق وبعض الأدهان . ومن سويسرا الساعات الذهبية والفضية للنساء والرجال والمطرزات الصيفية من الأكسية والدنتلا والشوكولاته والجبن واللبن المعقم والزبدة وأدوات النسيج والأحذية . ومن هولاندة الجبن والغليسرين والسبيرتو والجعة والشمع والملبس (درويس) والبسكوت والدهان والأواني الخزفية والحليب المعقم والكتب العربية الجيدة .

وأهم ما يردنا من السويد الكبريت والمقوّى . ومن النروج زيت السمك والقطران وزيت النفط (التربنتين) . ومن الدانيمارك الحليب المعقم والسمك المقدد والمغموس بالزيت والجعة . ومن البرتقال سمك السردين . ومن التشيكوسلوفاكيا السكر والبلور والمالقي والجوخ العربي والجوخ العادي والأزرار والطرابيش والحرامات الصوف والأواني الزجاجية . ومن بلغاريا الجبن البلغاري ومن رومانيا الأخشاب وتعرف بالقطراني والشوح وقليل من البترول . ومن اليونان التبغ والزيوت والكونياك . ومن أميركا الشمالية والجنوبية آلات الخياطة والسيارات وما ينبغي لها والدراجات والمركبات والزيوت المعدنية والبترول والألكحول والبنزين والأحذية والقهوة والخشب المعروف بالأميركاني والساعات الأميركانية وآلات الهاتف والبرق والمطاط وأدوات الكتابة . ومن أوستراليا الدقيق الأوسترالي وغير ذلك .

وأهم ما يرد علينا من اليابان والصين الخزف الصيني والياباني وهو أشكال متعددة والحصر المنقوشة والحرير الياباني والصيني والغزل والشاي الصيني

والخام من اليابان والصين والحرير من شنغاي . ومن جاوة بطريق الحجاز الشاي والقهوة وثياب الحرير الصفيق المعروفة بالاستكروزة . ومن طرابلس الغرب وتونس والجزائر والغرب الأقصى نسيج صوف فاخر يعرف بالحرام وهو دثار الشتاء وحرير للصناعة هو أحسن أنواع الحرير . ومن الجزائر النبيذ الفاخر . ومن السودان الفول السوداني وبعض البهارات والصمغ والريش والعاج . ومن الحبشة القهوة . ومن مصر الثياب الصوفية يخيطونها عباءات في فلسطين والشال الحريري والأرز والسكر والمطبوعات العربية في مختلف العلوم والفنون .

ويردنا من تركيا الأحجار الكريمة وبعض مصنوعات الصياغ من الأواني الفضية الدقيقة الصنع ، والبسط الأورفلية نسبة إلى أورفة والطنافس وغالبها تعرف بأسماء البلدان التي تعمل فيها فيقال لها الرشواني والقيصري والكرداسي وتستورد الشام من بلاد الكرد الغنم والخيل المعروفة بالجاب وهي لحمل الأثقال والحرث والبسط والطنافس واللبد المعروفة بالكردية . وأكثر ما تبعث العراق البسط المعروفة بالبغدادي والعباءات المعروفة بالجيلانية نسبةً إلى جيلان والملاءات الحريرية وتعرف بالبغدادية يتخذها نساء القرى الشامية غطاءً . وأهم ما نتناوله من اليمن والحجاز البن أو القهوة المعروفة بالعدنية ،ومن المدينة المنورة بعض الطيوب والمراوح والتمر والحناء . ومن نجد الإبل والخيول العربية المشهورة .

وأهم ما يرد من بخارى الطنافس والبسط المفتخرة وتعرف بأسماء حواضرها . ويرد من الأفغان الطنافس والبسط الجيدة وتعرف بالأفغاني . ومن الخليج الفارسي اللؤلؤ ومصنوعات يدوية من بسط وطنافس وخراج وأعبئة . ومن فارس الشال الثمين والبسط والطنافس وعباءات الوبر وتعرف بأسماء حواضرها فيقال الشيرازي ، التبريزي ، الهمداني ، الخراساني من حواضر فارس، ومن أهم مجلوباتنا التنباك الأصبهاني وهو كثير المقطوعية في الديار الشامية والأسلحة البيضاء من مدى وخناجر وسيوف وتعرف بالعجمية ، والخاويار يجلب الآن من بحر الخزر .

وأهم الوارد من بلاد الهند الطيوب من مسك وعنبر وعود وكافور

والنيل والشاي على اختلاف أنواعه ومصنوعات النحاس من أباريق وطسوت وطاسات وأقداح صغيرة وكبيرة وصحاف تعرف بالهندي والبهارات والأفاويه بأنواعها. والشال البديع من صناعة كشمير ولاهور ، ويساوي الثوب منه وطوله ثلاثة أمتار بعرض متر ونصف من أربعين إلى خمسين ديناراً .

هذا مجمل ما يأتينا من الأرجاء المختلفة من ضروب الحاجيات والكماليات ، عدا أصناف المأكولات من شوكولاته وثمار محفوظة وبقول وحبوب ودقيق وفاكهة ولحوم مقددة وأنواع السكاكر الإفرنجية ، مما يصدر إلينا بحسب اللزوم ورواج سوقه إذا أصيب القطر بآفة في نواتجه ، وهذه الأصناف المجلوبة تدل على دقة نظر تجارها وحسن انتقائهم ، وضربهم في طول الأرض وعرضها ، حتى لا تكاد ترى فيما نعلم بلداً في الأرض لم ينزله شامي يبيع أو يشتري . ويقال في الأمثال العامة: «أعرج الشام وصل الهند» ، وإذا تأملت هذه المجلوبات الصناعية وجدتها مثال الجمال والمتانة مما يدل على ذكاء مستهلكيها ورسوخ قدمهم في الحضارة والترف . وقطر كهذا بينه وبين الغرب صلات مستحكمة في التجارة منذ أكثر من ألفي عام وبينه وبين الشرق صلات مثلها منذ عرف التاريخ هو عميل قديم أمين جدير بأن ينظر إليه بعين العطف ويهتم بشأنه أهل الغرب اه .

رأي في ازدياد الثروة والتجارة :

بعد أن عرفنا بالفصول السالفة تاريخ التجارة في هذا القطر ، وعلائقه مع الأمم في القديم ، ووقفنا على حالة تجارته اليوم ، وصلاته الاقتصاديه مع الشرق والغرب ، ورأينا العجز الظاهر في موازنته واختلال مجاريه الاقتصادية وأن دخله أقل من خرجه في الجملة ، يجدر بنا أن نلفت نظر أرباب الشأن في الأمة ، إلى أن الشام باعتدال أهويته وجميل طبيعته ، وتوسطه بين أقطار الشرق والغرب ، وما في تاريخه وآثاره من البدائع والروائع ، يستطيع أهله أن يجعلوه محط رحال معظم المسلمين في آسيا وإفريقية،وأقرب السبل إلى ذلك في نظر المفكرين ، أن يصلح ما تخرب في الثورة العربية من خط السكة الحجازية الممتد من دمشق إلى المدينة المنورة ، ويتم مد الخط الحديدي

إلى مكة المكرمة وجدّة ، وعندها يستطيع حجاج العراق وفارس وأفغانستان وبلوجستان والهند والصين وغيرها أن يسلكوا إلى الأرض الطاهرة عن طريق الشام من العراق على السيارات ريثما يمد خط حديدي عريض ، وتكون دمشق المحطة المهمة للصادرين والواردين ، ودمشق هي المدينة الإسلامية الرابعة بقدسيتها ، بين أكثر أقطار الشرق الإسلامي وبين الحجاز ، فإذا تم ذلك لا يقل عدد الحجاج الذين يؤمون دمشق عن ثلاثمائة ألف كل سنة، فإذا صرف الفرد عشرة دنانير ، واصطاف في الشام من العراقيين والمصريين عشرون ألفاً كل سنة على أقل تعديل ، وزارها عشرون ألفاً من سياح الإفرنج ، لا يقل ربح الشاميين كل سنة عن أربعة إلى خمسة ملايين دينار من هذه الطرق التجارية . ومما يسهل الوصول إليه عقد معاهدة بين حكومة الشام والحكومات المجاورة . حينئذ يعمر الحجاز وتم للشام سعادتها لأنها بالسكة الحجازية كانت تمون الحجاز قبل الحرب الكبرى فيسافر كل يوم من دمشق سبع مركبات تحمل من الطعام والبضائع ما لا يقل وزنه عن مئة ألف كيلو ، وناهيك بذلك من تبادل المنافع بين هذه الأقطار والممالك ، وما في ذلك من تيسير سبل الحج على شعوب لا تقل عن مئة وثلاثين مليوناً في العدّ ، كانت ترحل الأشهر لتحج واليوم تكفيها الأسابيع القليلة مهما بعُدت عليها الشقة إذا امتطت هذه السيارات وهذه القطارات ، ثم إذا تم إنشاء الخط الحديدي بين طرابلس وحيفا تتصل كالة في فرنسا بالقاهرة عن طريق أوربا وتركيا وتصبح الشام نقطة الاتصال بين أوربا وآسيا وإفريقية وفي ذلك من الفوائد لتجارة الشام ما لا ينكر .

انتهى الجزء الرابع من خطط الشام

ويليه الجزء الخامس وأوله التاريخ المدني — الجيش

فهرست

الجزء الرابع من خطط الشام